تشارلز الكسندر روبنصن

أثينا

في عهد بركليس

ترجمة الدكتور أنيس فريحة

أثينا
في عهد بركليس

تشارلز الكسندر روبنصن (الابن)

أثينا
في عهد بركليس

ترجمة الدكتور أنيس فريحة

مكتبة لبنان

المسهمون في هذا الكتاب

تشارلز الكسندر روبنصن (الابن)

(المؤلف) نال درجاته العلمية من جامعة برنستون ، ودرس ودرّس في المدرسة الاميركية للدراسات الكلاسيكية في اثينا، وفي الاكاديمية الاميركية في روما . وهو الآن استاذ الدراسات الكلاسيكية في جامعة براون . له عدد من الكتب ، واكثر من مائة وخمسين مقالة في موضوعات كلاسيكية وتاريخية .

الدكتور أنيس فريحة

(المترجم) حصل على الدكتوراه في اللغات السامية من جامعة شيكاغو ، وهو الآن رئيس الدائرة العربية في الجامعة الاميركية ببيروت، واستاذ اللغات السامية فيها . وله مؤلفات عديدة .

مقـــدمة

هذا الكتاب دراسة موجزة عن أثينا في القرن الخامس ق.م. وقد حاولت فيها أن أبيّن بصورة عامة وبناء على الدراسات التاريخية الدقيقة ، مركز اثينا وقيمة تلك الفترة التاريخية التي تعرف «بأثينا في عهد بركليس». وقد اردت ان تكون دراستي لهذه الحقبة في متناول العامة من الناس ، وان تأتي وفقاً للخطة التي انتهجتها مطبعة جامعة اوكلاهوما عندما وضعت مخطط « سلسلة الكتب الموسومة بـ : مراكز الحضارة » . وبازدياد المعلومات التي أسفرت عنها البحوث المركزة التي تدور حول اثينا القديمـــة يتحتم على الكاتب الذي يتناول هذا الموضوع أن يلم الماماً شاملاً بأهمية هذه الفترة ككل ؛ وفضلاً عن هذا عليه أن يفسر ، اذا كان ذلك في حيز الامكان ، لماذا أصبحت اثينا، في تلك الفترة، ذات شأن خطير في بلاد الاغريق. ولا شك في انه يسهل علينا فهم تاريخ اثينا في عهد بركليس اذا عرفنا شيئاً عن تاريخ الفترة التي سبقت الفترة التي نحن بصددها ، واذا عرفنا شيئاً عن الدور الذي لعبته اثينا في الفترة التي تلت ذلك العهد . لهذا وجهت اهتمامي الى كلتا الفترتين ، السابقة لعهد بركليس واللاحقة له . إلا اني ركزت اهتمامي على المدينة عندما

بلغت الذروة في عظمتها . وقد عرضت امام القارىء ما اعتبرته أهم المزايا التي تميزت بهـــا تلك الفترة ، وحاولت ان أبيّن خطورة شأنها . فأسفرت الدراسة عن صورة لمجتمع كثير التعقيد، كما هو شأن كل حضارة عظيمة ، بما تعكسه تلك الصورة من مفاخر ومآت مجيدة ، ومن عيوب وأخطاء . ولربما استوقفتنا ظاهرة انحطاط اثينا اكثر مما تستوقفنا ظاهرة اخرى ، لا سيما اذا تذكرنا ان الاغريق بلغوا الذروة في التقدم الحضاري في عهد بركليس ، كما انهم اخذوا بالتدهور في زمانه ايضاً . هذا هو ما اعتقده انا . ولكن في مثل هذه الامور الخطيرة يحسن بالمرء ان يؤكد مـــا هو محتم وظاهر للعيان ، اعني ان الحكم على فترة مجيدة من فترات التاريخ انما هو حكم ، بالضرورة ، ذاتي .

كان الصديقان ، الاستاذ جلبرت هايت Gilbert Highet من جامعة كولومبيا، والاستاذ ك. برادفورد ولز C. Bradford Welles من جامعة ييل يقرأان المسودة في أثناء المراحل التي مرّ بها الكتاب . فاليهما اسدي جزيل شكري للعون السخي الذي قدماه لي . وقد رجعت الى الترجمات التالية :

هيرودوتس Herodotus ترجمة جورج رولنصن Rawlinson؛ ثوسيديدس Thucydides وجمهورية افلاطون ترجمة بنيامين

جويت Jowett ؛ وكتاب زينوفـــون « Old Oligarch » Xenophon الموسوم بـ Hellenica ترجمـــة هـ. ج. داكنز Dakyns ؛ وكتاب افلاطون الموسوم بـ « Symposium » ترجمة برسي بيش شلي Shelley ؛ وكتاب اسكلوس Aeschylus الموسوم بـ « Prometheus Bound » ترجمة كلارنس و. مندل Mendell (وعنوان ترجمته « Prometheus » نيوهافن، مطبعة جامعة ييل ١٩٢٦) ؛ وكتاب سوفوكليس «Oedipus the King» ترجمة داڤيد غرين Grene (في كتابه الموسوم بـ : «Three Greek Tragedies in Translation » جامعة شيكاغو ، ومطبعة جامعة شيكاغو ١٩٤٢) ؛ وكتاب سوفوكليس : «Oedipus at Colonus» ترجمـــة إ. هـ. بلمبتر Plumptre ، وكتابه الثالث الموسوم بـ « Antigone » ترجمـــة روبرت هويتلو Whitelaw ؛ وكتاب بـــلوتارخ الموسوم بـ « بركليس » ترجمة ارثر هيوكلوف Clough . وعليّ ان اعترف ايضاً بالجميل للسيدة عقيلة جايمس ج. فين Fine لفضلها وبراعتهـــا في طبـع الكتاب على الآلة الكاتبة ، قبل ارساله الى المطبعة .

تشارلز الكسندر روبنصن (الابن)

مدينة بروفيدنس ، رود ايلند

في الثامن من كانون الثاني سنة ١٩٥٩

١ نزاع وعقيدة وتحرر فكري

ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد ، ذلك القرن الذي حفل بالمآثر المجيدة ، عدد كبير من « المدن — الدول[1] » في جميع ارجاء بلاد اليونان . وكان كل من هذه المدن — الدول ، نظرياً ، دولة ذات استقلال وسيادة . غير ان هذه النظرية (ان المدن — الدول كانت مستقلة) كغيرها من النظريات ، تحتاج الى تعديل ، لان عكسها هو الصحيح ، اي انها لم تكن مستقلة استقلالاً تاماً . ولكن بالرغم من ذلك فقد كان توق الاغريق الشديد الى الاستقلال الذاتي ميزة تميز بها تطورهم الحضاري ودفعت بالبشرية الى مستوى من العيش الكريم لم تبلغه في عصر من العصور الخالية . ولكن بعد ان وضح لهم ان الوحدة الشاملة او الاتحاد العام ، هو افضل من الاستقلال الذاتي — هذا اذا كانوا يرغبون في الحفاظ على نظام المدينة — الدولة على انها حافز يدفع بالسياسة الاغريقية الى الامام — ظلوا على تمسكهم العنيد وأبوا ان يواجهوا الحقيقة ، فحكموا على انفسهم بالقضاء المحتوم .

---

١ — ترجمة : City-States وهو مصطلح يطلق على المدن القديمة التي كانت تشكل دولة مستقلة ذات سيادة . (المترجم)

وليس تفسير هذه الحقائق التي تعد من اخطر القضايا التي يثيرها علم التاريخ بايسر من تعليل حقيقة الحضارة الاغريقية ذاتها ، تلك الحضارة التي تحير لب المؤرخ . انما هنالك حقيقة بادية للعيان ، وهي انه لم تقم دولة من بين الدول العديدة الممتدة من البحر الاسود الى غربي شواطىء البحر المتوسط تضاهي اثينا في الروعة والجلال ، او في اتساع رقعة امبراطوريتها ، او في ثروتها ومنعتها . ولم تكن هنالك دولة تمارس الديمقراطية الخالصة المباشرة . وقد كان الرجل الذي يعود اليه الفضل في هذه المآتي المجيدة ، بركليس ، زعيم الديمقراطية الاثينية .

يخبرنا بلوتارخ ، من مؤرخي القرن الاول بعد الميلاد ، وكاتب السير المشهور انه عندما دخل بركليس دور الاحتضار جاء عدد من نبلاء المواطنين ومن اصدقائه الذين استبقاهم احياء يعودونه فجلسوا حول فراشه وراحوا يعددون مآثره وفضائله ونواحي قوته ، ويحصون « اعماله العظيمة وانتصاراته العديدة ، فانه ، كقائد لهم وكقاهر لاعدائهم اقام اكثر من تسعة انصبة تذكارية تخليداً لمدينتهم ، اثينا ، وتكريماً لها . غير ان بركليس ابدى دهشته من اطرائهم اموراً هي نتيجة الحظ والظروف اكثر مما هي شيء آخر ، فضلاً عن انها امور قد حصلت لعديد من القادة ، وتعجب من اغفالهم ذكر أهم امر واخطره ، الا وهو ، كما يقول بركليس ، ان احداً من الناس في اثينا لم يلبس ثياب الحداد بسببي » . والواقع ان في قوله هذا اسرافاً في المباهاة ، لا سيما

وان قائله كان الرجلَ الذي مهد السبيل لتقويض الحضارة الاغريقية بكاملها . ولكن هل من قائد او زعيم ظهر في التاريخ إلا واعتبر نفسه غير مسؤول عن شقاء امته ومصائب بلاده ؟ وهل بلغت حضارة في التاريخ ذروتها من غير ان تبذر، في الوقت ذاته ، بذور الهلاك والخراب ؟ السنا نرى صلة رحم وقرابة بين السيادة والمنعة من جهة وبين الاستكانة والضعف من جهة اخرى ؟

« قبل انقضاء ربيع الحضارة الاغريقية » ظهر عدد من اعلام الرجال الذين سطع نورهم في سماء اثينا . وكما ان مآتيهم الفكرية كانت معلماً من معالم تاريخ الحضارة الانسانية ، فقد كان عجزهم عن خلق مجتمع فيه من خصائص البقاء والديمومة خسارة انسانية فادحـــة . واخطر سؤال يجابهنا في دراستنا التاريخ هو : كيف يتسنى لنا ان نعلل الاسباب التي جعلت دولة ما تبلغ الذرى في حياتها الروحية والفكرية . وفي التاريخ القديم بلغت اثينا هذه الذرى وعُدّت صاحبة التاج غير المنازع فيه . فالاجابة ، اذن ، عن هذا السؤال الخطير – كيف بلغت اثينا هذه الذروة ؟ – ينبغي ان تكون اجابة تقوم على دراسة تاريخ اثينا ذاتها .

ان افضل كلمة تصف لنا مدينة اثينا في عهد بركليس هي الحيوية الناشطة . فقد كانت الصناعة والتجارة في الامبراطورية

الاثينية، لا بل في جميع انحاء حوض البحر الابيض المتوسط ، تتمركز في مينائها بيرايوس (Piraeus) مما جعل اهل اثينا يتعرفون الى اقوام وشعوب غريبة ، والى سلع تجارية من كل صنف ونوع . وكانت الحكومة ترعى اقامة اعياد ومهرجانات على غاية من الروعة والابهة ، وفي فترات عديدة لم يعهدها الناس فيما مضى من الزمن . فكانت الاموال تتدفق على الخزينة مما وفر للحكومة ان تبني الهياكل وتشيد البنايات. وكان المناخ الفكري الحضاري يستهوي اهــل الفكر ويحملهم على الاقامة في اثينا حيث يستطيعون ان يقوموا بنشاطهم الفكري على اتم وجه .

ان الفضل في هذا كله يرجع ، ولا شك في ذلك، الى سكان اثينا . ويبدو ان الاثينيين كانوا على ثقة من انفسهم بان لهم من المؤهــلات والخصائص ما يمكنهم من ادارة مدينتهم وامبراطوريتهم . وفضلاً عن هذا فانهم كانوا دوماً على استعداد للتكيف والتطور عندما تنشأ مشاكل جديدة تتطلب حلولاً جديدة . فكان النجاح يحالفهم المرة تلو الاخرى ، والنجاح يولد الثقة بالنفس ، ويحمل المرء على مزيــد من الاقدام والاعتزاز . فلم يطل الوقت حتى اخذ الاثينيون يشعرون ان مصالحهم الخاصة هي مصالح الامبراطورية ذاتها ، فكانوا اذا شاءوا يتجاوزون مصالح حلفائهم وبشيء من الحيف والظلم كما كانت تقتضيهم الحال .

ان معرفة العلل والاسباب التي جعلت الاثينيين زعماء بلاد الاغريق كما اشرنا آنفاً ، من الامور التي تتحدى فهم المؤرخ وقدرته على تعليل التاريخ . اما لماذا كان الشعب الاغريقي شعباً موهوباً يفوق في ذكائه معدل سائر الناس – ولماذا كان ، الى جانب امور اخرى كثيرة ، شغوفاً بالعقلانية – فسؤال آخر يختلف كل الاختلاف وربما ظل سؤالاً لا جواب له . ومن المرجح اننا لن نستطيع ان نفسر لماذا كان الاغريق اول شعب في التاريخ اكتشف قيمة الفرد واهميته كما اكتشف الشعب العبراني القديم الله الواحد، ولسنا ندرك الآن مغزى اصرارهم الملح على احترام الكرامة الانسانية وعلى ان الانسان مخلوق مسؤول . فقد قال احد مفكريهم ، بروطغورس (Protagoras) : « ان كل شيء في الكون يقاس ، من حيث قيمته ، بالنسبة الى الانسان » .

ولكن ، اذا حاولنا ان نتساءل عن الاسباب والعلل التي جعلت من مدينة اثينا ، لا من غيرها من المدن الاغريقية ، مركزاً فكرياً يدفع بعجلة الحضارة الاغريقية النامية ، فاننا لا شك ، نستطيع ان نجيب عن هـــذا السؤال بشيء من الدقة والصحة اذا نحن نظرنا في تاريخ المدينة ذاتها .

ان في التاريخ أدلة وبراهين كثيرة تؤكد لنا ان الانسان لا ينسى الظلم والطغيان بل يتذكرهما دوماً ، وما ان ارلندا والجنوب في الولايات المتحدة شاهدان صارخان قريبا العهد منا.

وفي تاريخ بلاد الاغريق القديمة حقيقة رئيسية ثابتة تشهد على صحة زعمنا ، وهي الغزوة المعروفة بغزوة الشعب الدوري (Dorian) التي وقعت سنة ١١٠٠ ق. م. عندما تدفقت جموع الدوريين المحاربين الاشداء الى سائر انحاء اليونان وقضت على حضارة العهـد البرونزي الزاهر في البلاد ، فاختفت اسماء وطمست معالم حضارات كحضارة الميسينيين وحضارة كريت وعاصمتها مينوس وطروادة. ذلك لان عصراً جديداً كان قد بزغ نوره ، نعني العهد الاغريقي الكلاسيكي الذي كان قد دخل طور التكوين. وكان الارث الذي خلفته جموع الدوريين ، حيث كانوا ينزلون باعداد كبيرة ، ذكرى ثورات وسفك دماء.

اما اثينا فقد نجت من شر الثورات ومن سفك الدماء وذلك بفضل انتصار احرزوه في معركة جرت عند الحدود فتجاوزت جموع الدوريين مدينتهم وانحرفت جنوباً الى سلسلة جبال البلوبونيسوس (Peloponesus) . غير انه من الطبيعي ان نفترض انه كان لدى الاثينيين مشاكل اخرى خاصة بهم ، إلا ان الكراهية العنصرية لم تكن من جملة هذه المشاكل. وبما ان مشاكلهم لم تكن ربما من الحدة والتعقيد بحيث انهـا كانت مشاكل تعصى على كل حل ، فان الاثينيين وحدهم من بين الشعب الاغريقي كله اظهروا جرأة واقداماً في اتخاذ موقف حاسم في سياستهم المقبلة، ولسنا نعلم السبب في ذلك لانه ليس لدينا وثائق معاصرة تحدرت الينا من ذلـك العهد السحيق. انما هنالك

حقيقة ظاهرة بينة وهي ان اهل اتيكا اتفقوا فيما بينهم واستقر رأيهم على ان تتركز السلطة وتنحصر في مكان واحد: في اثينا.

كانت الظاهرة السياسية التي تميزت بها بلاد اليونان كما نعهدها في العصور التاريخية الواضحة - نعني « المدينة - الدولة » - هي قيام مجموعة من المدن مستقلة استقلالاً تاماً وتبدي نشاطاً عجيباً . مثال على ذلك قيام عدد من هذه « المدن - الدول » في مقاطعة بيوثيا (Boeotia) الواقعة الى الشمال من اتيكا . ولنا ان نتكلم عن اهل مدينة ثيبس (Thebes) ، وعن اهل مدينة ثسبيس (Thespis) وعن غيرهما كشعوب مستقلة ، ولنا ايضاً ان نعتبر هذه الشعوب وحدة ونسميها شعب بيوثيا ، وانما ليس لنا ان نتكلم عن اهل اتيكا على انهم شعب واحد يعرف بالشعب الاتيكي ، بل كان اهل المدن الواقعة في اتيكا ، مثل مدينة اليوسس (Eleusis) ومرثون وسنيوم (Sunium) وغيرها جميعهم اثينيين .

وعليه ، عندما ندخل وضح التاريخ المدوّن نجد اهل اتيكا - بالرغم من مشاكلهم العويصة المتعددة - غير متنابذين ولا متخاصمين، بل كان الامر على نقيض هذا فانهم استطاعوا ان يوفقوا فيما بينهم مما ادى الى اندماجهم واتحادهم في دولة واحدة. نعم ، كان هنالك دوماً نزاع وصراع في داخل اثينا بين الافراد والطبقات من الناس ولكن هذا الصراع لم يكن من الحدة بحيث

لم يترك مجالاً لقيام انواع اخرى من الصراع والتنافس ، نعني الصراع الفكري الخلّاق .

ان قدرة الناس على ان يوفقوا فيما بينهم عندما ينشأ خلاف ، او يقوم صراع ، هي حجر الزاوية في الديمقراطية . ولنا ان نتقبل هذا التعميم العام بدون جدل وبرهان . ولكن من ناحية اخرى لنا ان نقول بان قيام الصراع والنزاع والاشتراك في هذا الصراع والنزاع على المستوى الفكري العالي الذي يتمدى استعمال القوة ، هو ايضاً ضروري وحيوي للانتاج الفكري وللنشاط العقلي . والدليل على صحة هذا القول واضح بَيّن ، حتى ان كثيرين من المؤرخين اتخذوه دليلاً وبرهاناً على تفسير اعقد احجية من احاجي التاريخ : نعني تقلص الامبراطورية الرومانية وانهيارها [1] .

ففي القرن الثاني للميلاد ، وفي عهد الامبراطور هدريان والانطونيين استطاعت الامبراطورية الرومانية ان ترتفع بالعالم المتحضر بأسره الى ذرى لم تبلغها المدنية من قبل . ولكن شبح الانهيار كان ماثلاً للعيان بينما ، في الوقت ذاته ، كان السلام العالمي الشامل والازدهار الاقتصادي العام يخيمان على العالم من بريطانيا

---

١ — يريد المؤلف ان يقول ان الصراع الذي كان يقوم في الامبراطورية الرومانية كان صراعاً مادياً يلجأ الى القوة ، لا صراعاً فكرياً يلجأ الى العقل والى القدرة على التوفيق بين مختلف المذاهب . (المترجم)

شمالاً الى بلاد ما بين النهرين (العراق) جنوباً . وهذا القرن بالذات ، كما هو معلوم ، لم يشهد سوى ظهور بعض الكتب العظيمة (مثلاً مؤلفات لوسيان) . ولم تظهر مبادىء جديدة في الفنون، ولا اكتشافات علمية ذات بال ، ولا فِكـرٌ بناءة في فلسفة الحكم ، اللهم اذا استثنينا بعض النظريات الفقهية . وكذلك اذا استثنينا بعض الاعمال الهندسية فان هذا القرن كان قرناً أسِنَت فيه التقنية أسنا تاماً . وهذا مما يدعو الى الدهشة ، لا سيما اذا نحن تذكرنا ان الحضارة بدأت في وادي النيل ، وفي وادي الفرات ودجلة ، باكتشاف نظام للريّ ، ووضع نظام للكتابة والتقويم .

لقد زعم بعضهم ان الطبقات الاجتماعية العليا في الامبراطورية الرومانية هي التي كانت مسؤولة عن هذا الركود الفكري الاسن ، لان التقدم التقني من شأنه ان يتحدى ويحفز بعض الطبقات المحظوظة التي كانت تعيش على جماعة من العبيد والفلاحين الذين يستأجرون منهم الارض . غير ان الرخاء والعيش الهانىء لا يظلان وقفاً على طبقة واحدة من طبقات المجتمع . ففي اثناء القرن الثاني تناول الرخاء والرفاهية في العيش حقل الادب ، الحقل الذي يلمع فيه الانسان القديم ، لا سيما الطبقة الارستقراطية . ولكن التقليد في الادب اخذ يحل محل الابتكار ، وراح النقل يقتل في الاديب روح الابـــداع والمبادرة . وصار للصياغة والاسلوب قيمة اكثر مما كان للفكر والخيال . وكان جمهور القراء يضم عدداً محدوداً من اهل الثقافة والعلم .

ولكن في الفترة ذاتها، وفي المجتمع ذاته ، ظهر ادب جديد، الادب المسيحي الذي كان ينم عن حيوية جديدة . كان هذا الادب الجديد يستأنف الى عاطفة العامة من الناس ، كما انه كان يستهوي الخاصة من الطبقة المثقفة . وقد كان ينبغي لهذا الادب المسيحي ان يكون ذا اثر في نفوس الناس والا لم يكن ليضمن لنفسه صفــــة الاستمرار والخلود . كان ادباً يتميز بالصراع ، بالصراع مع الوثنية ، بالصراع مع الهراطقة (الخوارج) ، وضد الحكومات نفسها .

ونحن نطلق كلمة « صراع » في هذا المجال عوضاً عن كلمة عقيدة وايمان يجاهد الانسان في سبيلها . كانت حضارة العالم الروماني حضارة ارستقراطية ، وعندما ابت الطبقة الارستقراطية ان تساير الزمن في تقدمهــا آلت الزعامة الى طبقة اخرى من الناس في الدولة. ولا يعني قولنا هذا ان المجتمع، لكي يكون مجتمعاً خلّاقاً مبدعاً ، ينبغي له ان يكون مجتمعاً ديمقراطياً . ذلك لانه الى يومنا هذا لم تقم ديمقراطية حقيقية تامة في اية بقعة من بقاع الارض . ولكن ينبغي ان تقوم في كل مجتمع طبقة من الناس تنزع الى الحياة الجديدة وتعمل في سبيلها، والا استولى الركود العقلي على المجتمع باسره .

لقد انجزت بلاد اليونان القديمة ما انجزته — ولا سيما مدينة اثينا — لان نسبة مئوية كبيرة من المواطنين اشتركت اشتراكاً

فعلياً في خلق حضارتها الناشطة النامية . وينبغي لنا ان نقول ايضاً ان جميع الولايات الاغريقية اسهمت في تقدم الحضارة ، ولكن مدينة اثينا كانت تتزعمها لانه اتيح لسكانها ان يجربوا وان يختبروا طوال قرون عديدة ، وقد استفاد الشعب من هذه الفرص التي سنحت له .

لا شك في ان بعض هذا التقدم الذي احرزته اثينا كان نتيجة الصدف. اذ لا يحق لسكان اثينا القدماء ان يدعوا الفضل في انهم كانوا السبب في منع الدوريين من ان يخضعوا اسلافهم ، ولكن لهم ان يدعوا الفضل في انهم اسهموا في التجربة التي تلت تلك الاحداث .

واول ما تجدر الاشارة اليه هو ان كل مدينة من مدن اتيكا تخلت عن سيادتها وسلطتها الى مدينة واحدة هي اثينا . وفي عام ٥٩٤ ق.م. ، وفي عهد الاصلاح الذي قام به صولون ، نلحظ معالم التحرر الفكري ، ذلك التحرر الذي كانت تتفرد به « المدن — الدول » في بلاد اليونان . وفي هذه الفترة لم تكن اثينا قد بلغت بعد مكانتها وأهميتها في العالم المعاصر . فقد كانت مقاطعة يعيش أهلها على الزراعة ، ولكي يقوّي صولون اقتصادها ، فانه عمد الى ادخال الصناعة وتنشيطها . وبما انه لم يتوافر في مدينة اثينا صناع حاذقون ، وباعداد كبيرة ، — صناع لصنع الآنية الخزفية والمرايا والدروع وما اشبه — فان صولون اقنع

مواطنيه بأن يهرعوا الى استقدام الصناع من الخارج وان يمنحوهم، بصورة خاصة، الجنسية الاثينية . وكانت هذه الخطوة ضرورية لضمان نجاح الدعوة واستهواء اولئك العمال الاجانب .

ولكي نقدر اهمية هذه السياسة الاقتصادية علينا ان نذكر ان مثل هذا العمل — اعطاء الجنسية لاجنبي — في نظر اهل « المدن — الدول » في بلاد اليونان امر فظيع فيه خروج على العرف . اذ ان الطريقة الوحيدة التي يمكن للمرء ان يكون مواطناً في بلد ما هي ان يكون من مواليد ذلك البلد، وان يكون ابن امرىء حر ولد ابواه ايضاً في ذلك البلد. وقبول اهل اثينا اقتراح صولون عمل يتضاءل معه كل تحرر بدر عنهم .

ولا نشك في ان صولون يجب ان يكون قد قدر في ذهنه ان تدفق الصناع باعداد كبيرة سيسفر عنه قيام طبقة من العمال (بروليتاريا) تكون ذات قوة في قيام الديمقراطية في زمن لم تكن قد ظهرت فيه الديمقراطية بعد . ويبدو ان هذه الحقيقة كانت واضحة تمام الوضوح لانه عندما راح يهيىء لقيام حكم ذاتي مستقل محدود الاطار اتخذ بعض الاجراءات الاستثنائية لقيام مثل هذا الحكم . فقد كانت مؤهلات المرء لان يشغل وظيفة ما تقوم على المال والثروة، ولكن الثروة الى هذا العهد كانت تقاس بمقدار الغلال التي كانت تنتجها مزرعة الرجل من حنطة وزيت وخمر . وقد كانت مثل هذه الشروط مانعاً يحول دون الوصول

الى الوظيفة ، لان مصادر الثروة كانت في حوزة الطبقة الارستقراطية، نعني ملكية الارض . وقد الغى صولون الشروط القديمة ، شروط ملكية الارض ، واستعاض عنها بشروط جديدة وهي الثروة النقدية . وقد نجم عن هذا التدبير ان اصبح جميع الناس ـ باستثناء الفقراء المعدمين ـ مؤهلين لان يشغلوا وظائف حكومية ، وذلك بفضل نمو المدن وازدهار الاقتصاد وما يترتب على هذا من انخفاض في قيمة النقد . هذا هو الاتجاه الذي كانت تتجه فيه اثينا في القرن السادس قبل الميلاد .

ان ثقة الاثينيين العظيمة بانفسهم هي التي دفعتهم الى ان يشركوا الاجانب المهاجرين الى مدينتهم في المواطنية، المواطنية التي هي اثمن شيء عندهم . هذا السخاء في العطاء، وهذا التحرر المنفتح على آفاق فكرية، اسفرا عن حيوية عجيبة وعن رغبة صادقة في ان يمتحنوا وان يتعلموا من اختباراتهم واخطائهم حتى اذا ما اشرف القرن السادس على نهايته كان الجو ملائماً ، والسبيل ممهداً للاصلاحات الديمقراطية التي قام بها كليستانس . فاصبح بالامكان اصلاح القوانين وتطويرها ، لا بل تعديلها تعديلاً جذرياً . ذلك لان الدولة اطمأنت الى ولاء الناس وحسن ثقتهم بها . واذا اقتضت الحال فان المواطنين كانوا على استعداد ان يحاربوا في سبيل الابقاء على مؤسساتهم الاجتماعية . وبالفعل لم يطل الزمن حتى دعت الدولة ابناءها للذود عنها ، وذلك عندما قامت دولة الفرس تهدد بلاد اليونان في زحفها وتوسعها غرباً .

كان الاثينيون لا يختلفون عن سائر سكان البلاد في شعورهم انهم كانوا من جبلة تميزهم عن سائر البشر ، وانهم كانوا ارقى فكراً وحضارة ممن كانوا يسمونهم البرابرة ، اي سائر الشعوب الاخرى . وهذا الزعم في انهم من جبلة تميزهم عن سائر الناس فكرة استهوت المؤرخ هيرودوتس وراقت له كثيراً . كتب هيرودوتس تاريخ الحروب الفارسية وهو في اثينا في عهد بركليس، ولكنه ولـــد في آسيا الصغرى فكانت معرفته بالعالم الذي استولت عليه مملكة فارس ، ذلك العالم المعقد المزيج من عناصر بشرية مختلفة ، معرفة لصيقة . وفي سرده اخبار تلك الحروب التي نشبت بين الفرس والاغريق عند مستهل القرن الخامس اراد ان يفهم القارىء الاسباب الاساسية لنشوء الازمة بينهما وان يوضح الفروقات في طبيعة كل من المتحاربَين . فخطر على باله ، ايضاحاً للامر ، ان يصف اجتماعاً عقد بين صولون وبين كريسوس ملك ليديا الذي كان غناه يفوق التصور ، قال :

عندمـــا ضمت امبراطورية ليديا جميع هذه الفتوحات ، وعندما بلـــغ ازدهار العاصمة سرديس ذروته ، شرع حكماء اليونان المعاصرون ، الواحد منهم تلو الآخر ، يقومون بزيارة المدينة ، وكان من جملتهم صولون الاثيني . وكان صولون ، وقت ذاك، يقوم برحلة قصد التغيب عن اثينا مدة عشر سنوات متذرعاً انه كان يرغب في ان يرى العالم، ولكنه في الواقع كان يخشى ان يرغم على نقض القوانين التي سنها للاثينيين بناء على طلب منهم . ولم يكن

في استطاعة سكان اثينا نقض هذه القوانين بدون موافقته ، لانهم كانوا قد اتخذوا على انفسهم عهداً ، بعد اداء اليمين ، ان يطبقوا هذه القوانين التي فرضها عليهم صولون مـــدة عشر سنوات .

لهذا السبب ، وبحجة انه يريد ان يرى العالم ، شرع صولون برحلته هذه ، وفي طريقه عرج على مصر ليزور بلاط الفرعون عمسيس ، ومن ثم الى سرديس ليزور كريسوس . فاستقبله كريسوس ضيفاً وانزله في القصر الملوكي . وفي اليوم الثالث او الرابع طلب كريسوس الى خدمه ان يطوفوا بصولون ليرى كنوزه وليشاهد مبلغ عظمتها ووفرها . وبعد ان رآها كلها وبعد ان تفحصها ، بقدر ما سمح له الوقت ان يتفحصها ، سأله كريسوس قائلاً : « ايهـــا الضيف الاثيني الغريب اننا سمعنا الكثير عن حكمتك وعن رحلاتك في مختلف بلدان العالم محبة منك في الاطلاع ، ورغبة منك في مشاهدة العالم ، ولذا فاني تواق الى ان اسألك سؤالاً وهو : مَن مِن الذين عرفتهم تعتبره اكثر الناس سعادة ؟ وقد وجه اليه هذا السؤال لاعتقاده انه اسعد الناس . غير ان صولون اجابه قائلاً ، بدون تملق ومداهنة بل باخلاص املاه عليه شعوره الحقيقي — « ان اسعد الناس ، سيدي ، هو تلس الاثيني » . فاندهش كريسوس عند سماعه هذا الجواب وقال له بشيء من الحدة : « ولماذا تعتبر تلس اسعد الناس ؟ » فاجابه : « اولاً : انه اسعد الناس لانه عاش في زمن

رأى وطنه يزدهر ويتقدم . وقد كان له بنون على جانب من الجمال والصلاح ، وعاش الى ان رأى احفاداً لكل من اولاده . وهؤلاء الاحفاد عاشوا وكبروا . ثانياً : لانه عاش حياة نعتبرها في بلادنا حياة هانئة مريحة ، وكانت نهاية حياته مجيدة تدعو الى الفخر والاعتزاز. ففي معركة وقعت بين الاثينيين وجيرانهم من سكان اليوسس هب الى نجدة مواطنيه فدحر الاعداء ، ومات شجاعاً في ساحة المعركة . فاقام له اهل اثينا مأتماً شعبياً في البقعة ذاتها التي سقط فيها شهيداً وأبنوه تأبيناً يليق به » .

وهكذا راح صولون يعظ كريسوس وينذره متخذاً تلُّس مثالاً يحتذي به ، وأخذ يعدد الاسباب العديدة التي جعلته اسعد الناس . وعندما انتهى من حديثه عاود كريسوس السؤال قائلاً من يأتي في المرتبة الثانية بعد تلُّس في السعادة ، متوخياً بذلك ان يفوز هو نفسه بهذه المرتبة. فأجاب صولون: « يأتي في المرتبة الثانية كليبوس وبيتو ، فانهما كانا ينتميان الى العرق الذي توطن أرغوس . وكان عندهما من الثروة ما يسدان به حاجاتهما المعاشية . والى جانب هذا كان لهما من القوة الجسدية ما أهّلهما للفوز بجوائز الالعاب الرياضية . ويحكى عنهما الخبر التالي : أقيم مهرجان عظيم تكريماً للإلاهة هيرا في مدينة ارغوس ، ولكي تذهب امهما الى مكان المهرجان كان يتوجب نقلها على عربة . ولكن الثيران التي تجر العربة لم ترجع من الحقل الى البيت في الوقت المعين ، واذ خشي الاخوان من الوصول الى

المكان متأخرَيْن ، فانهما وضعا النير على كتفيهما وجرا العربة التي تقل امهما . وقــد جراها مسافة ٤٥ فرسخاً ووقفا امام الهيكل حيث شاهدهما جمهور المتعبدين في الهيكل . وكانت خاتمة حياتهما على أحسن مــا يمكن لحياة امرىء ان تنتهي . وبوساطة هذا العمل أظهر الله ، وبكل وضوح ، كيف ان الميتة الفاضلة امر افضل من الحياة، ذلك ان اهل ارغوس الذين تجمعوا حول العربة اكبروا القوة الجسدية التي كان يتحلى بها هذان الاخوان ، كما ان نساء ارغوس غبطوا الام التي تباركت بوساطة هذين الابنين . كذلك الام التي أخذ الفرح منها مأخذاً بسبب هذا العمل المجيد ، وبسبب الاطراء الذي ناله ولداها ، فانها وقفت منتصبة امام صورة الإلاهة وتضرعت اليها ان تمنح ابنيها كليوبس وبيتو اعظم البركات التي يمكن ان تمنح للبشر . وبعد ان أنهت صلاتها قدموا الذبائح واشتركوا جميعاً في وليمة مقدسة. وبعد الوليمة استلقى الاخوان على فراشيهما في الهيكل ليناما ويستريحا ، ولكنهما لم يستيقظا ، فانهما ماتا وفارقا هذه الدنيا . وبما ان اهل ارغوس اعتبروهما من افضل الناس فانهم عملوا لهما تمثالين وقدموهما الى هيكل دلفي .

بعد ان وضع صولون هــذين الرجلين في المرتبة الثانية من مراتب السعادة نظر اليه كريسوس وقال غاضباً : « اذن ، ايها الضيف الاثيني الغريب ، اين انا من السعادة ، وما هي سعادتي التي تعتبرها شيئاً لا وجود له ، حتى انك تأبى ان تضعني في مصاف العامة من الناس » ؟

« ايها الملك كريسوس » اجاب صولون « انك تثير قضية الانسان ، قضية الانسان الذي يدرك ان القوى السماوية المسيطرة علينا قوى تتأجج فيها الغيرة وحب الاذى وازعاج الانسان . ان المرء الذي يعيش حياة مديدة يشاهد كثيراً ويختبر كثيراً حتى انه يرى من العبث اختيار السبيل او تقرير المصير . انني اعتبر السبعين سنة اقصى مدى لحياة الانسان . هذه السنون السبعون – اذا استثنينا الاشهر النسيئة – تحتوي على ٢٥٢٠٠ يوم واذا أضفت شهراً نسيئاً كل سنتين كي تستقيم الفصول فتقع في ازمانها الطبيعية ، فيحصل لديك، بالاضافة الى السبعين سنة، خمسة وثلاثون شهراً ، اي بزيادة ١٥٠٠ يوم . اي يكون عدد الايام في السبعين عاماً ٢٦٢٥٠ يوماً ليس فيها يوم يشبه سابقه ، بل يختلف عنه في ما يحدث فيه من امــــور ، وما يجلبه من حوادث . اذن لك ان تقول ان الانسان وليد الصدف بكل ما في الكلمة من معنى . اما فيما يتعلق بك شخصياً ايها الملــــك كريسوس ، فاني ادرك جيداً انك على غنى عظيم وانك سيد على شعوب وأمم عديدة . اما فيما يتعلق بسؤالك عن السعادة ، واذا كنت سعيداً ، فاني اجد نفسي غير قادر على اعطائك جواباً الى ان اسمع عن خاتمة حياتك وانك انهيتها سعيداً . لست اشك في ان المرء الذي يفوز بثروة عظيمة ليس أقرب الى السعادة من المرء الذي ليس عنده سوى الكفاف من العيش ، الا اذا كان الحظ حليفه ، فانه يظل يتمتع بلذائذ العيش الى ان يحين اجله . اذ ان كثيرين من اعظم أثرياء الناس لم يكن الحظ

دوماً حليفهم ، بينما نجد ان الحظ كان حليف عدد كبير ممن لم يكونوا على شيء من الغنى . ان الناس الذين ينتمون الى الطبقة الاولى – طبقة الاثرياء – لا يتميزون عن اهل الطبقة الثانية – طبقة اهل الكفاف في العيش – الا بشيئين ، بينما نجد ان اهل الطبقة الثانية يتميزون عن الاثرياء بأمور عـــديدة . فالثري يستطيع اشباع رغباته افضل مما يستطيعه متوسط الغنى ، وكذلك يستطيع ان يظل واقفاً على رجليه اذا ما هبت عليه رياح المصائب والرزايا . اما اهل الطبقة الثانية فانهم لا يستطيعون ان يتحملوا مواجهة مثل هذه الرياح التي يحميهم من شرها حسن الحظ . ولكن الواحد منهم يتمتع بالبركات التالية : سلامة الجسد من عيب او عاهة ، وصحة جيدة فلا يعرف المرض ، ولا تحل به نازلة ، وتراه سعيداً بأبنائه ، واذا نظرت في وجهه وملامحه تجد ان وسامته وجماله ليسا مما يصعقان احداً من الناس . ولكن اذا كانت خاتمة حياة هذا الرجل سعيدة هانئة فانه الرجل الذي تسألني عنه ، اي انه حقاً الرجل السعيد . ولكن الى ان يموت ، لك ان تدعوه انساناً غير سعيد بل انساناً حالفه الحظ السعيد . ومن النادر حقاً ان نعثر على امرىء حاز على جميع هـــذه البركات في وقت واحد . اذ ليس هنالك بلد تتوافر فيه جميع هذه النعم التي يحتاج اليها . فقد تتوافر فيه اشياء ويفتقر الى اشياء اخرى ، واسعد بلدان العالم هي التي يتوافر فيها معظم هذه البركات والخيرات . وعليه ترى ان ليس هنالك انسان واحد يبلغ درجـــة الكمال من جميع النواحي ، اذ انه يظل

مفتقراً الى شيء ما . اما اذا استطاع المرء ان يتمتع بأعظم قسط من هذه النعم وتمكن من الابقاء عليها الى خاتمة حياته فيموت ميتة سعيدة فإني ، يا سيدي ، اعتبر مثل هذا الانسان مستحقاً ان يدعى سعيداً . ولكن في جميع الاحوال علينا ان نعتبر الخاتمة ، خاتمة الحياة ، لانه يحدث كثيراً ان الله ينعم على المرء بشعاع من السعادة ، ولكن لا يلبث ان يقذف به الى ظـــلام الشقاء .

هكذا خاطب صولون الملك كريسوس ، فكان خطاباً لم ينل عليه صولون عطاءً ومالاً ، ولم يجلب له ثناءً وفخراً . فكان وداع الملك له وداعاً فيه كثير من الفتور ، لانه ظن ان رجلاً كصولون لا يأبه للحياة الحاضرة بل يشدد في اهمية خاتمة الحياة يجب ان يكون رجلاً معتوهاً .

وصوفوكليس في روايته « اوديبس » يصر ايضاً عـــلى انه ينبغي لنا ان نهتم في الدرجة الاولى بالنهاية ، بالخاتمة ، فيقول :

« اعتبر دوماً اليوم الاخير ، ولا تحسبن امرءاً سعيداً الى ان يجتاز الفاصل الاخير من حياته بدون ان يعاني الألم والشقاء » .

والحقيقة هي ان نوعية الحياة التي يحياها المرء ، والامور التي كان يعنى بها في حياته هما المقياس الصحيح للحياة السعيدة . وهـــا هو المؤرخ هيرودوتس يصف لنا بوضوح بساطة الحياة

الاغريقية وواقعيتها ، ويمجد الفضائل البسيطة ، ويخبرنا عن الشجاعة وما يناله صاحبها من تقدير واحترام ، وعن العلاقات بين الافراد ، العلاقات التي لا تعتريها خشونة او فظاظة ، وعن احترام الناس العظيم للآلهة . وفي كلامه عن هذه الامور كان هيرودوتس يرغب في ان يقول لنا ان الشرق والغرب في نظرتيهما الى هذه الامور يختلفان كل الاختلاف ، وان الغرب كان يشدد على اهمية النواحي المعنوية في الحياة والمبادىء البسيطة غير الملموسة .

وعندما فقدت هذه المثل العليا اهميتها وخبا لمعانها، وعندما أحل الناس محلها مثلاً اخرى تختلف عنها برزت طبيعة الانسان الثانية ، وبدا الوجه الكالح منها . اذ لا يخامرنا أدنى شك في ان الاثينيين كانوا ، في ازمنة معينة من تاريخهم ، من اشد الناس قسوة ومن افظعهم طغياناً وظلماً . ويبدو ان الانسان كائن شديد التعقيد كثير التناقض في طبيعته ، ولا يمكن لنا ان نفهم اهل اثينا فهماً صحيحاً إذا لم نذكر دوماً ان لحياة الانسان وجهين : وجهاً مشرقاً ووجهاً آخر تغشاه العتمة .

٢ قوة الديمقراطية

عند مستهل القرن الخامس المجيد قبل الميلاد نشأت أزمة دولية عنيفة . فبعد ان اخضعت الامبراطورية الفارسية – تلك الامبراطورية الشرقية التي كانت تتميز بحبها للغزو والسطو – جموع الاغريقيين الذين كانوا قـــد استقروا في آسيا الصغرى ، اخذت تتقدم غرباً لاخضاع بلاد اليونان ذاتها . وكانت اثينا ، من بين جميع « المدن – الدول » الاغريقية الهامة ، الدولة الوحيدة التي قاومت الفرس في معركة مارثون (٤٩٠ ق.م.) ، فكان اهل اثينا اول من تصدى للفرس ووقف في وجههم وقفة المنتصر . ولكن يجب ان نذكر ايضاً انه بعد مضي عشر سنوات وقف ملك سبارطة ، ليونيداس ، في وجههم متحدياً وذلك في معركة ثرمبولي حيث قتل مـــع جميع من حارب معه من الفرسان . غير ان الفضل في انتصار الاغريق يعـــود الى ستراتيجية ثمستكليس (Themistocles) الذي رأى بثاقب بصره انه لا يمكن للفرس ان يحتفظوا بمركزهم في بلاد الاغريق بدون اسطول يجهزهم بالمعدات ، ويمدهم بالمؤن . ولذا راح يلح في الطلب ان تبني اثينا اسطولاً ، وهكذا كان ، واستطاع هذا

الاسطول ان يقضي قضاء مبرماً على اسطول الفرس في خليج سلامس الذي لا يبعد كثيراً عن اثينا .

ان المرء يستطيع ان يتصور مبلغ حماسة الاثينيين وابتهاجهم. فانهم انقذوا الحضارة الاغريقية ، وكما نعلم نحن اليوم ، انقذوا الحضارة الاوروبية من السيطرة الشرقية. ولم يطل الوقت حتى راح الاثينيون يدعون سائر المدن – الدول للانضمام في حلف دفاعي ، او شبه اتحاد يقيهم شر غزوة فارسية ثانية يمكن ان تقع في المستقبل .

كانت « المدن – الدول » التي استجابت الى نداء اثينا جلها في آسيا الصغرى ، لانها كانت قد تحررت حديثاً من نير الفرس . كذلك انضمت اليها جزر في بحر ايجه ، ذلك لتخوفها من شر اسطول فارسي يقضي عليها الواحدة تـــلو الاخرى . وكانت كل دولة تسهم بنصيبها – سواء اكان ذلك بالسفن ام بالمال – في سبيل الدفاع المشترك . وعلى مر الايام اصبحت اثينا الزعيمة الحقيقية . فكانت تستخدم الفائض من المال في السبل التي كانت تراها مناسبة لمصالحها . كذلك اصبح الاسطول ملكاً خاصاً بها .

كانت اثينا تريد ان تحارب في سبيل الحرية ، وقد حاربت فعلاً، وحاربت بنجاح. ثم سنحت لها فرصة تأسيس امبراطورية،

وهذه الامبراطورية ، التي بدأت بشبه اتحاد ، اخذت رقعتها بالاتساع حتى شملت جزر بحر ايجه . وكانت جميعها تعتمد على الاسطول الاثيني ، وكان الاسطول يقوم على سواعد الجذفين الذين كانوا من افقر الطبقات الاجتماعية في الدولة . وعلى مر السنين ، اخذت افقر الطبقات الاجتماعية في اثينا نتيجة لذلك تسيطر شيئاً فشيئاً على الحكم ، كما انها بدأت تنتفع شيئاً فشيئاً من الخدمات التي كانت توفرها الدولة لمواطنيها . واهم من هذا فقد كانت تسهم في تطوير الحضارة الاثينية . ويعود الفضل الاكبر في تأسيس الامبراطورية الاثينية ، وفي جعل جماهير الناس تشعر بأهمية التخطيط للمستقبل ، الى نبيل ، كصولون ، من نبلاء المدينة اسمه بركليس ابن زنثبوس الذي كان ينتمي الى عشيرة من اشهر العشائر ، عشيرة الكميونيد . ففي عهده راحت الديمقراطية والتوسع الاستعماري يتمشيان معاً يداً بيد .

وكما ان اثينا استطاعت ان تتبوأ مركز الزعامة في الفترة التكوينية الناشطة للحضارة الاغريقية ، استطاعت كذلك ان تؤسس امبراطورية . ذلك لانها كانت ، في فترات من تاريخها ، وبطرق شتى ، تقدم وتجازف ، تارة تحاول التوفيق بين « مدينة — دولة » واخرى ، واحياناً تحاول الدمج ؛ تارة تمنح الجنسية للصناع الاجانب المهاجرين اليها قصد تحسين الازدهـــار الاقتصادي ، وطوراً تحارب بعناد للحفاظ على الحرية . وقد عبر عن هذه الحيوية الاثينية المؤرخ ثوسيديدس عندما قال ان

اهل اثينا » جعلوا من كل بحر ، ومن كل صقع ، سبيلاً ممهداً لمغامراتهم » . وكان الاثينيون ، بالرغم من انهم لم يتورعوا عن احتكار المنافع والمغانم لأنفسهم ، يرفضون اقتسامها مع حلفائهم في الامبراطورية بعناد شديد . والقول بان الاستقلال الذاتي عميق الجذور في بلاد الاغريق قول يكثر تكراره . حتى ان الحلفاء ، مثلاً ، كانوا يرفضون الجنسية الأثينية اذا اعطيت لهم ، ولكن في هذا القول بعض الزعم الذي لا نستطيع التأكد من صحته .

إلا ان الامر الذي نعرفه على وجه التأكيد هو ان الطبقات التي اصبحت الآن تشعر بقوتها وبالدور الذي تلعبه في الاسطول البحري ، اخذت تطالب ان ينوب زعماؤها عنها في امور الحكم والادارة . ولكن لهذه البادرة وجهين ، لاننا اذا ركزنا ابصارنا على الازمة الدولية تمثلت امامنا ، وبوضوح كلي ، روح التضحية التي كانت تتحلى بها الطبقات الاجتماعية العامة . لقد جابهت بلاد اليونان في تاريخها القديم ثلاث ازمات دولية : ازمة الغزوة الفارسية ، وازمة مقدونيا (وكان يمثلها فيليب المقدوني والاسكندر) والأزمة الثالثة الاخيرة القاصمة كانت روما وامبراطوريتها . وليس هنالك من شك في ان الطبقات العامة ابدت في الأزمة الاولى (الحروب الفارسية) حماسة وطنية بالغة في محاربتها العدو ، ودفاعها عن الوطن ، بينما كانت الطبقات الغنية تؤثر السيطرة الاجنبية اذا كانت مثل هذه السيطرة ضرورية لمنع قيام ثورات اجتماعية .

يقول لنا المؤرخ ثوسيديدس ، وقوله هذا يصدر عن رأي سديد ، ان استعباد المعارضة في الدولة افكارَ الناس وارادتهم « أشدّ فظاعة من سيطرة الاجنبي وحكمه » . ولا شك في ان هذا القول يفسر لنا قيام جميع الحروب الاهلية التي تتميز بالضراوة والقسوة الشديدتين . لقد كانت القضية السياسية الوحيدة الدائمة ، والتي كانت تلازم جميع فترات تاريخ اليونان القديم ، هي قضية الصراع بين الاقلية والاكثرية . وما اكثر ما كانت تتعالى أصوات الاكثرية الفقيرة في كل مدينة من « المدن — الدول » مطالبة بإلغاء الديون وباعادة توزيع الملكية .

لذلك كانت الطبقات الغنية تتجه بأبصارها نحو الاجنبي علها تستطيع الحفاظ على الوضع الراهن او تبديله لمصالحها الخاصة . وكان مثل هذا الامر نادر الوقوع ، ولكن في اثناء هذه الازمات كانت الطبقات الغنية تسعى للحفاظ على مراكزها ، او كانت تسعى لقلب النظام الديمقراطي عن طريق الاغتيالات ، او تأسيس النوادي السياسية ، او توزيع المناشير والنداءات . ومن الطبيعي ألا يكون كل غني عدواً من اعداء الديمقراطية الاثينية ، ولكن حيث كانت تقوم معارضة منظمة للدستور ، فانها كانت تقوم في اوساط الاغنياء .

لقد تحدرت الينا من العصور التاريخية القديمة وثيقة فريدة من نوعها تعرف « بدستور الاثينيين » وتعكس لنا الاخطار الناجمة

عن طبقة الاغنياء والمفكرين . ويعود زمن كتابتها الى ما بعد نشوب الحرب بين اثينا وسبارطة بزمن قصير ، تلك الحرب التي عرفت بالحروب البيلوبونيسية . وكان كاتبها يعرف « بالتاجر العتيق » . وبالرغم من ان كاتب الوثيقة ، « التاجر العتيق » ، كان يقرن أقرانه من ذوي التفكير ذاته بجماعة المواطنين الصالحين ، وجماعة الديمقراطيين بالجماعة الطالحة ، فانه افلح فعلاً في اعطائنا صورة واضحة عن قوة الديمقراطية الاثينية . يقول :

« اما فيما يتعلق بالدستور الاثيني ، وبنوع الدستور الذي اصطفوه لانفسهم ، فاني لا احترمه ولا اقرظه ، لان اختيارهم هذا النوع من الدستور من شأنه ان يضمن مصالح الطبقات الدنيا عوضاً عن ان يعنى بالطبقات العليا . واكرر القول اني الى هنا استنكف عن اطراء هذا الدستور . ولكن لنفترض جدلاً ان هذا الدستور هو ذاته الدستور الذي اتفقوا عليه ، فاني اجد نفسي مرغماً على القول بأن الاثينيين أحسنوا في المحافظة عليه ، وان تلك الاجراءات التي قاموا بها ، والتي لها صلة وثيقة بالدستور ، تلك الاجراءات التي نظر اليها سائر العالم الهليني على انها اخطاء فادحة ، هي على النقيض من هذا .

اريد اولاً ان أؤكد انه من العدل ان تكون الطبقات الفقيرة ، وعامة الناس من أهل اثينا ، احسن حالاً من اهل الثروة والنسب الكريم . ذلك لان الذين يعملون في الاسطول هم

من هذه الطبقات ، وهم الذين عملوا على خلق هـــذه القوة العسكرية . ان الرجل على دفة السفينة ، والنوتي البسيط ، والضابـــط الرفيع، والمراقب عند مقدم السفينة ، والعامل ، هؤلاء هم مصدر قوة المدينة ، وقوتهم تفضل قوة الجنود المشاة وأهل الحسب والنسب . فبناء على هذا الواقع اجد انه من العدل ان تكون وظائف الدولة في متناول كل فرد بالاقـــتراع والتصويت ، وان حرية القول يجب ان تكون من حق كل مواطن يريد ان يعبر عن رأيه بدون قيد . لانه ، كما تلاحظون ، هنالك وظائف عديدة يتوقف أمن الناس وسلامتهم ومدى تعرضهم للاخطار، على من يشغلها . ولذا لا تشترك عامة الناس في هذه الوظائف ، وحسناً تفعـــل . فان العامة من الناس لا تفكر في ان تقوم بوظيفة القائد او وظيفة آمر الخيالة . لانها تدرك انها اذا تخلت عن شغل مثل هذه الوظائف ، وتركتها الى غيرها من المواطنين الاشداء الاقوياء ، فانها تضمن لنفسها تعادلاً في المنافع والمصالح . غير ان عامة الناس ترغب في ان تحتفظ بتلك الوظائف التي من شأنها ان ترعى مصـــالح الافراد في ملكياتهم الخاصة والتي من شأنها ان تدر عليهم الخير .

واحب ثانياً ان اشير الى امر تحار عقول الناس في تعليله وتفسيره — اعني الاهتمام المتزايد في كل مكان بالطبقات الدنيا والاعتناء بالطبقات الفقيرة وجماهير الناس من العامة ، الذي يفوق اهتمام الناس بالطبقات المثقفة — واني لا ارى فيه شيئاً

يدعو الى الدهشة والحيرة لانه من الواضح ان هذه الناحية هي حجر الزاوية في الحفاظ على الديمقراطية . فان هذه الطبقات الفقيرة ، وهذه الجماهير من العامة ، وهذه العناصر المنحطة في المجتمع، عندما تتحسن حالتها الاقتصادية — الى جانب تكاثرها عدداً — تدعم الديمقراطية وتقويها . بينما اذا تكدست الثروة في طبقة الاثرياء والطبقات المثقفة أدى ذلك ، بالنسبة الى العامة من الناس ، الى قيام قوة عظيمة تقف في وجه الطبقات الدنيا . والواقع هو ان صفوة المجتمع في كل قطر من اقطار العالم هي التي تشكل المعارضة في وجه الديمقراطية . ولكن من الطبيعي ان نجد في صفوف الطبقات العليا المثقفة طبقة تتميز عن الطبقات الدنيا بضبط النفس، وبترفعها عن الظلم والحاق الاذى، وباندفاعها الشديد لتنشئة الفضائل والاخلاق . بينما نجد الطبقات الدنيا ، طبقات العامة ، تتميز باكبر قسط من الجهل والفوضى والخبث والتحايل — ذاك لان الفقر مدعاة لكل تصرف مشين . اضف الى هذا انعدام التربية وشيوع الجهل . وجميع هذه مردها الى انخفاض المستوى الاقتصادي الذي يعانيه متوسط الطبقات البشرية .

وقد يعترض احد الناس بقوله انه من الخطل منح جميع الافراد حرية القول وافساح المجـــال لهم ان يصبحو اعضاء في مجالس الحكم ، وانه كان يجب ان تبقى هذه الامور وقفاً على الاذكياء وعلى صفوة المجتمع . ولكني اقول ثانية ان انصار

الديمقراطية يتصرفون بحكمة وتعقل عندما يمنحون حتى ادنى طبقات الناس حرية القول والكلام . لنفترض جدلاً ان حرية القول لا تمنح الا للطبقات العليا وحدها وان أفرادها لهم وحدهم حق الجلوس في مجالس الحكم ، فان جميع النعم والبركات التي يوفرها الحكم تصيب الجماعة من الناس امثالهم (الجماعات العليا) بينما يغمط حق أفراد الطبقات الدنيا فلا ينالهم خير ولا تصيبهم نعمة . بينما في النظام الديمقراطي كل من يشاء من الناس ، وكل صعلوك يستطيع ان يكتشف ان هنالك اموراً تهمه ، يجب عليه ان يدافع عنها في مجالس التشريع ، لانها تؤول الى صالحه والى صالح امثاله من الفقراء . وقد يعترض احد الناس قائلاً : وهل يستطيع صعلوك كهذا ان يكتشف ما هو خير له ولغيره من الناس فيدافع عنه ؟ وجواب انصار الديمقراطية على مثل هذا الاعتراض هو ان جهل هذا المرء وحطته ، وحسن نيته هي في نظرهم ، اعظم اهمية من فضائل اهل الطبقات العليا وحكمتهم ، اذا كانت هذه الفضائل وهذه الحكمة تصدر عن روح العداء والكراهية . وخلاصة القول ان الدولة التي تقوم على مثل هذه المؤسسات الاجتماعية ليست الدولة المثالية . ولكن اذا لم يكن للديمقراطية من بديل فان اتساع هذه المبادىء هي الاداة الفعالة للحفاظ عليها . اذ يجب ان نذكر ان الناس لا يهمهم كثيراً ان تكون حكومة المدينة حكومة صالحة بينما هم في حالة الاستعباد. لان مطلبهم الاول ان يكونوا احراراً واسياداً . كذلك فيما يتعلق بمفاسد الشرائع والتشريع فان عامة الناس لا يبالون ولا

يظهرون اهتماماً. والواقع ان ما نظنه نحن تشريعاً فاسداً قد يكون مصدر قوة ومصدر تحرر عند جماهير العامة . واذا كنت تنشد تشريعاً صالحاً فانك اولاً تعهد امر هذا التشريع الى اكثر الناس ذكاء ودهاء، فيعمدون الى سن القوانين التي تأتي مؤاتية لمصالح البقية منهم . ثم انك تجد ان الطبقات العليا تعمل على حرمان الطبقات الدنيا والاقتصاص منها – هذه الطبقات العليا هي التي تفكر وتخطط نيابة عن الدولة ولا تسمح لاهل الذكاء المفرط ان يصلوا الى مجالس الحكم او ان يعبروا عن افكارهم بحرية او ان يدلوا باصواتهم عند التصويت في المجالس . هذا لا شك فيه . ولكن جماهير الناس ، وقد اسكرتها هذه النعم والبركات تجد نفسها بعد مدة قصيرة مكبلة بقيود من الاستعباد .

ومن الامور التي تسترعي الانتباه الحريات والامتيازات التي كانت اثينا تغدقها على العبيد والمواطنين حيث الصفعة او اللكمة جريمة يطالها القانون ، وحيث العبد لا ينزل عن الرصيف الذي انت ماش عليه ليفسح لك طريقاً . وها اني اعلل هذه العادة الغريبة في بابها . لنفترض انه يجوز للمواطن الحر ان يضرب عبداً ، او انه يجوز للمواطن العادي ان يضرب المواطن الغريب المقيم في المدينة او العبد المعتق ، فقد يحدث كثيراً ان مواطناً اثينياً قد يُضْرَبُ خطأً على انه عبد او غريب مقيم ، لان الرجل من عامة الناس في اثينا لا يلبس لباساً افضل من لباس العبد او الغريب ، لباساً يميزه عن غيره من الناس . كذلك لا

يفضل الاثيني غيره في منظره وملامحه . كذلك اذا ابدى المرء دهشة واستغراباً من ان العبيد في اثينا يسمح لهم ان يتمتعوا باطايب العيش – والواقع ان كثيرين منهم يحيون حياة ترف واستمتاع – فاننا نستطيع ان ندلل ان هذه الظاهرة مقصودة بالذات . فانه اذا كانت الاساطيل لا تقوم الا على الثروة فنحن مرغمون ان نكون عبيداً للعبيد الذين يقومون باعمال هذا الاسطول كي نستطيع ان نجمع رواتب، وان نعتق العبيد الحقيقيين . وحيث يكون العبيد اغنياء موسرين فاني لا ارى خيراً في ان يقف عبدي امامي وقفة الذليل الصاغر .

ان العامة من الناس تعترض على تكريس المواطنين اوقاتهم للتربية البدنية والتفرغ لتعلم الموسيقى . وذلك لأن هؤلاء لا يؤمنون بقيمة هذه الاعمال الجماعية . وفي الوقت ذاته يقرون ان هذه امور ليس في طاقتهم الحصول عليها او التفرغ لها . والمبدأ هذا ينطبق على أهل الغناء والالعاب الرياضية وادارة الاساطيل، فانه من المعروف لدى الجميع ان الرجل الذي يدرب المغنين والجوقات هو الرجل الغني ، وان الجمهور هو الذي يتمتع بسماع الجوقة . كذلك من المعروف ان قبطان السفينة في الاسطول البحري والمدرب الرياضي هما من الرجال الاغنياء وان بقية الشعب هم الذين يجنون ثمار اتعابها . والواقع هو ان عامة الشعب تعتبر ان من حقوقها ان تجني الثمرة لا ان تشقى في رعايتها . فالغناء والرقص والخدمة في الاسطول امور مستحبة

شريطة ان تعود بالنفع على عامة الشعب بينما يكون تدبير هذه الامور من عوامل افقار الاغنياء. كذلك الامر في محاكم القضاء. فان العدالة هنا ليست امراً يعنى به المحلفون بقدر ما هي شيء يعود عليهم بالنفع الشخصي .

ولنذكر شيئاً الآن عن احلافنا ، لا سيما بالنسبة للمبعوثين السياسيين الذين يرسلون اليهم من اثينا ، والذين يندفعون مع الرأي العام فيسترسلون في ثلب الطبقات العليا واذكاء نار الحقد عليها ، وليس هـــذا بمستغرب فان المحكوم يشعر بشيء من الكراهية نحو الحاكم . غير ان امبراطورية الشعب الاثيني لن تعمر طويلاً اذا لم تفرض الثروة والهيبة احترامها في الدول الخاضعة لها . وهذا ما يفسر لنا هذه الظاهرة الغريبة من ان الطبقات الفضلى تعاقب معاقبة مذلة وهوان ، وتنهب اموالها وتطرد من بيوتها ويحكم عليها بالاعدام بينما تعطى الطبقات الدنيا ارفع مراتب الشرف والاكرام . وفي الوقت ذاته نجـــد ان الطبقات الفضلى من الاثينيين يحرص أفرادها على الحفاظ على الطبقات الفضلى في الدول الحليفة . ولماذا ؟ ذلك لانهم يدركون ان من صالح هذه الطبقات الفضلى ان تحافظ دائماً على افضل عناصر الطبقات الاجتماعية في المدن الخاضعة لها . واذا اخذنا قوة اثينا ومنعتها بعين الاعتبار نجد ان هذه القوة وهذه المنعة تتوقفان على قدرة احلافها في دفع نصيبهم من المال الضروري لهذه القوة . غير ان اصحاب الذهنية الديمقراطية يرون انه أفضل

للأثيني ان يستولي على ثروة الاحلاف تاركاً لهم الكفاف من العيش ومن وسائل حراثة ارضهم كي يظلوا ضعفاء فلا يستطيعون ان يحوكوا الدسائس ولا ان يفكروا في مطامح خطرة .

اما فيما يتعلق بالثروة فان اثينا ، بالنسبة الى سائر انحـــاء العالم الهليني ، وبالنسبة الى سائر الاقطار الاجنبية، تحتل مركزاً يجعلها تتسلط على مصادر الثروة وتتحكم بها . فلنفترض ان هذه الدولة او تلك غنية بالاخشاب الضرورية لبناء السفن فأنـّى لها ان تجد سوقاً لاخشابها اذا لم تلتمس عطف سيدة البحار ؟ او لنفترض ان ثروة دولة ما تعتمد الحديد او البرونز او خيط الكتان مصدراً اقتصادياً لها ، فأنـّى لها ان تجد لهذه السلع اسواقاً الا اذا سمحت لها الدولة البحرية العظمى بأن تبيعها الى غيرها من الدول ؟ ولنلاحظ ان هذه السلع ذاتها هي التي نحتاج اليها لبناء اساطيلنا . علينا ان نحصل على الخشب من دولة ما ، وعلى الحديد من اخرى ، وعلى البرونز من دولة ثالثة ، وعلى خيط الكتان من دولة رابعة وعلى الشمع من دولة خامسة . فلن تسمح لخصومها ان يصدروا هذه السلع الى اسواق اخرى والا فقدت سيطرتها على البحار . وهكذا نجد اننا بدون عناء نجني من الارض جميع هـــذه البركات وذلك بفضل سيطرتنا على البحار مع العلم ان ليس هنالك دولة واحدة تتوافر لديها القوة البحرية مع مصادر الثروة الضرورية لتلك القوة .

هنالك شيء واحد غير متوافر لدى الاثينيين . لنفترض

انهم كانوا يقطنون جزيرة ، وانهم كانوا يحتفظـــون بالسيادة البحرية كما يحتفظون بها الآن ، فلا شك في انه كان باستطاعتهم ان يلحقوا الاذى بأي كان ، وان يأمنوا شر أيّ كان (هذا اذا احتفظوا بالسيادة البحرية) فلا تتعرض بلادهم للسلب والخراب ، ولا يتعرضون لغزو عدو خـــارجي . اما الآن فان جماعة المزارعين في المجتمع وجماعة الاغنياء من مالكي الارض ترتجف خوفاً من غزوة عدو خارجي ، بينما نجد ان جماهير الشعب تعلم علم اليقين انه مهما حدث فلن يصيبهم اذى لا في ماشيتهم ولا في أملاكهم ، ولا تقطع لهم شجرة ، ولا يحرق لهم بيت ، فتراهم يعيشون عيشة لا يشوبها خوف او خشية ، ولا يستولي عليهم ذعر من عدو مفاجىء . وفي ما خلا ذلك فان هنالك خوفاً آخر ، خوفاً لم يكن ليستولي عليهم في وطنهم الجزيرة ، نعني الخوف من ان تغــدر جماعة التجار بهم فتفتح ابواب المدينة مشرعة امام عدو مفاجىء . كيف يمكن وقوع مثل هذه الامور لو ان وطنهم جزيرة ؟ وفضلاً عن هذا لو انهم كانوا يتوطّنون جزيرة لما نشأت ثورات وحركات معادية ضد جماعات الشعب . اما الآن في حالات الانقسام الحزبي فان الذين يثيرون الخلافات الحزبية يأملون بنجاح قضيتهم عن طريق دعوة العدو ليدخل البلاد . غير ان الشعب الذي يقطن جزيرة يتحرر من هــذه الاخطار والمخاوف . ولكن بما ان وطنهم لم يكن جزيرة منذ بداية امرهم فان ما يفعلونه هو هذا : انهم يلقون بثرواتهم وممتلكاتهم في الجزيرة معتمدين على حماية الاسطول وسيادتهم

البحرية ويتركون ارض اتيكا يعيث فيها العدو فساداً وتخريباً بدون ان تحركهم شفقة او مؤاساة . ويدركون انه اذا كانوا ليواسوهم او ليبذلوا لهم عوناً فان معنى هذا انهم سيحرمون انفسهم من النعم والبركات العزيزة على انفسهم والتي هي اثمن من تضحيات كهذه .

وفضلاً عن هـــذا فان الدولة التي تحكمها جماعة التجار والاثرياء تجد نفسها مرغمة على تصديق المعاهدات مع حلفائها ، واذا عجزوا عن تصديقها ونقضوا نصوصها فان مثل هذا النقض — ولا اعتبار لمن هو مسؤول عن النقض — تقع مسؤوليته بكاملها على كواهل التجار الذين عقدوا هذه المعاهدات . ولكن اذا كان الحكم الديمقراطي هو الذي عقد هذه المعاهدات فان الشعب هو المسؤول عن محاكمة من حبذوا المعاهدة وعضدوها ، ان للشعب ان يطلب اعادة التصويت قائلاً للناس : « نحن لم نكن في المجلس او الحكم عندما عقدت هذه المعاهدة او تلك ، ونحن لا نوافق على بنود المعاهدة » . وهكذا يجري التحقيق في اجتماع عام يحضره جميع الشعب . واذا ابدى الناس معارضتهم على مثل هذا الاجراء فانهم يكتشفون اعذاراً اخرى عديدة يتذرعون بها لتجنب اي اجراء ليس في صالحهم . واذا نتج ضرر ما عن اي قرار يتخذه الشعب في المجلس فان الشعب لا يعدم وسيلة لرفع المسؤولية عن كواهلهم ، كأن يقولوا : « ان جماعة قليلة من التجار تعمل ضد مصالح الشعب وانها قد جرّت علينا

الخراب ! » ولكن اذا نجم عن هذا خير ونفع فان الشعب لا يتوانى عن عزو الفضل لهم .

اني اكرر القول ان موقفي بالنسبة الى الدستور الاثيني هو هذا : ان نوع هذا الدستور لا يتلاءم مع ذوقي ، ولكن اذا اتفق الناس على نوع من الحكم الديمقراطي فانه يبدو لي ان تصريفهم الامور يجري على السبيل السواء للحفاظ على الديمقراطية بتبنيهم نوعَ الحكم الذي وصفته آنفاً » .

كانت القوة الحقيقية في ديمقراطية اثينا تكمن في ثقـــة المواطنين ، اذ لم يكن في اثينا مواطنون من الدرجة الثانية اذا صح لنا ان نستعمل مثل هذا التعبير. ولكن قولنا هذا لا ينطبق كلياً على جماعة الغرباء الذين بفضل الاصلاح الذي قام به صولون استطاعوا ان يتوطنوا اثينا وان يحصلوا على الجنسية الاثينية ، اقول ان قولي هـــذا لا ينطبق عليها لان افرادها لم يكونوا ليتساووا اجتماعياً وسياسياً مع المواطنين الاصليين من ذوي النسب « النقي » الصافي . ولهذا فان المصلح كليستنيز في نهاية القرن السادس ق. م. عندما كان يتابع حملته لاصلاح الدستور الاثيني، ذلك الدستور الذي بلغ ذروة الكمال في عهد بركليس، كان يدرك حالة المواطنين « الجدد » السيئة . فانه الغى ما كان للقبائل الايونية الاربع من امتيازات (الا انه ابقى لها بعض الامتيازات المتعلقة بالطقوس الدينية) واحل محلها عشر قبائل جديـــدة . ولذا اصبح الانتساب الى قبيلة ما ، وكذلك حق

الاقتراع ، لا يتوقف على المولد او النسب او الدين بـــل اصبح الانتساب الى القبيلة يتوقف على السكن : هل يقيم هذا الرجل في هذه الدائرة الانتخابية ام في تلك .

هـــذا المواطن « الجديد » كان في اغلب الاحيان رجلاً من اصحاب الصنائع يقضي وقته في الحوانيت او متجولاً في شوارع المدينة سعياً وراء معيشته ، ولكنه اصبح الآن يشعر انه مساوٍ للفلاح تمام المساواة ، للفـــلاح مالك الارض الذي كان على مر العصور التاريخية يشعر بشيء من التفوق الذي لا يرتكز على حق . لقـــد كان المصلح كليستنيز هو الرجل الذي اعد اثينا لتبدأ عصرها الذهبي ، في القرن الخامس ، عندما كان يلوح خطر الغزو الفارسي في الافق ، وعندما كان الناس يهتمون اولاً بمصالحهم ومنافعهم الخاصة . ولربما كان اشدّ الروادع عدم دفع المرتبات او التعويضات على حضور الاجتماعات والمحاكمات التي تجري على يدي المحلفين . وبما ان المجلس كان ينعقد في اثينا فانه كان ايسر على الصناع ان يحضروا الجلسات مما كان على الفلاحين .

وفضلاً عن هذا فقد كان الاثينيون يميلون الى انتخاب زعمائهم وقادتهم من بين افراد العائلات النبيلة التي كانت فيما مضى تصرف شؤون الدولة بنجاح . واظن ان سكان اثينا سيحتفظون بهذا التقليد في المستقبل . غير ان روما الجمهورية كانت اشد محافظة على هذا التقليد .

والواقع انهم في نصف القرن الذي عقب انتصارهم على هنيبعل القرطجني ، انتخبوا غالبية القناصل من بين افراد العائلات التي كانت تتسنم هذه الوظائف العالية . وليس من العسير ان نفهم السبب . ذلك ان اعضاء المجلس في روما كانوا يصوتون على امر في المجلس مباشرة وبدون فتح باب المناقشة ، بينا كان الامر في اثينا على نقيض هذا ، اذ كانت المناقشة عرفاً متبعاً . وهكذا يستطيع الرجل الذي تربطه رابطة بعائلة ما ان يقف في المجلس ويدافع عن سياسة ما او قضية فترتفع مكانته في عيون اقرانه من المواطنين . انه من العسير حقاً ان تضع دستوراً «تاماً كاملاً» فان حرية المناقشة هذه ، بعد ان اضحت قبضة بركليس عديمة الأثر ، ادت الى قيام زعماء غوغائيين ، وقد اصبح في قدرة اي رجل لا يشغل منصباً حكومياً ان يقنع المجلس كي يتبنى سياسة لا يقرها النواب .

لكي ندرك سر القـــوة في المؤسسات السياسية في اثينا – النشاط السياسي والروح الوطنية وثقة الافراد – ادراكاً حسناً ، علينا ان ننظر في عمق الصلة التي كانت تربط المواطنين بحياة المدينة ومدى اشتراكهم في حياتها العامة . فان العمل السياسي واقامة الاعياد والمهرجانات العامة لم يقتصرا على الدولة بل كان للقبائل العشر وللاقضية العديدة نشاطها السياسي واعيادها الخاصة . فكان مجال العمل السياسي والتنشئة السياسية واسعاً جداً لدى كل فرد من افراد المجتمع . فكان من جراء

هذا ان نشأت فضيلة ضبط النفس التي بدورها اسفرت عن فضائل انسانية اخرى كتحسين حالة المرأة في المجتمع ومعاملة اسرى الحرب معاملة انسانية .

كان اسكلوس الشاعر الذي اشتهر بكتابة المأساة يضطرم حماسة لقضية الحرية ، وكان ينادي بان المحبة والرحمة يجب ان تخففا من حدة العدالة. فانه لم يكن ليؤمن بان النبيل الارستقراطي هو صالح بالضرورة وان الفقير الصعلوك طالح بالضرورة ، بل كان على نقيض هذا ، فانه كان يشعر بمؤاساة الضعفاء من الطبقات الدنيا ، بالرغم من الميول والاتجاهات التي كانت تبديها الطبقات الارستقراطية . فقد كان اسكلوس، مع جماعة اخرى من الارستقراطيين ، يتزعمـــون حركة تنمية الفنون وجعل الدستور الاثيني دستوراً ديمقراطياً بالفعل . وقد تجاوبت معهم جماهير العامة تجاوباً مسؤولاً فكانت النتائج التي اسفر عنها هذا التجاوب في حقل الجندية والفنون الجميلة والحياة الفكرية عظيمة جداً . ولم يكن بالامر اليسير تحديد الروح الاثينية، كما لحظ هذا اسكلوس نفسه ، وليس بالامر اليسير سبر غورها الآن ، ولكن اسكلوس كان اقرب الى حقيقة هذا الامر من اي امرىء آخر. ففي روايته الموسومة بـ «الفرس» والتي هي وصف شاهد عيان لموقعة سلامس البحرية ، تسأل ملكة الفرس سؤالاً اعمق ممـــا

تستطيع هي نفسها ان تجد له جواباً : « ما هي هذه المدينة ، اثينا ، التي يتحدث عنها الناس ؟ » فكان الجواب الذي لم تستطع ان تفهم مغزاه : « ان اهلها اناس لا يَحْنُونَ رؤوسهم لاحد من الناس ، وليسوا عبيداً لاحد من الناس ! »

٣ الديمقراطية الملكية

بعد مضي ثلاثين سنة من نهاية الحروب الفارسية – وعلى وجه التدقيق سنة ٤٤٩ ق. م. – بدا واضحاً لكل ذي عيان ان خطر غزوة فارسية اخرى مباشرة قد زال ، وان اليونانيين الآن قد اصبحوا احراراً يقررون مصائرهم بحرية – وعلى هذا الزعم لم يرَ حلفاء اثينا في الحلف الذي قام في وجه الفرس ، مبرراً للاستمرار في دفع المعونات المالية للخزينة المشتركة . وهكذا امتنعوا عن الدفع امتناعاً باتاً . ولكن بركليس الذي كان يتزعم قيادة اثينا منذ اثنتي عشرة سنة قبل هذا التاريخ ، كان يرى غير هذا الرأي ، فراح يقنع المواطنين على انه ينبغي لهم ان يطلبوا تطبيق اتفاقية دفع هذه الضريبة المالية . فكان يقول للشعب انه طالما توفرون لهم الحماية ضد الغزو الفارسي فلكم ان تنفقوا من المال الفائض في السبل التي تشاؤونها ، وفضلاً عن هذا كان يقول لهم ان قد آن لهم ان يقوموا بتعهداتهم التي اخذوها على انفسهم ببناء الهياكل التي دمرها الفرس . وقد عبّر بلوتارخ عن هذا بقوله ان بركليس شرع يزخرف اثينا ويزينها كما تتزيّن امرأة تغتر بجمالها . فراح يعلق الجواهر حول

عنقها ويقيم التماثيل والهياكل في ساحاتها لانه كان يقول للناس : بما انكم توفرون الحماية للحلفاء فليس لكم ان تؤدوا لهم حساباً عن هذه النفقات .

وهكذا استحال الاتحاد الذي كانت الغاية من قيامه الدفاع عن النفس، الى امبراطورية اثينية . ولم يجرؤ احد من الحلفاء ان يتردد او ان يعترض لان رد فعل اثينا في السنوات التي سبقت كان عنيفاً قاسياً ضد اية دولة كانت تحاول ان تنفصل عن الاتحاد .

ليس هنالك من شك في ان الضرائب التي كانت تفرضها اثينا على الولايات وتجبيها وفرت للاثينيين بناء الهياكل الرائعة كهيكل البرثنون ، ومكنتهم من اقامة الاعياد والاحتفالات ، ودفع النفقات على الاشغال العامة والمرافق المختلفة مما ادى الى نوع من الازدهار المصطنع ، لا سيما وان الدوافع كانت مادية محض تبرر ظهور مثل هذه المطامع الاستعمارية . ولكننا اذا تغاضينا عن عدد الهياكل التي شيدت ، وعن السبل اليسيرة التي مكنتهم من اقامتها ، وركزنا اهتمامنا في نوعية العمل وجودته ، اتضح لنا ان الانجازات الروحية والمآتي الفكرية لا تقوم على الثروة وحدها ، ولا تشيد على عظمة الامبراطورية . ومثال ذلك اسكلوس الذي ربما ، كان اشهر روائي اغريقي مات قبل قيام الامبراطورية الاثينية بست سنوات . وفضلاً عن هذا فان

الاثينيين ، قبل قيام الامبراطورية بعشرين سنة ، شيدوا هيكل زفس في اولمبيا ، وهو تحفة رائعة في البناء والنحت يضاهي في جماله جمال هيكل البرثنون من جميع النواحي باستثناء بعض امور تقنية بسيطة .

قد يتفق ان تتكشف قوة الابداع عند شعب ما في الوقت الذي تبلغ فيه قوته الاستعمارية التوسعية ذروتها . ولكن من الواضح ان الابداع ليس وقفاً على التوسع الاستعماري . ولكن التوسع الاستعماري الاثيني كان حقيقة قائمة وكان مقيضاً له ان يستمر زمناً طويلاً . ولا يمكن انكار الخيرات العميمة التي درها عليهم لزمن محدد . ولم يكن في اثينا تباين في الرأي حول الامبراطورية — من حيث بقاؤها او زوالها — لان المحافظين كانوا يدركون ان السياسي الذي يعارض قيامها لا يمكن له ان يستمر طويلاً في الحكم . فان موارد الرزق والثروة التي تدرها الامبراطورية كانت تستهوي الجماعات بصورة ينتفي معها قيام حركة مضادة لها . وانمـــا كان تباين الرأي واختلاف الآراء يرتكز على القضايا الداخلية . فان المحافظين كانوا يقولون ان اثينا لا تستطيع، لا من جهة الرجال ولا من جهة القدرة المالية، ان تقف في وجه الفرس في البحر، وفي وجه سبارطة في البر، في آن واحد ، ولذلك كانوا يصرون على وجوب التقرب والتفاهم مع سبارطة .

كانت ميول المحافظين من اهل اثينا وعواطفهم الى جانب سبارطة ، سبارطة التي كانت جماعة التجار الاغنياء تتحكم

بمقدراتها ؛ وكان لهذا الاتجاه في الشعور ما يبرره . ذلك لان بركليس كان قد انشأ، الى جانب امبراطوريته البحرية العزيزة الجانب ، امبراطورية برية دامت برهـــة قصيرة من الزمن ، ولكنها كانت امبراطورية تبعث الرعب في قلوب اهل سبارطة وحليفتها التجارية كورنثوس وسائر اعضاء الرابطـــة البيلوبونيسية . فكان المحافظون الاثينيون يسائلون انفسهم قائلين : اليس باستطاعة اثينا ان تنشىء امبراطورية اعظم من امبراطورية الرابطة البيلوبونيسية ، لا بل امبراطورية تستطيع ان تقضي على اسواقها الخارجية ؟ الى جهة الشرق كان البحر الايجي بحيرة اثينية عندما استولى بركليس على ميناء بجي (Pegae) الواقع على خليج كورنثوس ، والذي كان الاثينيون يستطيعون بيسر ان يرسلوا بضائعهم براً اليه لكي تشحن الى الغرب . وأدهى من هذا كان استيلاء بركليس على نوبكتس (Naupactus) عند الطرف الغربي للخليج ، والتي تشبه جبل طارق في موقعها الى حد كبير ، مما مكن اثينا من التحكم في مداخل الخليج ، فاصبحت سفن كورنثوس تحت رحمة السفن الاثينية . وعندما قال ثوسيديدس ان اهـــل كورنثوس كانوا يضمرون الكراهية الشديدة لاهل اثينا فانه كان يشير الى هذه الفترة من التاريخ وما تخللها من منافسة تجارية .

اما بركليس فكان يرى غير هذا . كان يعتقد ان اثينا تستطيع ان تقف وحدها ، وان في قدرتها ان تلحق الاذى

بتجارة البيلوبونيسيين ، لا بل انها تستطيع ان تكسر شوكتهم دون اللجوء الى العنف ، واذا اقتضت الحال فان اثينا تحارب الاثنين معاً سبارطة والفرس . كان الحزب الذي ينادي بالحرب حزباً عنيفاً، وليس من الصعب ادراك وجهة النظر التي كان يأخذ بها . اما بركليس ، فلكي يثبت مركزه ، فانه اقترح اولاً ان يُدفع راتب لجماعة المحلفين لقاء خدماتهم ، والمحلفون هم حجر الزاوية في كل ديمقراطية حقة ، وفي اثينا كانوا ينتخبون اكثر من ستة آلاف محلف كل سنة . وبما انه كان يدفع لهم اجر يومياً فان بركليس جعل نظام المحلفين نظاماً ديمقراطياً تاماً . ذلك لانه اصبح في متناول افقر الناس ان ينتظم في سلك المحلفين. والواقع ان المحلف كان عادة من المتقدمين في السن ، فجاء اقتراح بركليس بان تدفع لهم اجور بمثابة نوع من رواتب التقاعد لسن الشيخوخة.

اما الاقتراح الثاني الذي اقترحه بركليس فكان يختلف كل الاختلاف عن سابقه . وهذا الاقتراح ايضاً اقره المجلس . فانه كان يرى ان التجنس بالجنسية الاثينية يزداد في اعين الناس قيمة ومعنى يوماً بعد يوم ، لذا من الخير لنا ان نحدد شروط التجنس وحصرها بفئة صغيرة قدر المستطاع . ولذا اقترح ان حق التصويت يجب ان يكون من حق المرء الذي يثبت مواطنيته من ناحية الاب والام (اي ان يكون ابوه وأمه مواطنين اثينيين). وهـــذا الاجراء اسفر عن شطب خمسة آلاف اسم من قوائم المقترعين . وهذا الاقتراح يتعارض تعارضاً كلياً مع الاصلاح

الذي قام به صولون قبل هذا بقرن ونصف القرن، ذلك الاصلاح الذي كان ينم عن بعد نظر وحكمة، وفضلاً عن هذا فانه كان اقتراحاً من شأنه ان يثير في عقول الباحثين في تاريخ الاغريق سؤالاً اساسياً خطيراً. فقد كان الاثينيون يسائلون انفسهم قائلين: بما ان الازدهار والعظمة جاءا في اعقاب الاصلاح الذي قام به صولون، وبما ان التأخر والخراب جاءا في اعقاب عهد بركليس فهل لنا ان نفهم ان الحرية ورحابة الصدر وبعد النظر ينتج عنها الخير والنفع وان الانانية والانكماش يسفر عنها الشر ؟

بهذه الاساليب التي جئنا على ذكرها استطاع بركليس ان يقضي على معارضة المحافظين لسياسته. وقد تمكن من سحق هذه المعارضة لانه، منذ ان تزعم الحزب الديمقراطي سنة ٤٦١ ق. م. الى يوم مماته في عام ٤٢٩ راح الاثينيون ينتخبونه مرة بعد اخرى لمجلس القواد العشرة، وكان هذا المجلس الهيئة التنفيذية الرئيسية في اثينا. وهكذا اصبحت اثينا في تلك الفترة دولة ينتخب فيها المواطنون حكامهم — بكلام آخر اصبح لدينا ما يشبه الديمقراطية الصحيحة — وقد ألف الناس ان يسلموا بهذا الواقع بما قد ينطوي عليه من صحة او خطأ كي يبقوا بلاد اليونان القديمة نبراساً يضيء نوره ساطعاً. ولكن يجب الا نسيء فهم العبارة الخطيرة التي تفوه بها المؤرخ ثوسيديدس عندما قال انه طالما كان بركليس في الحكم «فان الحكم في اثينا، ولو انه كان نظرياً ديمقراطياً، فالحقيقة هي ان مواطنها الاول كان يحكمها».

فما هو الاساس الذي بنى ثوسيديدس قوله عليه ، او بالاحرى ما الذي حدث لكي ينطبق عليه مثل هذا القول ؟ كيف استطاع حكم الرجل الفرد ان يسبق الديمقراطية في الزمن ؟

كان الاثينيون اذا شاؤوا احياناً الا يعيدوا انتخاب بركليس للمراكز العليا — وكثيراً ما اعرضوا عن اعادة انتخابه — فانهم بالرغم من هذا كانوا يعيدون انتخابه وبحماسة كبيرة لمجلس القواد العشرة . فقد استأثرت اخـــلاقه الرفيعة ، وشخصيته المحترمة ، وبلاغته المؤثرة ، وحكمته ونزاهته ، بمحبة الناس له. فانه ، بقوة شخصيته وبعمق اختباره في اثناء تمرسه بمنصبه في مجلس القواد العشرة ، استطاع ان يتحكم بمقدرات اثينا في مدة السنين الثلاثين التي كانت من اخطر الفترات في تاريخ اثينا .

ولكن كان حكم بركليس في الواقع بمثابة افساد للديمقراطية الاثينية . فقد بدا مستقبلها وكأن ضباباً قاتماً يخيم فوقها. كانت الديمقراطية تسير سيراً يكتنفه كثير من الغموض ، وقد تصاب الديمقراطية بمثل هذا . ولكن في مستهل القرن الخامس ق. م. لم يكن مثل هذا ليحدث في اثينا . ففي تلك الايام ، وقبل معركة مرثون ، كانت الهيئة التنفيذية العليا تتألف من الحكام التسعة الذين كانوا يحكمون اثينا . وكانت اعادة انتخاب الحاكم امراً ممنوعاً . ولكن بعد الانتصار الذي أحرزه ، وبعد ان لاح خطر غزوة فارسية اخرى ، ارتأى ثمستوكليس ان هذه القوانين والاجراءات التي كانت اثينا تتبعها يجب تعديلها اذا

ارادت اثينا ان تجـــد طريق خلاصها . وبدافع من الطموح الشخصي ، وبروح الوطنية التي كانت تتأجج في صدره — وهي الدوافع التي تحرك كل زعيم مثله — كان يأمل ان يقنع الاثينيين بضرورة انشاء اسطول بحري ضخم . ولكن انـّى له ذلك وهو احد الحكام التسعة ، ولا يمكن قانونياً اعادة انتخابه ؟

واول خطوة اتخذها تمستوكليس كانت تهدف الى الغاء منصب الحاكم او الحد من سلطته . وقد استغل حماسة الناس آنذاك للحكم الديمقراطي فراح يقنع الاثينيين انه خير لهم ان يتركوا امر انتقاء الحكام للآلهة نفسها وان يتركوا المركز مفتوحاً لمن تصيبه القرعة . فكانت النتيجة المحتمة ان الحكام التسعة اصبحوا منذ ذلك الحين اشخاصاً لا قيمة لهم ، ولذا تحتم ايضاً ان تنتقل السلطة في اثينا الى هيئة تنفيذية اخرى، نعني مجلس القواد العشرة حيث يمكن اعادة انتخاب اعضائه . وبهذه التدابير استطاع تمستوكليس ان يهيمن على السياسة الاثينية في السنوات التي تلت معركة مرثون . وبالرغم من ان الوثائق التاريخية لا تمدنا بالتفاصيل عن هذا الامر فان الحقيقة هي هذه ، ولا يمكن ايجاد تعليل آخر .

ومهما يكن من امر فان مجلس الحكام التسعة لم تعد له اية اهمية ، غير انه بقي منصباً فخرياً ، وانتقلت السلطة الحقيقية في اثينا الى هيئة اخرى هي مجلس القواد العشرة . نعم ان بعد النظر الذي تميز به تمستوكليس خلـّص بلاد اليونان بانتصارها في

معركة سلامس البحرية ، ولكن تحايله ودهاءه السياسي افسدا عليهم الدستور . ولم يدرك الناس بصورة مباشرة خطورة ما تنطوي عليه هذه الامور ، غير انه لم يفتهم ان يروا ان الحكم الفردي في اثينا اصبح امراً ممكناً .

كان المواطنون في اثينا ينتخبون اعضاء مجلس القواد العشرة في عهد بركليس عن كل قبيلة قائد ، لمدة سنة واحدة . وكان بالامكان اعادة انتخاب العضو مباشرة عند نهاية مدته . وكانت وظيفة هذا المجلس اكثر من ان تكون وظيفة عسكرية ، فانهم بوصفهم الهيئة التنفيذية ، كانوا يترأسون المجلس العام للشعب ، وكانوا يسدون اليه النصح فيما يجب عليهم ان يفعلوه ، هذا الى جانب وضع المقررات التي يقرها المجلس موضع التنفيذ . ولم يكن اعضاء هذا المجلس من ذوي الخبرة في امر الحكم ، بل كانوا من عامة الناس ، وكان عمر الواحد منهم ثمانية عشر عاماً فما فوق وجلهم ممن قضى حياته فلاحاً او صانعاً او ملاحاً . وكان اسداء النصح لهم في تصريفهم الامور او ارشادهم الى سواء السبيل من الامور العسيرة لا سيما وان هنالك غوغائيين يطمحون الى المناصب والمنافع الشخصية ، ويدافعون عن سياسة لا يقرها القضاة ولا يؤمنون بها .

وقد ارتأى اهل اثينا ، رغبةً منهم في ان يكون التشريع امراً مباشراً يقوم به الشعب ، ان كل مقترح يجب اولاً ان يحال الى المجلس العام لدراسته وللنظر فيه . كان هذا المجلس يتألف من

خمس مئة رجل ينتخبون بالقرعة سنوياً من بين المواطنين الذين بلغوا من العمر الثلاثين وما فوق ذلك . وكانت كل قبيلة من القبائل العشر تنتخب منها خمسين يمثلونها . وكانت مسؤوليتهم كهيئة ان يحضّروا جدول الاعمال لاجتماع مجلس الشعب .

كانت عامة الشعب تجتمع حوالي اربعين مرة في السنة — اي اكثر من مرة تقريباً في غضون عشرة ايام — على هضبة تسمى فنيق (Pnyx) وتقع غربي الاكروبوليس . وكان من الطبيعي ان تنشأ حالات من الطوارىء يتكهرب فيها الجو وتتطلب النظر في الامور الداخلية والخارجية وامكان وقوع الحرب . فكانت جماهير الناس من اهل المدينة تشكل الغالبية التي كانت تتحكم في المجلس العام، ذلك لان حضور هذا الاجتماع كان امراً ميسوراً لديهم ، هذا الى الدور الحاسم الذي كانوا يلعبونه في اثناء امتحان المقررات — وهذا امر يفوت ، عادة ، بعض الناس — فكانوا بذلك يؤثرون تحضير جدول المقترحات التي تحال الى المجلس النيابي لاقرارها. وبهذه الوسيلة يكون الاثينيون قد افلحوا في توفير التمثيل النسبي لكل فرد من افراد المجتمع في المجلس النيابي حيث كان لكل قبيلة من قبائـــل الاقضية خمسون نائباً بناء على عدد افراد القبيلة . وهكذا كلما زادت اثينا نمواً كانت قضية القبائل تزداد اهمية في تكوين المجلس النيابي .

من الخطأ ان نقارن بين مجلس اثينا في عهد بركليس وبين

مجلس مدينة من مدن ولاية نيو انجلند في الولايات المتحدة لا لسبب سوى ان القضايا المثارة والمسؤوليات تختلف اختلافاً كلياً. ولكن بالرغم من هذا فان كلا البلدين كانا يمثلان ، كل بطريقته الخاصة ، الحكم الديمقراطي المباشر البسيط . فان اهل اثينا في اجتماعهم الشعبي العام كانوا يبتّـون في الحال ، وفي مدى وقت قصير في المقترحات التي سترفع الى المجلس النيابي ؛ او اذا شاؤوا ، بعد المناقشة ، تقدموا من المجلس النيابي باقتراح آخر لينظر فيه في جلسته المقبلة معتبراً اياه اقتراحاً جديداً بعث به المجلس الشعبي العام .

ان مجلس القضاة ، والمجلس النيابي والمجلس الشعبي العام كانت المجالات الثلاثة التي تكونت منها نواة الحكم في اثينا ، غير ان عمادها كان محاكم القضاء التي يقوم عليها كل حكم . كانت هذه المحاكم كناية عن مجالس محلفين لا وجود لقاض بينهم لان رئيس مجلس المحلفين لم يكن قاضياً بل حاكماً (ارخون) غير متضلع بعلم القانون ولم يكن المحلفون من ذوي المعرفة والكفاءة في القانون . ولكن الاثينيين كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً ان كل حكم يصدره المحلفون في دعوى ما او في سابقة من السوابق انما هو توكيد جديد لما هو في نظر العامة من الناس حق وعدل.

كانت الدولة تدفع راتباً للمحلفين تماماً كما كانت تدفع لنواب القبائل وللحكام (باستثناء القواد) . ونحن اذا اضفنا الى هؤلاء الموظفين عدد الجند والبحارة نجد ان حوالي عشرين الف رجل

من سكان اثينا كانوا على قائمة اصحاب الرواتب . وقد كان دفع هذه الرواتب امراً ميسوراً وذلك عن طريق الخراج الذي كانت الامبراطورية ـ اي الولايات الواقعة تحت سيطرة اثينا ـ تدفعه الى اثينا . ولكن عندما تفككت عرى الامبراطورية واختفت اصبح دفع الرواتب للموظفين عبئاً ثقيلاً على الدولة . ولكن بالرغم من هذا فان الاثينيين في اثناء عصرهم الذهبي المجيد اقاموا حكماً ديمقراطياً وفـّر لهم الاستقلال المادي والاستقلال المعنوي .

ظلت اثينا ، تلك المدينة المتوجة التي قادها بركليس الى الامجاد ، والى الحروب ، والى الهزائم ، زمناً طويلاً تشعر بالثقة وتضطرم قلوب اهليها حماسة . كان الاثينيون طيلة سنوات عديدة في القرن الخامس يشعرون بالثقة العمياء بانفسهم مما جعلهم يبيحون حرية الكلام واحياناً حرية النقد اللاذع . ولم يكن حبهم لدولتهم حباً يفرض عليهم من فوق ، بل كان حباً هادئاً يصدر عن قلوب الناس . وهذا ما عبر عنه بركليس في مرثاته الخالدة التي كانت تجسيداً للمثل العليا اكثر مما كانت تعبيراً جافاً عن الحقائق. ان الحرب البيلوبونيسية الفظيعة التي وقعت بين اثينا وسبارطة ، تلك الحرب التي لم تندمل جراح بـــلاد الاغريق من جراها ، نشبت بينهما سنة ٤٣١ ق.م. وعند نهاية سنة من القتال المرير اجتمع الناس ، حسب عادتهم ، خارج اسوار المدينة ليصغوا الى خطبة تعد لمثل هذه المناسبات .

ونطلب الى القارىء ان يتخيل نفسه واقفاً في المقبرة الجميلة ، مقبرة سيراميكوس ، وعند الافق وراء ظهره تتمثل صخور الاكروبوليس ذات اللون الوردي التي تقـــوم عليها الهياكل الرخامية الرائعة . وقد خلف لنا المؤرخ الاثيني المعاصر ، ذو الفكر الثاقب ، ثوسيديدس ابن اولورس ، وصفاً لهذا المشهد يقول فيه انه في اثناء شتاء تلك السنة احتفل الاثينيون ، حسب عادتهم ، بذكرى الشهداء الذين استشهدوا في المعركة ، وذلك على نفقة الدولة . ويجري الاحتفال بالصورة التالية : قبـــل الاحتفال بثلاثة ايام يقيمون خيمة يضعون تحتها عظام الشهداء . ويهيىء اهل كل قتيل ما يشاؤون من تقدمة تكريماً للموتى. وفي اثناء الجنازة توضع العظام في توابيت مصنوعة من خشب السرو وتحمل على نعش . ولكل قبيلة تابوت . ثم انهم يحملون ايضاً نعشاً فارغاً تغطيه سجف ويرمز الى القتلى من الجنود الذين لم يعثر على جثثهم بعد المعركة . ويسير في موكب الجنازة من يشاء من الناس سواء أكان مواطناً ، ام غريباً مقيماً وسطهم . وفي مكان الدفن تجتمع النسوة من ذوي القتلى حيث يقمن مناحة . اما القبر الرسمي العام ، فموقعه في اجمل بقعة خارج الاسوار ، وفيه تدفن عظام شهداء الحرب ، يستثنى من هذا التقليد شهداء معركة مرثون ، فان القتـــلى دفنوا في ارض المعركة تخليداً لبطولتهم وشجاعتهم . وعندما يتم دفن بقايا الموتى في الارض يقوم رجل مرموق معظـّم في أعين الناس تنتخبه المدينة فيلقي خطبة يؤبن فيها الشهداء . وبعد ذلك تتفرق جموع الناس .

هذه هي طريقة دفن الشهداء . وهذا الاحتفال كان يجري مرة بعد اخرى طيلة الحرب . وقد اختارت اثينا بركليس ليكون خطيب الاحتفال بذكرى الشهداء الأول الذين وقعوا في ساحة المعركة . وفي اللحظة المناسبة عاد بركليس من المقبرة العامة وصعد منبراً عالياً بني خصيصاً له كي يسمعه اكبر عدد ممكن من الناس الواقفين بعيداً عن المنبر . قال بركليس :

«ان معظم الذين تكلموا قبلي في مثل هذه المناسبة اثنوا الثناء الحسن على المشترع الذي سن هذه السنة المتبعة في احتفال دفن الشهداء ، فانه كان يرى ان هذا التكريم للشهداء الذين وقعوا في ساحة المعركة واجب مقدس . واني لأوثر ان يكرم الافراد الذين يبرهنون عن بطولة وشجاعة بالفعل لا بالقول فقط تماماً كما نكرم الآن الشهداء في هذا الاحتفال الذي تشهدونه . وبذلك لا تتعرض سمعة كثيرين منهم الى شيء من السوء ، اي ان تكريمهم لا يكون وقفاً على فصاحة الخطيب او عدم فصاحته ولا تمس الفضائل التي كانوا يتحلون بها بشيء من المهانة ، وبمعنى آخر لا يكون ذلك وقفاً على ما يقوله الخطيب من حسن ومن قبح . لانه يصعب على الخطيب الا يقول كثيراً او قليلا ، حتى وان اقتصد في القول فانه يترك في نفوس السامعين انطباعاً بعيداً عن الحقيقة . فقد يتبادر الى ذهن صديق الميت الذي يعرف كثيراً من الحقائق عن الميت عند سماعه رثاء الخطيب له ان ما قاله لا يتناسب مع معرفته سجايا الميت وفضائله او مع ما

كان يقوله هو ذاتــه لو قام يؤبن الميت . واما الذي لا يعرف الميت ولا يعرف شيئاً عن فضائله فانه عندما يسمع رثاء يفوق ما يرتأيه يشعر ان هنالك اسرافاً في القول. غير ان البشر يتقبلون الثناء والاطراء على الآخرين برضى طالما انهم يشعرون انــه في قدرتهم ان يعملوا ما عمله المرثي ويقومون باعمال البطولة التي قام بها . ولكن اذا شعروا ان الثناء والاطراء ارفع من ان ينطبق على ذواتهم فانهم يشعرون بالحسد ويخامرهم الشك في صدق القول. ولكن بما ان جدودنا ارتضوا هذا التقليد فاني اقبل بهذه المهمة ، محاولاً قدر المستطاع ان يكون في كلامي ما يرضي السامعين ، وما يرضي هواهم .

« سأقول ، اولاً ، كلمة في السلف الصالح ، لانه من الخير ومن العدل ، ونحن نقيم مأتماً للشهداء ، ان نكرم ذكراهم . فلم تخل هذه الارض يوماً من الابطال الذين بشجاعتهم استطاعوا ان يورثوها لابنائهم جيلاً بعد جيل ، وها نحن اليوم ننعم ببلاد مستقلة . واذا كان هذا السلف الصالح يستحق كل اكرام فأحرِ بآبائنا الذين اضافوا ارثــاً على ارث ان ينالوا منا كل تقدير واحترام . فانهم بعد حروب ومعارك عديدة خلفوا لنا ، نحن ابناءهم ، هذه الامبراطورية العظيمة . وترانا، نحن الذين اجتمعنا اليوم ــ ومعظمنا لا يزال في احسن العمر ينعم بالصحة والنشاط ــ نتابع الجهود، وقد عمرنا مدينتنا، ووفرنا لها كل النعم، فاصبحت تنعم ببركة الاكتفاء الذاتي في زمني السلم والحرب . ولن اقول

شيئاً عن الاعمال العسكرية التي اسفرت عن ممتلكات مختلفة وقعت في ايدينا ، ولن اقول شيئاً عن الجهد الحربي الذي بذلناه نحن وآباؤنا لايقاف المد الحربي الذي كان يهددنا سواء أكان ذلك من قبل ابناء العمومة ام من قبل الامم الاجنبية ، ذلك لان الكلام عن هذه الامور يعد من قبيل الابتذال ، فضلاً عن انها أشياء تعرفونها. ولكن قبل ان ارثي الموتى احب ان اقول كلمة عن المبادىء السياسية التي اتخذناهـــا وجعلت منا امة قوية الشكيمة ، وعن المؤسسات الاجتماعية، وعن اساليب العيش التي ارتضيناها فجعلت امبراطوريتنا عزيزة الجانب . لاني اراها مناسبة طيبة ان اتكلم عن هذه الامور الآن ، واعتقد انه من الخير لهذا الجمهور الغفير الذي يضم مواطنين وغرباء ان يصغوا لما سأقوله .

« ان نظام الحكم عندنا لا يتعارض ولا يتنافس مع انظمة الحكم عند الآخرين . ونحن لا نقلد جيراننا بل اننا مثال يحتذى . نعم ، نحن نسمي نظام الحكم عندنا الديمقراطية ، لان الادارة هي في ايدي جماعة من الناس لا في ايدي قلة منهم . وها هـــو القانون يضمن العدالة للناس في دعاويهم الخاصة على قدم المساواة، ولكن هذا لا يمنع ان يميز امرؤ على آخر بالنسبة الى الفضائل والسجايا التي يتحلى بها . فانه عندما تبرز فضائل الفرد فان الناس يؤثرون ان ينتخبوه الى المناصب العامة الرفيعة ، لا انعاماً او تصدقاً عليه ، بل مكافأة له على مزاياه الخلقية . وليس الفقر

حاجزاً بل يستطيع المرء ، مهما يكن وضيعاً ، ان يخدم وطنه . وليست الحياة العامة احتكاراً او وقفاً على فئة من الناس . وفي معاملاتنا اليومية لا يخامر الواحد منا شك في أمانة الآخر وصدقه ، ولسنا نغضب على جيراننا اذا ما تصرفوا بالطريقة التي يرتضونها لانفسهم ، ولسنا نزدري الرجل الذي لا يروق لنا وان كان رجلاً لا ضرر منه . وبالرغم من ان تصرفنا في حياتنا الخاصة تصرف لا عنف فيه ولا قسوة فان روح الاحترام تتخلل اعمالنا العامة . واحترامنا السلطة والقانون يمنعنا من ان نتصرف تصرفاً خاطئاً ، وذلك لاننا ننظر بعين الاحترام لحماة المظلومين وللقوانين غير المكتوبة التي اذا تجاوزها المرء جر على نفسه نقمة الرأي العام .

« هذا ولم نغفل امر الترويح عن انفسنا التعبة المرهقة ، وذلك اننا وفرنا سبل الترفيه . فعندنا العاب رياضية منتظمة ، واعياد نقدم فيها التقدمات والقرابين في اثناء السنة ، وبيوتنا جميلة انيقة . هذه البهجة المستمدة مما حولنا من مظاهر الجمال تنفي عن ارواحنا السأم . وبسبب عظمة مدينتنا فان فاكهة الارض وثمارها تجد سبيلها الى اسواقنا ، فنستمتع بمنتجات البلدان الاجنبية كما نستمتع بنتاج ارضنا .

« وثمة شيء آخر : ان تدريبنا العسكري ، من نواح عديدة ، يفوق جودة التدريب العسكري عند اعدائنا . ومدينتنا مشرعة الابواب في وجه العالم فلا نطرد غريباً او نمنعه من ان يرى او ان

يطـّلع حتى على ما قد يكون اسراراً لو اطلع عليها العدو لكانت ذات نفع له. وفي اعمالنا لا نعتمد على التنظيم والتوجيه والتحايل بل نعتمد على قلوبنا وعلى ايدينا. واما في شؤون التربية وتنشئة الجيل فترانا نختلف عن الآخرين ، فبينا تراهم يحملون صغارهم مشقة التمارين وعناء التدريب كي ينشأوا على الشجاعة والاقدام تجد اننا نعيش بيسر ولين ، وبالرغم من هذا تجدنا ابداً على استعداد لمجابهة الاخطار التي يجابهونها بشجاعة واقدام . واليك الدليل : ان اهالي لاقونيا عندما يأتون الى اتيكا فانهم لا يأتون فرادى بل تجدهم يأتون ووراءهم جماعات من احلافهم. ولكننا نحن نذهب وحدنا الى البلدان المجاورة. وبالرغم من ان خصومنا يحاربون في سبيل الحفاظ على بيوتهم وممتلكاتهم ، ترانا نحن نحارب على ارض الاعداء، وقل ان نجد صعوبة في التغلب عليهم. ان اعداءنا لم يشعروا للآن بوطأة قوتنا المشتركة ذلك ان الاسطول يهتم بالدفاع عنا بحراً ، فلا نبالي بهذه الناحية . واما على البر فان علينا ارسال الجنود من مواطنينا الى جميع نواحي الارض . واذا صدق ان تغلب العدو على جزء من جيشنا فانهم يفترون ويباهون كأنهم احرزوا نصراً حاسماً علينا جميعاً . اما هم فاذا غلبوا على امرهم ادعوا اننا انما تغلبنا عليهم بكامل قواتنا .

« فاذا كنا نؤثر ان نجابه الاخطار بقلوب فرحة ، وبدون تدريب قاس يفرض علينا ، واذا كنا نؤثر ان نقابل خصمنا

بشجاعة اصيلة موروثة لا بشجاعة يفرضها القانون ، اقول اذا كنا ما نحن عليه السنا نحن الراجحين ؟ وبما اننا لا نخشى الالم او المحن قبل وقوعها ، ولكن متى دنت الساعة ، فاننا نبدي من الشجاعة والتجلد ما يبديه الآخرون الذين قاسوا ما قاسوه في ترقبهم الالم والمحن . وها هي مدينتنا موضع اعجاب ومحبة زمن السلم وزمن الحرب ، ذلك لاننا من عشاق الجمال ، ولكننا نميل الى البساطة والبسيط ، اننا نعنى بتدريب العقل ، ولكننا لا نفقد الرجولة في اجسادنا . واما المال والثروة فاننا ننفقها في الوجوه الصحيحة ، وعندما تقع ضرورة للانفاق ، ولكننا لا نستخدمها للمباهاة والادعاء الفارغ . ولا نرى عيباً في الاعتراف بوجود الفقر بين ظهرانينا ، انما العيب الصحيح هو التقاعس عن محاربة الفقر . والمواطن الاثيني يغفل امر بلاده ولا يهتم بشؤونها لانه منهمك في اموره الخاصة ، حتى ان الذين يتعاطون منا التجارة تجدهم حسني الاطلاع على شؤون بلادهم السياسية . ونحن وحدنا من دون الناس لا نعتبر الرجل الذي يبدي اهتماماً بشؤون بلاده العامة رجلاً لا يضر ولا ينفع ، بل نرى فيه رجلاً تنقصه الاخلاق الكريمة . واذا كان المبدعون الموهوبون منا قلة قليلة فاننا في اكثرنا جماعة تحسن الحكم في الامور السياسية . وفي يقيننا ان العائق الاول الذي يحول دون العمل الجدي ليس الجدل والمناقشة بل نقص في المعرفة . ولذا نؤمن ان الجدل والمناقشة توفر لنا تلك المعرفة الضرورية للعمل الجدي ، لاننا شعب نتميز بحسن التفكير قبل الاقدام على العمل وفي أثناء

قيامنا بالعمل، بينما نجد الآخرين اصحاب شجاعة واقدام ولكنهما شجاعة واقدام يصدران عن الجهل ، أما عندما يفكرون فانك تجدهم يحجمون عن الاقدام . وعندي ان اعظم الناس شجاعة واحسنهم اقداماً هم اولئك الناس الذين ، بالرغم من انهم ذاقوا حلاوة الحياة ومرها ، لا يحجمون خوفاً من الاخطار المحدقة ، ولا ابقاء على لذة زائلة . كذلك نختلف عن سائر الناس في الخير والاحسان للآخرين فاننا نصادق الناس باغداق العطاء لهم لا لنيل النفع منهم ، اذ ان من يعطي يكون اثبت صدقاً في مصادقته ذلك لانه بكرمه هذا لا يريد ان يذكر نائل جوده بجميل او حسن صنيع ، واما الصديق الذي يصادق لنوال الخير من الآخرين فانه بارد العاطفة، ذلك انه اذا رد الجميل وكافأ الصديق على جوده فانه يعلم انه لن يستحق الشكر لانه يكون كمن يفي ديناً عليه . وهكذا تجدنا الوحيدين بين الناس الذين يحسنون الى الجار والقريب بحرية وبروح من الثقة وعزة النفس لا على اساس المصلحة والنفع . وبكلمة مختصرة اقول ان اثينا هي معلمة بلاد اليونان ومدرستها ، ويبدو ان الفرد الاثيني يستطيع ان يكيف ذاته ليكون اهلاً في معالجة مختلف الامور والشؤون الطارئة بيسر ولباقة . وليس قولي هذا عبارة تمليها علي المناسبة ، ولا هو قول فيه مداهنة ، بل انني اقول الحق واشير الى واقع . والدليل على صدق قولي هو سمو المكانة التي بلغتها الدولة بسبب هذه الفضائل والسجايا التي جئت على ذكرها . فان اثينا ، من بين الدول المعاصرة ، تفوق اقرانها عندما تقع الواقعة ، بمـــا

تبديه من روح تتناسب مع السمعة التي تتمتع بها . وليس هنالك من عدو يهاجم هذه المدينة ويشعر بالمرارة والحقارة اذا ما هزم على ايدي ابطالها ، وليس هنالك من مواطنين بيننا يشعرون ان اسيادهم ادنى واحقر من ان يكونوا اسياداً . واؤكد لكم اننا لن نعدم ادلة وشواهد على عظمتنا. فها هي تماثيلنا وانصبتنا التذكارية التي اقيمت تخليداً تجعلنا الامة الاعجوبة في هذا العصر وفي العصور التالية . ولن نحتاج الى شاعر كهوميروس او الى غيره من شعراء المدح والتقريظ ليتغنى بامجادنا . وبالرغم من ان شعر المديح ينفذ الى القلب في البرهة القصيرة التي في اثنائها يصغي الانسان الى مثل هذا الشعر غير ان ما يذكره الشاعر من حقائق لا يقوى على الثبوت طويلاً اذا ما اطلت عليه الشمس بنورها الساطع . اما نحن فقد ارغمنا الأمم وارغمنا البحار على ان تفسح لنا طريقا تمر عليه الشجاعة والبطولة ، ولقد اقمنا في جميع نواحي الارض انصبة وتماثيل خالدة تذكر الناس بصداقتنا كما انها تذكرهم بقوة شكيمتنا، لمثل هذه المدينة العظيمة حارب هؤلاء الابطال بشرف ونبل ، ولمثل هذه المدينة ضحوا بحياتهم، لانهم لم يكونوا ليتصوروا ان تقع المدينة في يد أحد من الطامعين، ونحن الاحياء جدير بنا أن نضحي وأن نقامي في سبيل المحافظة عليها .

« لقد أطلت الكلام عن عظمة أثينا لانني أرغب أولاً في ان أؤكد لكم ان مـــا نحارب من اجله أثمن جداً مما يحاربه

الآخرون لأجله ، لانهم لا ينعمون بالنعم التي ننعم نحن بهـــا . وثانياً لأدلل لكم عن طريق الحس والبرهان لماذا استحق هؤلاء الشهداء مثل هذا الاكرام ومثل هذا الاحتفال الذي اقمناه . ولقد سبق ان قرّظت فضائلهم ذلك انني بتقريظي هذه المدينة وبالابانة عن فضائلها أكون قد نوهت بتضحية هؤلاء الشهداء وبأمثالهم من الرجال الذين على فضائلهم بنت المدينة عزهـــا وسؤددها . وما أقل عدد اليونانيين الذين ينطبق عليهم ما قلته عن هؤلاء الابطال الذين اذا وضعـــوا في الميزان لرجحت كفة اعمالهم على كفة الصيت والشهرة . ويخيل اليّ ان الميتة الشريفة التي ماتها هؤلاء الابطال هي ارفع مقياس لقياس حياة الانسان وقيمته في الوجود . نعم ان هذه الميتة تظهر لنا اولاً ما كانوا عليه من خلق وفضيلة ، ولكن الحكم النهائي على خلق الفرد وفضائله هو بالنسبة الى قدر التضحية وجسامتها . وقد ينبري من الناس ممن هم دونهم ليقولوا ، وعن حق ، انهم لا يقلون عنهم شجاعة وتضحية في خوضهم المعارك في سبيل وطنهم ، وانهم كفّروا عن الشر بالخير ، وانهم افادوا وطنهم بخدماتهم العامة اكثر مما ألحقوا به الاذى من جراء اعمالهم الخاصة التي عادت عليهم بالخير والنفع . ولكن هؤلاء الشهداء لم يكونوا ليبالوا بالثروة، ولم يترددوا لحظة في تخليهم عن لذائذ الحياة ومباهجها، ولم يتقاعس احدهم عن خوض يوم الكريهة املاً منه ، وهو الفقير ، ان يصبح يوماً غنياً ، اذا ما نجا بنفسه ، وكثيراً مـــا يدفع الفقر بالانسان الى طلب النجاة . ولكن لانهم كانوا يرون

في انزال العقوبة في الاعداء حلاوة تفوق حلاوة العيش ولذته ، ولانهم كانوا يؤمنون ان لا ميتة اشرف من هذه الميتة ، فانهم وطدوا النفس على ان يثأروا لانفسهم مجازفين بحياتهم غير مبالين بان يحرموا لذة الحياة . أمنيتهم في السعادة ظلت أمنية مجهولة تتعلق بها نفوسهم، اما في ساحة المعركة ، وهم يجابهون الموت، فانهم لم يحلموا بشيء من الاماني بل كانوا يعتمدون على انفسهم وعلى قـــوة سواعدهم . وعندما كانت الساعة الرهيبة تقترب كانوا يتذكرون انه خير لهم ان يقاوموا وان يصبروا من ان يهربوا لينجوا بنفوسهم . انهم كانوا يأبون ، لا بل يتحاشون ، ان تطلق عليهم كلمة « خيانة » فكانوا في ساحة المعركة يثبتون اقدامهم ، وفي لحظة ، عند نزول القدر المحتوم ، كانوا يموتون ليختفوا من على المسرح ، لا عن رهبة وخوف بل لاجـــل التضحية والمجد .

« هكذا لاقى هؤلاء الابطال حتفهم ، فأصبحت أثينا تفخر بهم . وليس للاحياء منا مهما طمعوا ان يطمعوا ببطولة ارفع من هذه البطولة ، مع العلم انهم يضرعون الى السماء ألا توقعهم في مثل هذا المكروه . انه ليصعب على المرء ان يعبر عن عظمة هذه الروح وقيمتها المعنوية . ومن اليسير على امرىء ان ينهض فيكم خطيباً ويتكلم الساعة بعد الاخرى عن فضائل الشجاعة في الدفاع عن الوطن التي تعرفونها وتدركون قيمتها كما يعرفهـــا الخطيب ذاته . ولكن كنت اتمنى لو انكم ، عوضاً عن ان

تصغوا الى كلماته ، ركزتم اهتمامكم ، يوماً بعد يوم ، ووضعتم نصب أعينكم عظمة أثينا حتى تمتلىء قلوبكم بالمحبة لها ، واذا راعتكم امجادها وعظمتها فاني اطلب اليكم ان تتذكروا ان هذه الامبراطورية انما قامت على سواعد رجال كانوا يعرفون الواجب ، وكان لهم من الشجاعة ما دفع بهم للقيام بالواجب ، رجال كانت تتمثل امامهم قباحة الخيانة في ساعة الكريهة ، رجال اذا ما عجزوا في حياتهم عن الوصول الى غاية فانهم لم يكونوا ليفقدوا فضائلهم ، بل كانوا يقدمون بسخاء أنفسهم ضحية لاجلها على انها اثمن تقدمة يمكن لهم ان يقدموها في عيدها الاكبر . ان التضحية المشتركة التي بذلوها جماعة كوفئوا عليها افراداً ، ذلك لان كلاً منهم نال استحقاقه من التكريم والاطراء ما لا يعفي عليه الزمن ، والنصب التذكاري الذي يرمز الى قبر كل منهم ، عندنا اكرم قبر وأطيبه — واني لا أتكلم عن القبر الخاص الذي يضم رفاتهم انما أتكلم عن القبر الرمزي الذي يضم امجادهم ويخلدها ، هذا القبر الذي نكرم ذكراه في كل مناسبة قولاً وفعلاً . لان الارض كلها قبر للعظماء من الناس ، ولا يقوم تكريمهم على أنصبة تقام لهم في بلدانهم ، ولا على نقش كتابي يأتي على ذكر مآتيهم ، بل ان لهم في جميع البلدان الاجنبية ذكرى غير مكتوبة على حجارة بل منقوشة على صفحات قلوب الناس . فليكونوا لكم قدوة تقتدونها ولا تخشوا الحرب ومخاطرها اذا كنتم من الذين يعتبرون الشجاعة حرية ، والحرية ذاتها السعادة . انه لأيسر على الرجل البائس

الذي لا أمل عنده في تغيير وضعه ان يعرض حياته لخطر الموت من ان يعرضها الرجل صاحب النعمة والثراء الذي قد يتعرض له الدهر بصروفه فيكون التغيير الطارىء من الحسن الى القبيح ، والذي يهمه اذا سقط ، لان سقوطه فجأة امر خطير . ان الجبن ومصائب الدهر في نظر الرجل ذي المروءة اشد مرارة من الموت المفاجىء يصيب الرجـــل وهو ممتلىء قوة وعزماً وقلبه عارم بالامل .

« وعليه فاني لن أرثي لحال آباء الذين استشهدوا وامهاتهم الحاضرين بيننا ، ولكني عوضاً عن هذا أتقدم منهم بالعزاء والمواساة . انتم تعلمون جيداً اننا في الحياة نمر في سلسلة من المآسي والرزايا ، وانه لفخر لأولئك الذين احرزوا مثل هذا الشرف العظيم سواء أكان بهذه الميتة التي ماتوها ام بهذا الحزن النبيل الذي تشعرون به انتم . وانه لفخر لهم ان تكون ايام حياتهم هي ايام السعادة المقدرة لهم في الحياة . واني اعلم انه من العسير عليّ ان اجعلكم تحسّون هذا الامر لا سيما وان حياة السعداء منا تذكركم مرة بعد أخرى بالسعادة التي كنتم تنعمون بها قبل وقوع هذا الرزء . وان المرء ليشعر بالأسى عند فقدان النعماء التي كان يسعد بها لا عند فقدان شيء لم يكن ليعرفه او ليختبر لذته . واني أرى ان بعضكم لا يزال في السن التي يأمل معها ان ينعم بانسال الاولاد ، لذا اطلب اليهم ان يتحملوا هذا المصاب اكثر ممن ليس عنده بعد هذا الامل ، ليس لان البنين

الذين سيولدون لهم يجعلونهم ينسون مصابهم عن فقدوهم ، بل لان مدينة اثينا هي التي ستكون الرابحــة لانها لن تقفر من ابنائها بل انها ستشعر بالامن والطمأنينة . وانا اعلم ان مشورة الرجل الذي ليس عنده أولاد لا يمكن ان يكون لها وزن او فائدة كمشورة الرجــل الذي عنده اولاد . ولذا أقول للذين أصبحوا منكم كهولاً عليكم ان تغتبطوا وتهنئوا انفسكم لانكم عشتم سعداء معظم ايام حياتكم ، وان ايام بؤسكم وحزنكم لن تطول كثيراً ، وعليكم ايضاً ان تجدوا عزاء وسلوى في من فقدتم من الشهداء الذين سبقوكم . لان الشرف والنبل وحدهما يدومان لا الغنى والثراء كما يقول البعض ، والشرف وحده يفرح قلب الرجل عندما يصبح شيخاً عاجزاً .

« اما انتم ، ابناء الشهداء واخوتهم ، فاني اقول لكم ان الشبه بهم والاقتداء بفضائلهم طريق عسير . فان جميع الناس يكرمون الموتى ويثنون عليهم ، واما انتم ، مهما سمت فضائلكم ، فان الناس لن يعتبروكم انداداً وأقراناً لهم ان لم أقــل انكم ستظلون في نظر هؤلاء الناس دونهم مرتبة ورفعة . فان للاحياء منا انداداً ومنافسين واخصاماً يرون نقائصنا ، ولكن عندما يموت المرء فانه ينال من الاحترام خالصه ، ومن الاكرام اطيبه . وان كنت لأقول كلمة أوجهها اليكن انتن اللواتي أصبحتن أرامل ، حول الفضائل النسائية ، فاني اختصرها في كلمة اقرب ان تكون نصيحة . ان المرأة التي لا تبدي ضعفاً ووهناً يتجاوز

الضعف الطبيعي المميز لجنسها بوصفها امرأة هي امرأة حرية بالتقدير والتمجيد ، كذلك المرأة التي لا يكون اسمها موضع قيل وقال بين النساء ، سواء أكان من قبيل الاطراء او الذم هي ايضاً امرأة حرية بالتقدير والتمجيد .

« لقد قمت بواجب التكريم والتقدير كما يمليه عليّ القانون ، ولقد حاولت جهدي ان أجد الكلمات المناسبة لمثل هـــذا الاحتفال ، وعليه اكون قد وفيت الاموات بعض حقهم ، ويكون الشهداء قد دفنوا باكرام . انما يبقى علينا العناية باولادهم ، هؤلاء الاولاد الذين يجب اعالتهم على حساب الدولة الى ان يبلغوا سن الرشد . ومثل هذا العمل هو بمثابة مكافأة حسية ، او اكليل غار ، تستطيع اثينا ان تتوج به هامـــات ابنائها من الاحياء والاموات بعد صراع المعركة التي خاضوا غمارها . ان انبل ما يتمنّى المرء ان يكافأ به لفضائله هو ان يكون مواطناً وقف حياته لخدمة وطنه . اما الآن وقد قمتم بواجبكم فبكى كل واحد منكم ما شاء له البكاء على فقيده يمكنكم ان تنصرفوا الى اعمالكم » .

انه من حسن طالعنا ان يحفظ لنا التاريخ هذا الوصف البليغ المؤثر لديمقراطية وجدت نفسها في صراع مميت . ولا شك في ان روح الوطنية والمثل العليا التي ركز عليها بركليس في مرثاته أرفع من أن يطبقها الرجل العادي ، هذا فضلاً عن انها أمور لا تدوم طويلاً . والدليل على ذلك انه بعد ممات بركليس

بوقت قصير هبطت معنويات الاثينيين الى مستوى عـــادي وبسرعة وبصورة حاسمة .

غير ان مثلهم العليا ومحبتهم للمدينة لم تتلاشَ كلياً . ففي اثناء ازمة الحرب الطويلة التي انتهت بهزيمة اثينا سنة ٤٠٤ ق.م. كان المجرمون السياسيون احياناً يجردون من حقوقهم المدنية . ولكن من المدهش حقاً ان الشاعر الهزلي اريستوفانس قبـــل الهزيمـــة بسنة واحدة راح يتوسل الى مواطنيه ان يستردوا حقوقهم المدنية المسلوبة ، وذلـــك في روايته الموسومـة بـ « الضفادع » فانها استأثرت بقلوب الحضور حتى ان تمثيلها أعيد مرة ثانية ، وذلك بعد عرضها لاول مرة بوقت قصير ، وهذا شرف يُمنَح القلائل من كتاب الرواية التمثيلية .

وعند نهاية الحرب كتب الشاعر المشهور بروايات المأساة ، سوفوكليس ، روايته الموسومة بـ « اديبوس في كولونس » . وكان عمره اذ ذاك تسعين سنة ، ومثلت الرواية بعد وفاته عند انتهاء القتال . وفي الرواية قصيدة مدح وتمجيد لبلدة كولونس مسقط رأس الشاعر سوفوكليس . وهي ضاحية من ضواحي اثينا وتقع في شبه جزيرة اتيكا الولاية التي عاصمتها اثينا . ولنا ان نتصور اعضاء الجوقة يطوفون دورة الى اليمين ثم تتلوها دورة معاكسة الى اليسار . في الدورة الاولى يرنمون اللازمة ، وفي الدورة الثانية المعاكسة اللازمة المعاكسة [١] . كان غناؤهم في ذلك

---

١ — كانت الجوقة الاغريقية ترنم لازمة او قراراً كل دورة ، ثم في الدورة المعاكسة كانت ترنم اللازمة المعاكسة وتعرفان بـ Antistrophe, Strophe .

الجو القاتم والظروف الحالكة غناء شجياً مشرقاً يبعث الفرح .

المقطع الاول (ويغنيه اعضاء الجوقة وهم يطوفون في دورات حول العازفين ، من اليمين الى الشمال) :

اهلاً بك ايها الغريب القادم الينا من بلاد بعيدة
اهلاً بك الى اشرف بقعة في الارض ،
الى بلد الخيول المطهمة
اهلاً بك الى كولونس المستحمة بالضياء
حيث البلبل الغريد في الغيضة الخضراء
يسكب اغانيه شدواً شجياً .
اهلاً بك الى البلد الاخضر ، الى حرم الآلهة المقدس
حيث الثمر وفير
الى البقعة التي لم تطأها قدم انسان ،
التي لم تلوحها اشعة الشمس
التي لم تلفحها الرياح العاتية .
اهلاً بك الى البقعة التي يختال فيها ديونيسوس ثملاً
يسقي الحوريات اللواتي ارضعنه طفلاً .

المقطع الثاني (ويغنيه اعضاء الجوقة وهم يدورون الآن من الشمال الى اليمين) :

هنا حيث طل السماء يسقي خمائل الخزامى يوماً فيوماً
الخزامى التي منذ القدم، كانت الآلهة تكلل به هاماتها

هنا زهر الزعفران يكسو وجه الارض بساطاً من عسجد
هنا نهر سفيسوس الهادر يسيل في مجراه المتعرج
ينابيعه لا تنضب بل دوماً تتدفق
ودوماً تجري متموجة صافية في سهول فسيحة
مسرعة في جريانها نحو مصدرها الاول .
على ضفتيه كان موكب آلهة الفنون يختال
ويتغنى بجماله .
عربة افروديت كانت تمرّ به ، أعنة الخيل بيدها ،
فتنحني له احتراماً .

المقطع الثالث

على ارضنا المعطاء تنمو شجرة اعجوبة ،
ما سمعنا ان السماء جادت بمثلها ،
لا على تربة آسيا ، ولا في الجزر الدورية
نبتة تنمو لذاتها ، لم تغرسها يد بشرية ،
نبتة لا تشيخ ولا تعرف الهرم
ولا تجرؤ فأس ان تمس فروعها ،
هنا تنمو شجرة تامة : شجرة الزيتون
ذات الاخضرار الدائم، الشجرة التي انشأت قوماً اشداء
لم يجرؤ بعد انسان كبيراً كان ام صغيراً شاباً ام شيخاً
ان يأمر بقطعها: عين الإله زفس، شفيع غابات الزيتون،
عين زفس الحارسة ، وعين اثينا الساهرة تحرسها .

فترد الجوقة بعد ان تغير اتجاه دورانها :

نرتل للآلهة حمداً وتسبيحاً
نحمدها لعطيتها العظيمة : اثينا
اثينا امنا جميعاً
اثينا التي اشتهرت بخيولها المطهمة ،
اثينا التي يفوق جمال بحارها المتلألئة جمال كل بحر !
ايها الإله الملك والسيد بوسيدون إله البحر ،
ابن الإله الأول وابي الآلهة : كرونس
لك نرفع التسبيح ، لك نرفع التسبيح
لانك في شوارع هذه المدينة روضت الخيل للفتوح المجيدة ،
لانك على هذه البحار اخضعت المجاذيف
وسلمتها الى سواعد قوية لتمخر البحار
وراء حوريات البحر الى فتوحات مجيدة .

ربما كان الشاعر الذي كتب هذا الشعر أفضل من استطاع ان يعبر عن المثل الاغريقية ويجسدها . ففي سنة ٤٤٣ ق.م. ، مثلاً ، عين بركليس الشاعر سوفوكليس ليكون امين الخزانة الاول في اثناء الفترة التي تم فيها اعادة تنظيم الامبراطورية الاثينية ، وبعد انقضاء ثلاث سنين ، وهي الفترة التي كتب في خلالها روايته انتيغون (Antigone) ، رقي في معركة ساموس (Samian War) الى رتبة جنرال في عهد بركليس .

كان عالمهم آنذاك عالماً يحترم الرجل الذي يعمل . وكان الرجل الذي يطلب الثقافة يدرك ان عليه ان يعيش حاضره وواقعه لا ان يعيش ماضياً مضى لا قيمة له بالنسبة للحياة . وقد صدق المؤرخ ثوسيديدس اذ قال في مقدمة كتابه « التاريخ » :

« بناء على ما توافر لدي من الوثائق التي اعتمدها ، والتي دققت في صحتها ، استطيع ان اتصور ان العصور السالفة لم تكن عصوراً عظيمة الشأن لا في حروبها ولا في شيء آخر » .

ان الشعب الاغريقي، وفي مقدمته اهل اثينا، الذين اصبحت مدينتهم « معلمة بلاد الاغريق » ، كان يقدم ناحية البحث الفكري على أي شيء آخر من النواحي التي لها قيمة في الحياة. هذا الميل الى البحث الفكري اسفر عن نتيجة عظيمة : لقد أثار الاغريق، فعلاً ، كل سؤال وكل قضية كانت تشغل عقول الناس، منها : ما هي منافع الثروة والمال ؟ ما هي الآلهة وما كنهها ؟ وهل النفس خالدة ؟ ما هي طبيعة الديمقراطية الحقة ؟ ما معنى العدالة، والطغيان والقسوة والجمال والحب ؟ غير انه من الواضح ان اثينا في القرن الخامس ق.م. لم تستطع الاجابة عن جميع هذه القضايا التي اثاروها بطريقة نهائية حاسمة ، ولم يفلحوا دوماً في الاصابة ، ولكن بعض اصحاب العقول الثاقبة حاولوا بنبل ان يجيبوا عن هذه الاسئلة . واذا كان لنا ان نصدر حكماً عادلاً على حضارة ما، فيجب ان يقوم حكمنا على النواحي الفكرية وعلى اصحاب الفكر في تلك الحضارة .

٤ الفن والفكر

بعد عصور عديدة من التطور بلغ الفن المعماري والنحت ذروته وتجسد في جمال الهيكل المعروف بالبارثنون . وما كان للفن المعماري في العصور القديمة ان يتفوق على هذا البناء فناً وجمالاً ، لان الخبرة الاغريقية انصبت كلها في هذا البناء . وكما يحدث غالباً ، فان الفن يقتضيه اذا ما بلغ ذروته واذا ما اريد له زيادة في التقدم والتطور أن يغيّر في وجهة النظر وفي فلسفة الفن . وهذا بدوره يستلزم، ان لم نقل فلسفة ونظرة جديدة الى العالم في مجمله، فعلى الاقل شوقاً مستديماً للاختبار وتطلعاً للتجربة . غير ان الاغريق لم تتغير نظرتهم ولم يكن عندهم ميل الى التجربة الجديدة — ربما لان الحرب البيلوبونيسية حالت دون ذلك — حتى ان الفنان المعماري عندهم ، بعد مضي عشرين سنة على اتمام بناء البارثنون ، اصبح يركز اهتمامه بالدرجة الاولى على الناحية التاريخية وان كان بشكل مكثف رومانطيقي .

تأثر الفـــن الاغريقي ، كما تأثر الادب الاغريقي ، بالدين وبالسياسة . ومن ضياع الوقت محاولتنا ان نحدد على وجه اليقين المعتقدات الدينية الرئيسية عند الاغريق لان دينهم كان مزيجاً

يتراوح بين المعتقد الخرافي وبين الإلحـــاد . كانوا يؤمنون بان الانسان خاطىء (عقيدة الخطيئة) ويحتاج الى تطهير ذاته بالاغتسال بالدم ، كما انهم كانوا يؤخذون بفعل السحر وعبادة الارواح . ومقابل هذا كان هنالك الاعتقاد بالتوحيد ، الاعتقاد الذي كان يعتنقه اصحاب الفكر مثل اسكلوس الذي كان يصلي الى « زفس بقطع النظر عمن هو زفس » .

ولكن الدين الذي كان يدور حول عبادة الآلهة الاولمبية كان الارث الديني العام الذي اعتنقه عامة الناس من الاغريق ، وهو الدين الذي كان يستأثر بولائهم بدرجات متفاوتة . وقد خلف لنا هوميروس الشاعر صورة لآلهتهم ، فجعل رؤساء الآلهة يقيمون في جبل اولمبوس حيث كانوا هناك منذ البدء برأسهم الإله زفس ، ابو الآلهـــة وأبو البشر . هناك كانوا يتقاتلون ويتجادلون في مصير الناس ، وكانت حياتهم حياة تراخٍ بما فيها من فضائل ونقائص على ما نعهده في الانسان من فضائل ونقائص . وكان من اليسير على الناس ان يشعروا انهم على صلة وثيقة بهؤلاء الآلهة وكان من السهل عليهم ان يتصوروا انهم إذا غضبوا أو أحبوا أو ثارت في دواخلهم ثائرة ما فان مرد ذلك الى ان إلاهاً حقيقياً كان يستولي على مشاعرهم .

ان عبادة هذه الآلهة لم تتطلب قيام طبقة من الكهنة ، واذا كان هنالك من كهنة فانهم كانوا اقرب الى ان يكونوا موظفين ينتخبون سنوياً للقيام بفروض معينة . كان الرجل يقـــدم

القرابين ويصلي الى الآلهة بصورة مباشرة دون واسطة او شفيع. ولكن له ان يستشير عرافاً او رائياً كأبولون مثلاً في دلفي ، ولكن مثل هذه الاستشارة كانت في غالب الاحيان تدور حول اسداء النصح له في أمور عادية تتعلق بشؤونه الخاصة .

وبما ان الاغريق كانوا يعبدون آلهة لها صفات الآلهة والبشر في آن واحد فكان من المحتم أن تكون أولى تماثيل النحاتين عندهم تعبيراً عاماً عن البشر وصفاتهم . فكان هم النحات أن يعبر عن الصورة العامة للانسان لا عن الصورة الخاصة للافراد من الناس ، او اذا جاز لنا ان نكرر ما قيل مراراً من ان اهتمامهم كان ينصب على الانسان باعتباره انساناً لا على الافراد. وعليه كان فن النحت القديم عند الاغريق يتميز بشيء من الابتعاد عن الواقع وبمسحة من عالم آخر ، شيء يتراوح بين الالوهية والانسانية .

لم يكن يستطيع النحات في بادىء الامر ان يعالج مادته او ان يستعمل آلاته بيسر وسهولة ، فكان ما ينتجه من نحت بعيداً عن الواقعية ، كأن تكون الاذنان مثلاً بعيدتين عن مركزيهما الى الوراء ، او كأن يكون وضع الشفتين وضعاً غير طبيعي . ولكي يعوض النحات عن عجزه الفني وعن تقصيره التقني كان يحاول ان يجعل من رسومه اشكالاً تتبع نماذج مطردة معينة . فمثلاً ، عوضاً عن ان تظهر عضلات البطن طبيعية تعكس الواقع فان الفنان كان ينحت بطناً مزخرفاً، ربما

على شكل الماسة . ولكن اهم من هذا كله كان اصرار النحات على ان يضفي على تمثاله مسحة من الواقعية الطبيعية ، فكان ينفخ في صخرة او في كتلة البرونز بين يديه روحاً عجيبة من الحيوية والقوة والليونة مما جعل تماثيلهم تزخر بالحياة والقوة .

ليس هنالك ادنى شك في ان النحات الاغريقي كان يطمح الى الواقعية الطبيعية ، لاننا نستطيع أن ندرس فنه بتتبع فترة بعد فترة فنلاحظ بدء ظهور معالم الجسم التشريحية ، مثلاً ، كظهور القناة التي يجري فيها الدمع في العين وغيرها من الامور الدقيقة في الجسم الانساني . ونستطيع القول ان الاتجاه العام في تطور النحت الاغريقي كان اكثر فأكثر نحو الواقعية الطبيعية . والواقع ان هذه الخاصية انما كانت ناحية واحدة من نواح عديدة يتصف بها شعب يأخذ بالعقلانية . وكانت هـــذه الناحية تتمشى مع ايمانهم المتزايد بالانسان وكرامته . وما ان استهل القرن الخامس قبل الميلاد حتى اخذت الفردية المتزايدة ، والايمان بالديمقراطية في اثينا، وادخال آلهة وعبادات مستحدثة، لا سيما العبادات الغيبية المستوردة من ثراقيا (Thrace) ومن بلدان الشرق ، اقول ما ان استهل القرن الخامس حتى أخذت هذه العوامل توهن ايمان المثقفين وغير المثقفين بالآلهة التقليدية التي ورثوا عبادتها أباً عن جد . ونحن اذا اضفنا الى هذه النظرة الجديدة الى الحياة التقدم التقني العظيم ودقة الملاحظة في شكل الجسد الانساني نجد انها مجتمعة أسفرت عن نتاج تماثيل مثالية ،

نكاد نعجز احياناً عن الجزم فيا اذا كانت تماثيل تمثل الناس او الآلهة . وتاريخ الفن المعماري الذي سبق تشييد البارثنون تاريخ مديد لا يختلف عن تاريخ تطور النحت . كان الهيكل من أهم البنايات التي كان يعنى الاغريقي ببنائها ، وكانت تتميز أولاً بصفوف من الأعمـــدة . ومن هنا نشأت معضلة السقف الذي يغطي الفسحة بين صفوف الاعمدة ، وقد ظلت معضلة عسيرة الحل الى زمن مديد . كانت صفوف الاعمدة وسقوفها تقوم على مصاطب يصعد اليها بثلاث درجات . ولكن هذه المصاطب المستقيمة الافقية تبدو وكأنها تنخفض في اواسطها ، وهـــو انخفاض سببه وهم في النظر ، ولكي يتلافى المهندس المعماري الاغريقي هذا الوهم فلا يعود المرء الناظر الى البناء يتوهم انه بناء وشيك السقوط ، ولكي يُشعره ان الامر على نقيض هذا ، اي انه بناء قوي ، فانه عمد الى تقويس او تحديب المصطبة وذلك برفع مستوى الزوايا الأربع بحيث تظهر وكأنها تنحني صوب الوسط ، فلا يعود وسط المصطبة يظهر منخفضاً .

ومشكلة أخرى هي مشكلة الأعمدة ذاتها التي تمتد صفوفاً طويلة وتظهر كأنها جامدة متصلبة لا تلين ، لا بل تظهر كأنها على وشك ان تسقط من جراء ثقل السقف العظيم الذي فوقها . ولكي يتجنّب المهندس المعماري هذا الانطباع الموحي بأن الاعمدة قاسية صارمة فانه حاول ألاّ يضعها عمودية بل ترك مجالاً لها ان تنحني قليلاً الى الوراء وقليلاً الى خطها المستقيم .

اما مشكلة ثقل السقف — بمـــا فيه من أفريز وطنف (اي كورنيش) — فتعطينا الانطباع بان العمود ذا الطرف المستدق يكاد ينسحق ويتفتت الى قطع . ولكي يتحاشى المهندس المعماري مثل هذا الانطباع عند المشاهد فانه كان يرى ان ينتهي العمود عند اعلاه بحافة بارزة قليلاً ومتحدبة بشكل يظهر معه آخر العمود وكأنه نتوء لطيف استلقى ثقل السقف عليه ، وان العمود اصبح يتحمل هذا الثقل بيسر ، فهو ثابت مطمئن لا يُخشى عليه خاشية .

كانت الغاية الاولى من رأس العمود ، ذلك القرص المزخرف الذي كان بمثابة تاج له ، نفعية تمليها حاجة هندسية ، كما كانت معظم اعمال الاغريق نفعية ولغاية معينة . ولكن التكرار والتقليد المستمرين قضيا على جمال الابتكار والابداع . فقد كانت الغاية الاولى توفير قاعـــدة واسعة — لان رأس العمود مستدق اكثر من قاعدته — يلقي السقف بثقله عليها باطمئنان . فلما تم لهم ذلك وأمنوا للسقف قاعدة راحوا يهتمون بالغاية الثانية من تاج العمود فدأبوا على زخرفته نحتاً كي ينتقل الطرف من ساق العمود القائم ، الخالي من الزخرف ، الى افريز السقف الافقي . فكان رأس العمود المحدب — لانه لم يكن افقياً ولا عمودياً — ييسر للناظر ان ينتقل ببصره من اسفل العمود الى قمته فلا يشعر بالملل ، اذ ان الطرف ينتقل عند نهاية العمود الى اشكال اخرى تنبسط لها العين . وفوق تاج العمود كانوا يضعون افقياً بلاطة صغيرة ومن ثم كان يبدأ السقف .

ظل الاغريق يعانون الاختبار زمناً طويلاً الى ان حلوا هذه المشكلات الهندسية بصورة مرضية . لان من ينظر في محاولاتهم السابقة في هذا الحقل يشعر وكأن بصره ينحسر عنها مللاً واستقباحاً . ولكن من العدل ان نقول ان الفنانين المعماريين كانوا الى حد ما مقيدي الارادة، لان الهندسة الدورية (Doric) التي كانوا يتبعونها كانت هنـــدسة معمارية مادتها الخشب لا الحجارة (وقد كانت هندسة هيكل البارثنون هندسة دورية ، وكان هنالك فنّان آخران من فنون الهندسة المعمارية احدهما الايوني والآخر كورنثي) فكانت النتيجة ، عندما اخذ الاغريق يبنون بالحجارة عوضاً عن الخشب ، ان بعض مظاهر البنـــاء عندهم فقدت جمالها ومعناها ، بينما لو ظلت مبنية من خشب — كما كانت سابقاً — لكان لها جمال ومعنى . مثال ذلك مجموعة نتوءات صغيرة ، عددها ستة ، وتعرف بالنقط الست التي تظهر في الطبقة الاولى من افريز السقف الضخم، وبرتابة وعلى مسافات معينة . كانت هـــذه النقط في بداية أمرها رؤوس المسامير الخشبية عند رؤوس الجسور الخشبية التي كانت يقوم عليها السقف ، اما الآن فصارت نتوءات منحوتة في الصخر . ثم انك تجد في الطبقة الثانية من طبقات الافريز نحتاً في الصخر وزخرفاً فنياً كان في بادىء الامر تدابير لمنع المطر والريح من ان ينفذا الى البناء من خلال الجسور الخشبية . فكانوا يسدون هـــذه الفجوات بقطع خشبية ، اما الآن فقد اصبحت ، بحكم تقليد

الفن السابق ، حجارة منحوتة مزخرفة ، ولذلك اصبح الافريز غاية في جمال الفن المعماري الاغريقي .

ان افضل مثال على هذه الدقائق والتطورات الفنية في الفن المعماري الاغريقي تجده ممثلاً في هيكل البارثنون . وقد بدىء العمل بتشييده سنة ٤٤٧ ق. م. وذلك فور اقناع بركليس اهل اثينا باعادة فرض الضريبة على الحلفـــاء . وقد عين بركليس فيدياس مشرفاً فنياً على اعمال البناء المستحدثة . وكان فيدياس في الوقت ذاته رئيس النحاتين . وفي هيكل البارثنون قدر عظيم من اعمال النحت بحيث لا يستطيع المرء ان يجزم فيما اذا كان هذا الحجر من نحت فيدياس أو من عمل احد اعوانه . اما الشيء الاكيد الذي نستطيع الجزم به فهو ان المخطط الهندسي لهذا الهيكل وضع بكل اتقان، وان تنفيذ المخطط جرى بكل دقة .

كان هيكل البارثنون مكرساً للإلاهة اثينا بارثنوس اي اثينا العذراء. وقد كانت اثينا الإلاهة التي تحرس البلاد وتحميها، وكانت شفيعة الفنون والعلوم ورمز الحق والحكمة. يقع الهيكل على قمـــة الاكروبوليس فيسبغ على المكان بجملته مسحة من الالوان الجميلة العجيبة ، لان حجارة الهيكل من رخام اقتلعت صخورها من الجبل المجاور ، جبل بنتليكوس ، الغني بعنصر الحديد . والعروق الحديدية في الحجارة تتوهج بلون ذهبي وسط اللون الرخامي الابيض الذي يسيطر على البناء . وللقارىء ان يتصور هيكل البارثنون قائماً على قمة من الصخر الوردي يستحم

بنور الشمس الساطع تحت سماء زرقاء . وعند قدميه يرى مدينة اثينا ، التي لا يختلف موقعها الآن عن موقعها القديم ، ممتدة في سهل أتيكا الذي كانت تغطي ارضه دوماً غابات من اشجار الزيتون . وتحيط بهذا السهل ، من جوانبه الثلاثة ، جبال – جبل بارنس ، وجبل بنتليكوس ، وجبل هيمتوس المشهور بجودة عسله – تتحول ألوانها ، باختلاف ساعات النهار ، من أحمر قاتم الحمرة الى لون أرجواني . وفي الجانب الرابع ، وعلى بعد لا يزيد عن خمسة اميال ، يقع البحر الخمري اللون الذي وصفه هوميروس الشاعر ، اما نحن فيبدو لنا ان لونه اقرب الى اللون الازرق الذي نشاهده في ريش الطاووس . ووراء الجزر تقع سلسلة جبال البيلوبونيس، وهي سلسلة مرتفعة شديدة البروز والانحدار ، على ما هي جبال بلاد الاغريق عادة . ولسنا نشك في انه كان لوجه الارض الشديد التباين أثر في دقة الاحساس والتفكير عند الاغريق .

وضع مهندسا هيكل البارثنون – وهما ايكتينوس وكليكريتس – مخططاً لبناء اكبر حجماً مما كان يألفه الناس . فقد كان طوله ٢٢٨ قدماً وعرضه مئة قدم وقدم ، وعلوه ٦٥ قدماً . وعلى واجهة البناء ثمانية أعمدة ، وثمانية في مؤخرته . اما على كل من الجانبين فقد كان عدد الاعمدة ١٧ . وقد كان هذا البناء ظاهرة لها مغزاها الخطير ، فانه كان بناء يجمع بين شتى المخططات الهندسية – مما يدل على ان الاغريق كانوا يرحبون

بكل فكرة جديدة مهما يكن مصدرها — فقد تجسدت فيه دقائق الهندسة الايونية ممتزجة بروعة الهندسة الدورية . في هذا الهيكل يبدو التضادد بين الهندسة الايونية الجميلة النحيفة وبين روعة الهندسة الدورية وضخامتها ؛ وأن يستطيع المهندس ان يجمع بين الاثنين ، وفي البناء الواحد ، لعمل فريد من نوعه ، عمل يدل على جرأة في التحرر من قيود العرف .

لا شك في ان اجمـــل ظاهرة أيونية الاصل في هذا البناء وابعدها شهرة هي الافريز الذي يعلو الجدران الاربعة التي تحيط بالقاعات. وبما ان الافريز الايوني كان يختلف عن الافريز الدوري – لم يكن يحتوي على مدماك من البلاطات المستطيلة ذات الاضلع الثلاثة ، (Triglyphs) — فان فيدياس النحات استطاع ان ينحت في هذا المدماك مواكب من التماثيل النافرة (اي البارزة). هذه المواكب من التماثيل تمثل مهرجاناً يعرف بمهرجان باناثنيا، وهو عيد يقع في منتصف الصيف عندما كان شباب اثينا ، بعضهم على صهوات الجياد وبعضهم الآخر على الاقدام ، وفتياتها الحاملات القرابين يصعدون نحو الاكروبوليس ليقدموا الى تمثال الإلاهة اثينا الخشبي ثوباً جديداً . وعند الطرف الشرقي لهيكل البارثنون ، وفوق المدخل الرئيسي للهيكل ، نرى آلهة الاغريق جميعها مجتمعة على قمة جبل اولمبوس لتبارك موكب العيد . وطول هذا المدماك الذي نحت على حجارته هذا الموكب من التماثيل ٥٢٠ قدماً، وطول البلاطة الواحدة منه ٤٠ قيراطاً، فهو في جملته مثال رائع للتصوير والرسم على الحجر .

ولكن بما ان السقف فوق جدران قاعات الهيكل كان يخرج عن خط الاعمدة بشكل نتوء بارز فان فيدياس كان يجابه مشكلة هندسية خطيرة . ذلك لان الافريز الايوني في هذه الحالة يبقى دوماً في الظل ، فكان النور الذي ينعكس عليه من أسفل يلقي ظلالاً الى الجهة العليا فتختفي وجوه التماثيل . وعليه فان التماثيل التي ارتأى حفرها على الافريز كانت محفورة في منخفض ، لا سيما الاجزاء السفلى من التماثيل . اما التماثيل في المثلث فوق الاعمدة ، على كلا الطرفين ، فقد كانت محفورة بشكل بارز . وفي المثلث الشرقي فوق الاعمدة نشاهد جبل اولمبوس حيث تولد الإلاهة اثينا مدججة بالسلاح الكامل من رأس الإله زفس ، وحول هذا المشهد نجد الآلهة ، ذكوراً واناثاً ، واقفين ينظرون بدهشة الى هذا المولد العجيب . بينما نشاهد عند زاويتي المثلث آلهة أخرى لم تشعر بعد بمولد اثينا فراحت تنظر الى الشمس الطالعة والى القمر وهو يغيب . ان الاحتفال بمولد الإلاهة اثينا له مغزى يتعلق بكنه الكون. وهذا المشهد يتكرر في المثلث الغربي حيث نجد الإلاهة اثينا والإله بوسيدون يتنافسان لاجتذاب سكان مدينة اثينا لانتخاب احدهما شفيعاً للمدينة .

ان هـــذه التماثيل – الى جانب المدماك المزخرف نحتاً في الافريز ، وتمثال الإلاهة اثينا العاجي المذهب الذي فقد منذ زمن طويل والذي كان قائماً في القاعة الرئيسية من قاعات الهيكل – ترينا بوضوح كيف كان الاغريقي يكيف نفسه مع

عالمه ، وبصورة عجيبة . ولسنا نشك في انه كان عالماً يتميز بفقدان العدالة وبالحروب وبالفقر والمرض . ولكن اذا دخلنا هيكل البارثنون فاننا لا نجد فيه ما يجعلنا نستشعر انه كان عالماً كئيباً ، بل الامر على نقيض هذا اذ نحس اننا في حضرة الانسان المثالي ، الانسان المطمئن الى ذاته ، والواثق من انه يستطيع ان يتغلب على الصعاب ، وان يخطط لمستقبل يرضي رغائبه . وهل هناك من دليل اثبت حجة من تمثال ديونيسوس المنحوت في المثلث الشرقي القائم فوق الاعمدة؟ ألسنا نستطيع ان ندرك كنه ما يشير اليه دون اللجوء الى ترجمان او الى مفسر ؟ أليس هذا الهيكل برهان جانبي يمثل لنا الروح الاغريقية ، اعني اننا نستطيع ان نعتبر البارثنون تجسيداً لنظرتهم السياسية ، كما انه يمكن اعتباره نصباً يعكس روحهم الدينية ؟

بالرغم من انه كان قد تقرر ان تستمر اعمال البناء في البارثنون ست سنوات اخرى فان بركليس استغنمها فرصة مواتية ان يدشنه سنة ٤٣٨ ق.م. لكي يبدأ من جديد بناء الممر او الرواق الذي يؤدي الى تلة الاكروبوليس . ولكن من سوء طالعه نشبت الحرب البيلوبونيسية سنة ٤٣١ التي حالت دون اكمال بناء الممر او الرواق . ولكن من مفاخر صلابة الاثينيين وتوطيدهم العزم على النهوض بعد الكبوة انهم بعد مرور عشر سنوات ـ اي خلال فترة الهدنة الاولى المعروفة بصلح نيسيا ـ راحوا يركزون اهتمامهم على تشييد هيكل آخر ، وهو الهيكل

الرشيق الذي يعرف بهيكل « انتصار اثينا » الذي كان يقوم على مصطبة امام مدخل الممر او الرواق (Propylaea) .

ومن العجيب فعلاً ، او بالاحرى مما يصعب تصديقه ، هو ان الاثينيين في اثناء الحرب التي تميزت بشتى الفظائع والويلات استطاعوا ان يشيدوا هيكل اركثيوم الذي يعد من اعقد اشكال البناء واكثرها زخرفاً وتزييناً . فقد كانت معالم الزخرف والنحت الرشيق فيه – كقواعد الاعمدة مثلاً وتيجانها واعالي جدران القاعات المزينة برسوم النبات ذات الاريج من فصيلة البرسيم – تنسجم انسجاماً رائعاً مع الهندسة الايونية الجميلة في نحافتها ورشاقتها . وقد كان لهيكل اركثيوم رواقان احدهما الى جهة الشمال وفيه باب جميل الصنع والنحت ، والآخر الى جهة الجنوب ، وفي هذين الرواقين صف من الفتيات العذارى الرشيقات القوام (عددهن ست) يحملن السقف .

نعم ، انه كان من اليسير على اهل اثينا ان ينشئوا هذه الهياكل وامثالها من البنايات وذلك بفضل الضريبة التي كانت تفرضها اثينا على رعايا امبراطوريتها . ونحن اذا تغاضينا ، ولو الى برهة ، عن مصالح حلفائها – وكثيراً ما كان اهل اثينا يتغاضون عن مصالح حلفائهم – وكذلك اذا نحن تغاضينا عن السياسة التي اتبعها بركليس والتي كانت السبب المباشر لنشوب هذه الحرب التي غيرت معالم بلاد الاغريق تغييراً حاسماً ، اقول اذا نحن لم نأخذ هذه بعين الاعتبار ، فاننا لا نستطيع ان ننكر

بان الاثينيين كانوا يبذلون بسخاء لتوفير الحياة الكريمة والتمتع بها . ان هذه الضريبة التي كانت تفرضها اثينا على امبراطوريتها، كما اشرنا الى ذلك آنفاً ، كانت توفر لها المال لتدفع رواتب الحلفين في المحـــاكم وسواهم من موظفي الدولة ، كما ان هذه الضريبة أيضاً وفرت للدولة من المال ما مكن الشعب من الاشتراك في الاعياد والاحتفالات التي لو رآها ابناء الجيل السابق لما صدقوا ما تراه عيونهم .

مما لا شك فيه ان العيد الذي كان يعرف بديونيسيا (نسبة الى ديونيسوس) كان اهم اعياد الاغريق اطلاقاً . وكان يحتفل بمراسم هذا العيد في الربيع تكريماً للاله ديونيسوس إله الخصب وشفيع المسرح . وكما هي الحال في الفنون الجميلة فان جواً دينياً كان يخيم على هذه الاحتفالات، وكذلك كانت هذه الاحتفالات برعاية الدولة وتعهدها مما كان يعطي الدولة صلاحية المراقبة والتوجيه في مثل هذه الاعياد . وكان الاثينيون يعتقدون ان المزج بين السياسة والدين من الامور المستحبة ، وان الجمع بين مختلف نواحي الحياة ووجوه نشاطها في شكل او مظهر واحد لبرهة من الزمن أمر مرغوب فيه ايضاً . وفضلاً عن هذا فان روح المنافسة الحادة في حقل التمثيل المسرحي كانت تزيد من حدة الحماسة عند الجماهير ، وهذه خاصة اغريقية .

مثال ذلك انه اذا اراد الشاعر الهزلي او كاتب المأساة ان يشترك في احتفالات ديونيسيا فقد كان عليه ان يقدم روايته او

تمثيليته الى لجنة ، وذلك قبل الاحتفالات بزمن طويل . فكانت اللجنة تنتقي ثلاثة شعراء من شعراء المأساة وخمسة من الشعراء الفكاهيين الهزليين . وكان كل كاتب مسرحي يشرف على اخراج تمثيليته ، وكان اخراج التمثيلية المأساة يتناول تأليف جوقة للغناء ، وعدد افرادها خمسة عشر مغنياً ، وبما انه كان يستحيل على هؤلاء ان يوفروا الوقت الضروري للتمرين فان غنياً من اغنياء المواطنين – وكان يعرف بصاحب الجوقة – كان يعين لتعهد الجوقة ودفع النفقات . وقد كان هذا مثال من امثلة عديدة على فرض الضريبة المباشرة التي كان الاثينيون يفرضونها على الاغنياء منهم . ولكن المواطن الغني لم يكن ليبدي استياء او امتعاضاً ، لان صاحب الجوقة الذي يتعهد جوقة تمثيلية تفوز بالجائزة كان من حقه أن يقيم نصباً تذكارياً ، وعلى حسابه الخاص ، تكريماً لهذه المناسبة .

كان الممثلون من المتهنين ، وكانت الدولة تدفع لهم مرتباً. وبما ان ممثلي التمثيلية – المأساة كانوا ثلاثة اشخاص (ولكن اذا اقتضى الامر كان احدهم يلعب اكثر من دور واحد) فلم يكن من العدل ان يختار المؤلف أحسن ثلاثة من بين الممثلين . وعليه فانهم كانوا يعينون له الممثل الاول الذي يلعب الدور الرئيسي، وعند نهاية الاحتفال كانوا يقدمون جائزة لافضل ممثل من هؤلاء الأول ، وكانوا ينقشون اسمه على بلاطة ، وكذلك اسم المؤلف واسم الرواية التي تربح الجائزة .

اما مكان تمثيل الروايات فقد كان على مسرح ديونيسوس . وكان بناء في الهواء الطلق موقعه على سفح تلة الاكروبوليس الجنوبي . وكانت قاعة المسرح العامة تتسع لحوالي ثمانية عشر الف مشاهد . وكان عند سفح المسرح فسحة منبسطة يسمونها فسحة الاوركسترا حيث كان يجري التمثيل . ومهما يكن دور الممثل (كذلك مهما يكن دور المغني في الجوقة) فانه يجب ان يكون رجلاً يتقنع ويتزيّا بزي الذي يمثله ، لان مسرحاً كهذا المسرح الهائل كان يخفي على المشاهد ملامح الوجه ودقائق التمثيل فلا يشعر انه يشاهد رجلاً ، مثلاً ، يمثل دور امرأة . ولا شك في ان الاقنعة التي كانوا يضعونها على وجوههم كانت تسهل عليهم اسماع اصواتهم الى الجمهور الكبير ، هذا بالرغم من ان حالة السمع في المسرح الاغريقي كانت ممتازة .

يقوم في وسط ساحة الاوركسترا مذبح مقـــدس للإله ديونيسوس ، ويجلل بالاكاليل في مناسبات الاعياد . وعلى الدرج الذي يؤدي الى المذبح كان يجلس الموسيقيون العازفون لان كثيراً من الرقص والغناء كان يرافق التمثيلية الاغريقية . وكان امام الاوركسترا ، عبر القاعة العامة بناء للمسرح ، بمناظره المختلفة ، يمثل عليه الممثلون ادوارهم .

كانت احتفالات عيد ديونيسوس تستمر ستة ايام ، ستة ايام من الفرح والابتهاج ، بالرغم من الجو الديني الرصين الذي كان يخيم عليها . وكان اليوم الاول ، بطبيعة الحال ، يخصص لخروج

الناس في موكب عظيم . وكان اليوم الثاني يخصص لمباراة كانت تجري بين عشر جوقات ، تتألف كل جوقة منها من خمسين مغنياً، وتتبارى في انشاد قصائد غنائية نظمت في الاله باخوس. واما في اليوم الثالث فكان يمثل فيه خمس تمثيليات هزلية لخمسة من الروائيين . واما الايام الثلاثة الباقية فكانت تخصص لتمثيل الروايات المأساوية . وكان في كل يوم من الايام الثلاثة الاخيرة يقدم مؤلف روائي ثلاث تمثيليات تدور كلها حول موضوع واحد ، وكانوا يسمونها الرواية المثلثة . ولم يتحدر الينا من هذه الروايات المثلثة التي كانت تمثل في القدم سوى واحدة منها وهي المعروفة بـ « اورستيا » (Oresteia) لمؤلفها اسكلوس . ونحن الآن لا نستطيع ان ندرك مبلغ الخسارة الادبية التي منيت بها الاجيال التالية بسبب فقدان هذه الروايات ، فان سبعاً واربعين رواية فقط ، من اصل الوف من الروايات بقيت الى يومنا هذا .

كان كتاب المأساة من الاغريق يرجعون الى ماضيهم الخرافي يستوحونه في ايجاد الموضوعات التي كانوا يتناولونها . وكانت معالجتهم هـــذه الموضوعات ، لا سيما تركيز اهتمامهم على القيم الانسانية ، من الابداع بحيث اصبح لهذا التاريخ الخرافي الاغريقي مركز مرموق واعتبار عالمي خالد . مثال ذلك ظهور آلهتهم في التمثيليات مما يضفي على التمثيلية جواً دينياً كما كانت الحال في اعياد الاله ديونيسوس ، ولكن يجب ان نذكر ان المأساة الاغريقية كانت تستأنف الى العقل قبل ان تستأنف الى

العاطفة والاحساس . غير ان ارسطو كان يرى ان الغاية الاولى من المأساة هي ان تستأنف الى العاطفة والاحساس، ولكن ارسطو عاش بعد ان كان قد انقضى قرن بكامله على وفاة عظماء الروائيين الاثينيين ، وما كان له ان يفقه دوماً المقاييس الادبية التي كان يأخذ بها اهل القرن الخامس ق.م.

كان اسكلوس اعظم الثلاثة من كتاب المأساة المشهورين في اثينا ، وفي روايته الموسومة بـ « تقييد بروميثيوس » يُعنَى بقضية الشر والبؤس في العالم . فكان يسأل : لماذا وجد الشر ؟ كيف يسمح الله ان يتعذب الانسان وان يشقى ؟ وهذا السؤال ذاته طرحه معاصره ، الذي يصغره سناً ، سوفوكليس ، في روايته الموسومة بـ «فيلوكتاتس» (Philoctetes) حيث يصور لنا الصراع المرير بين روح الوطنية والضمير . فقد كان سوفوكليس يسأل : لماذا يشقى الصالحون والابرار من الناس ؟ وهذا السؤال يطرحه كاتب سفر أيوب .

كان اسكلوس رجلاً ذا شعور ديني عميق، كما انه كان ايضاً اديباً ذا خيال شارد وقدرة على التحكم بالكلمة . ففي روايته « اورستيا » (وهي رواية مثلثة تدور حول اجممنون وخوفوريا ويومنيديس) نلاحظ كيف ان الآلهة انزلت على بيت ارتيوس سلسلة من اللعنات المتعاقبة الى ان توحدت اخيراً الرحمة مع العدل ، وهكذا تعلم الانسان ان الشر ليس كله شراً بل ينجم عنه خير . فقد يتعلم الانسان الطاعة والحكمة من معاناته البؤس

والشر . كان اسكلوس في اعماق ذاته شاعراً ومعلماً . وبالرغم من ان الروائيين الذين اتوا بعده لم يكونوا يميلون الى الوعظ والتعليم من خلال مؤلفاتهم ، فان الرواية التمثيلية – وليس في هذا شك – كانت ذريعة لنشر الافكار الجريئة السابقة لأوانها في المجتمع السيامي .

وهل يمكن ان يكون اثر الرواية التمثيلية غير هذا الذي ذكرناه ، لا سيما اذا نحن تذكرنا ان الاثينيين كانوا في اعياد ديونيسوس ينتقلون من واقعهم في الثلاثة ايام المخصصة للمأساة الى جو من المأساة العامة وينصرفون بكليتهم الى التأمل في قضايا حياتية خطيرة .

وقد اشار ارسطو في كتابه « الشعر » الى ان المأساة « محاكاة » لحادث رصين تام وعلى شيء من الخطورة . وان وظيفة المأساة اثارة الشفقة والخوف في نفوس المشاهدين ، فتكون المأساة من هذه الناحية اشبه بعامل تطهير يطهر النفوس من هذه الاحساسات وما اشبهها من الانفعالات . ويتابع ارسطو كلامه عن هذا الموضوع فيقول ان بطل المأساة المثالي رجل بعيد الشهرة ، بالرغم من أنه ليس رجلاً تام الفضائل ، حلت به نوازل بسبب اخطاء في اتخاذ المواقف ، او بسبب ضعف بشري ، لا بسبب رذيلة أو اثم اقترفه .

ان ارسطو وقع على تحديده الشهير للمأساة من انها عامل

تطهير يطهر النفوس البشرية من احساس الشفقة والخوف وما اشبهها من الانفعالات، من رواية سوفوكليس المعروفة «باسطورة ثيبس» ، وعلى الوجه الاصح من دراسته شخصية اوديبوس — وهي ثلاث روايات في واحدة : اوديبوس والملك اوديبوس في كولونس، وانتيغون وتدور حول مدينة ثيبس القديمة بالرغم من ان تأليفها يختلف كثيراً من حيث التفاوت في الزمن — ان الحالة الحرجة التي وجد اوديبوس نفسه فيها بعد ان قتل أباه في غفلة من العقل وتزوج امه ، حالة مفجعة الى درجة ان عقولنا في آخر الامر تشعر وكأننا قد تطهرنا من عاملي الشفقة والخوف اللذين اثارتها الرواية في نفوسنا . عندما نرى رجلاً يبدي تجلداً في الصعاب وتماسكاً امام قوى لا قبل له بتحملها فاننا نعجب به ونعجب بصبره في الضيق . فان اوديبوس ، بالرغم من ان عذابه الروحي كان اعظم مما يتحمله بشر ، لم يدّعِ انه جاهل ليحمّل الجهلَ غائلةَ اثمه ، بل يحمل ذاته مسؤولية اعماله . وفي سياق الرواية نرى جلال البطولة يحيط به كهالة . وفي آخر الامر بعد ان اكتشف الحقيقة اقتلع اوديبوس عينيه في كولونس ، المدينة التي رأى فيها سوفوكليس النور ، ومات ميتة من اروع مـــا صورته الوثنية القديمة . اما الفكرة الرئيسية التي تتناولها رواية انتيغون فتذكرنا بالقضية التي تثيرها رواية فيلوكتاتس ، اعني الصراع الروحي الذي يثيره الواجب ، وبكلام أخص : هل ان شريعة الله تأتي أولاً والانسان ثانياً ؟

بالرغم من ان سوفوكليس عندما يتناول قضية اثر الحياة

في تنمية الاخلاق يتناولها بتعميات وعبارات عامة فان طريقة معالجته القضية تبدو هلينية في روحها واسلوبها . وهذا القول لا يصدق على يوريبدس الذي ، في حربه الشعواء ضد الرجعية الفكرية ، وضد التعصب الاعمى للقديم ، راح يبشر بولادة عصر جديد. وليس من العسير علينا ان نتصور ان يوريبدس في حياته كان رجلاً يكرهه الناس لآرائه السابقة للزمن . فانه لم ينل وهو حي سوى أربع جوائز أولية ، ولكنه أصبح بعد موته اشهر روائي اثيني . وقليلون هم الناس الذين كانوا يقولون ، كما كان يوريبدس يقول باصرار ، ان كل فرد يتحمل مسؤولية تصرفه . كان يوريبدس بوصفه رجلاً مشككاً واقعياً ، يميل الى مواساة الذليل ونصرة المظلوم .

ويصدق كلامنا هذا بصورة خاصة على رواية يوريبدس الموسومة بـ «نساء طروادة» حيث يصف لنا الكاتب هول الفظائع التي تحل بنساء المدينة التي يخضعها العدو ، ولكن هذا الوصف هو ناحية واحدة من موضوع أوسع شمولاً . فانه قبل ان تمثل هذه الرواية بسنة واحدة كان الاثينيون قد اقترفوا افظع جريمة في الحرب البيلوبونيسية ، نعني الهجوم الذي لم يكن له من مبرر ولا من سبب على جزيرة ميلوس حيث قتلوا الرجال فيها واستعبدوا النساء والاطفال . وبعد هذه الجريمة فوراً كانت الاستعدادات قيد التحضير لحماقة اخرى من حماقات الحروب الاستعمارية ، وذلك لاجتياح جزيرة صقلية . وفي هذا الجـــو

بالذات تجـــرأ يوريبدس على ان يبدي رأيه في روايته « نساء طروادة » فخاطب مواطنيه الاثينيين مظهراً لهم ان الحرب ليست فقط قسوة وظلماً وبدون جدوى ، بل ان المنتصر فيها يخسر خسارة اشد فداحة من خسارة الخاسر فيها . ونحن اذا اخذنا بعين الاعتبار ما كان يجري في السابق من تغاض عن مثل هذه الامور ومن جبن عن التصريح بمثل هذه الآراء نستطيع ان نقول ان المرء كان يحتاج الى كثير من الجرأة والشجاعة لينادي بهذه الافكار . هكذا كان جو اثينا ذلك الجو الذي لم يكن يوريبدس وحده ليصبر عنه. كذلك لم يكن اريستوفانس وحده يطالب باحلال السلام وذلك عن طريق كثير من تمثيلياته ، بل ان المؤرخ ثوسيديدس في كتابه الموسوم « تاريخ الحرب البيلوبونيسية » اختار الجريمة الفظيعة التي اقترفها الجيش الاغريقي في جزيرة ميلوس لتكون مثالاً على مدى الانحطاط الخلقي الذي يمكن ان تنحدر اليه دولة كانت فيما مضى تتصف بكل معاني الانسانية .

ان يوريبدس ، بوصفه مفكراً عميقاً يستطيع سبر غـــور الطبيعة الانسانية ، يتساءل في « الباخوسيات » اذا كان المرء يستطيع ان يحيا بالعقل فقط. يقول : أليس الاعتدال في الامور وضبط النفس من الامور التي يجب ان نمارسها مع العقلانية ، وبقدر اكبر مما نمارسها في الامور العاطفية الانفعالية ؟ ان مثل هذا المبدأ ظاهر ظهوراً جلياً في تعليم دلفي المشهور : « لا شيء

الى غايـــة من الاسراف » . وهذا المبدأ ذاته يظهر ثانية في « هبوليتس » حيث يحاول الكاتب ان يقول ان الاسراف في الولاء للعفة يؤدي الى التهلكة. وهذا المبدأ يشكل جزءاً واحداً من القضية الرئيسية التي تعالجها رواية « ميديا » حيث نجد امرأة تستطيع ان تعمل ما تشاء وان تتصرف بدون النظر الى القيود التي تفرضها المدنية على الانسان . ولكن يوريبدس في هـــذه الرواية يرمي الى شيء آخر اجل – وهو غرور الاغريقي الذاتي واقليميته التي جعلته يقسم الناس الى حفنة من الاغريق والى ربوات من البرابرة. نعم ، ان «ميديا» فعلاً امرأة عنيفة شديدة الشكيمة ، ولكن الى جانب هذا كان عملها يدعو الى الاستنكار الشديد . فهي لم تكن اغريقية فكيف لها ان تتصور ان بقدرتها ان تتزوج رجلاً اغريقياً . ولكن يوريبدس يقول : اعتبر ما صنعته هذه المرأة لاجل ياسون (Jason) وكيف انها ضحت ببيتها وبعائلتها لاجله ، وماذا لقيت من هذا الغلام التافه سوى المعاملة السيئة ؟

كانت الرواية – المأساة عند الاغريق تتألف من عناصر بدائية مختلفة . كذلك كان اصل الرواية الهزلية . فانها نشأت في عصور سحيقة في القدم مع نشأة أعياد الخصب ، وهذا يفسر لنا ولو الى حد ما ، الخلاعة والاباحية التي تميزت بها كتابات اريستوفانس ، اعظم شاعر هزلي في اثينا مع العلم اننا على ثقة من ان هذه المواضيع كانت من أحب المواضيع عنده، ولم يؤثر

عليها موضوعاً آخر . اما الهزلية التي تقوم على العنصر المضحك في المواقف ، وهو العنصر الاساسي في الهزلية الحديثة ، فانها ظهرت في عصور متأخرة . ولكن في عهد اريستوفانس كان هدف الروائي ان ينظر في قضايا الساعة ، وان يهاجم الناس الاحياء الذين كان من يمثلهم جالساً على المسرح . وكانت حرية الكلام المطلقة في اثينا تتمشى جنباً الى جنب مع حرية استعمال البذيء من الكلام وبدون خجل او حياء ثقة من الكاتب انه يخاطب مجتمعاً ديناميكياً يتميز بحيوية عجيبة .

مما لا شك فيه ان هدف اريستوفانس كان تسلية الجمهور والترفيه عنه ، ولكن بما ان افضل سبيل للنيل من العدو هو ان تجعل منه أضحوكة فان الشاعر الهزلي يستطيع بهذا ان يؤثر في الجمهور من ناحية ، ومن ناحية اخرى ان يكون داعية لمصالح الفئة التي ينتمي اليها . فان اريستوفانس ، بوصفه ملّاكاً خرّبت الحرب البيلوبونيسية مزارعه سنة بعد سنة ، كان يقف موقفه المعارض من هـــذه الحرب . فانه في روايته « ليستراتا » (Lysistrata) يقترح حلاً فعالاً حاسماً — لكنه في الوقت ذاته حل وليد الخيال الشارد — لانهاء الحرب . وبوصفه محافظاً فانه كان يكره الآراء الجديدة وراح يهاجم في روايته « الضفادع » يوريبدس ، وفي رواية اخرى ، « الغيوم » ، سقراط مما اثار عليه حفيظة الاثينيين ونقمتهم .

واذا عدنا الى سقراط ، الى سقراط التاريخي ، فاننا نعجب

غاية العجب كيف سمح الاثينيون لانفسهم ان يعدموه مهما كانت خطورة الاتهامات التي وجهت اليه . ولكن العصر كان عصراً جديداً ، وكانت الحضارة الاغريقية قد وصلت فجأة الى حالة من الوهن والضعف . فانه قبل ذلك بخمس سنوات سقطت اثينا في قبضة عدوتها سبارطة وزالت امبراطوريتها ، حتى ان الديمقراطية اختفت الى حين . وبالرغم من ان جماعة من الاشخاص العظام في تاريخ العالم ظهروا في القرن التالي ، امثال افلاطون وارسطو وبركسيتاليس (Praxiteles) ، فان المرء كان يشعر وكأنه فقد ذاته في ذلك العالم الشديد التعقيد الدائم التغير . وظلت الامور على هذه الحال الى ان ظهر الاسكندر المقدوني عند منصرم القرن فاستطاع أن يتسلم الدفة ليتجه بالروح الاغريقية في اتجاه جديد .

في خلال السبعين سنة التي عاشها سقراط عندما كانت اثينا تنعم بفترة ذهبية كان الاثينيون يشعرون بالقوة والمنعة فلم يكن ثمة ما يمنعهم من الاصغاء اليه . فكان لكلامه عند بعض مريديه ممن كانوا يصغون اليه ، كالشاب افلاطون آنذاك ، أثر السحر في ايقاظهم الى حياة فكرية ناشطة . كان سقراط شديد الاخلاص للديمقراطية الاثينية التي يعد من ابنائها . وفي القرن السابق لهذا القرن ، لا سيما في مقاطعات إيونيا في آسيا الصغرى كان العلماء المفكرون من الاغريق يعنـــون بالتسآل والبحث عن اسرار الطبيعة . ولكن كانت تعوزهم الآلات العلمية للسير قدماً في

أبحاثهم . اما الآن في عصر الديمقراطية الجديدة ، بنظريتها التي تقول بالمساواة بين البشر ، فانهم راحوا يركزون اهتمامهم على درس الانسان باعتباره انساناً. وهذا التبدل في الاهتمام والانتقال به من العالم المادي الى الانسان ذاته ، كان السبب في ظهور الفردية ، وفي إعادة النظر في قيمة النظريات التي كانوا يحاولون بها أن يحلوا مشاكل الحياة . فلم يعد التقليد او العرف في نظر الشاعر وفي نظر غيره من أهل الفكر حجة او هادياً يهـــدي الناس الى حل مشاكلهم .

في ذلك الحين بدأ معلمو الحكمة ، وكانوا يعرفون بالسفسطائيين ، اي محبي الحكمة ومريديها ، يعلمون الناس ويعطونهم مختلف المعارف الضرورية ، ربما لتهيئتهم لكي يكونوا ساسة ، وكان هذا هو الطريق الجيد الذي يؤدي بصاحبه الى القوة والعظمة . ولكنهم كانوا من اصحاب الجدل والتعنت الفكري الى جانب كونهم ادعياء متغطرسين ، قولاً وتصرفاً ، بحيث اصبح الناس يمقتونهم . ولكن يبدو جلياً ان عقل العامة من الناس لا يستطيع ان يميز الامور تمييزاً واضحاً ، وعليـــه عندما انبرى اريستوفانس ليصور سقراط على انه زعيم الصوفيين ورأسهم فان قلة من الناس فقط كانت تجد انه مذنب اقترف جرماً .

لم يكن سقراط يتقاضى أجراً على تعليمه . ومن جهة اخرى لم يكن من جماعة الصوفيين حقاً ، بل كان رجلاً كرس حياته ليُعِدَّ جيلاً من الشباب اعداداً فكرياً وجسدياً وروحياً كي يتفانى في خدمة وطنه في الحرب والسلم . وبوصفه رجلاً فقيراً لم يتوافر له من الوقت او من الفرص ما يمكنه من الانقطاع الى الدرس والتحصيل . وقد قام بواجبه جندياً ومستشاراً ، وكان بكل اخلاص يقدم القرابين للآلهة ، آلهة الوطن ، ولكنه قضى معظم وقته في التفكير والنقاش . فانه كان يحب أن يرتاد الأمكنة حيث يتجمع الناس ، وبالرغم من انه هو نفسه لم يدَّعِ العلم والمعرفة فلم يكن من العسير عليه ، كأعنف مفكري جيله، ان يبرهن للناس ان هذا الرجل او ذاك يجهل الامر الذي يجادل فيه جهلاً تاماً .

في اثناء احاديثه مع اصدقائه ومع الغرباء كان سقراط يحاول عن طريق الاستقراء ان يقرر تحديد معنى الكلمات التي نستعملها بصورة عامة تحديداً صارماً . مثال ذلك كان يسأل : ماذا نعني بلفظة التقى او التدين ، ما معنى الجمال والقبح ، النبل والجبن ، الدولة ، الديمقراطية ؟ كان يقول ان وجود مثل هذا النظام العجيب في الكون لدليل قاطع على وجود الله ، وان الله خلق الانسان وعليه يكون العالم قد خلق للانسان . ومثل هذا التفكير يستتبع القول ان افضل المؤسسات الاجتماعية هي تلك التي تقوم على الايمان بالله والطاعة له ، ونستطيع ان نقول ان

سقراط وضع أسس علم الاخلاق كي يسير الناس بموجبه . فقد قال ارسطو : « هنالك أمران نعزوهما الى سقراط ، الاول منهما وضـــع طريقته الاستقرائية في التفكير ومحاولته وضع التعاريف او التحديدات العلمية الصارمة » .

وهل من قضية سرمدية أهم من قضية الخلود تتوخاهـــا لطبيعتنا البشرية ؟ سقراط ، وفي الواقع عن لسان تلميذه الشهير افلاطون يقول ، كلا . وفي كتابه الموسوم بـ « الحلقات »[1] يضع افلاطون هذه الكلمات على لسان سقراط :

« اما الآن فاسمحوا لي ان أحاول ، قدر المستطاع ، وبناء على النقاط التي تم عليها الاتفاق بيني وبين اغاثون ، ان اكرر على مسامعكم حديثاً عن الحب[2] سمعته منذ زمن من النبية ديوتيما (Diotima) التي كانت معرفتها بهذا الامر ، وبغـــيره من النظريات والمعتقدات ، معرفة عميقة ، والتي قبل الطاعون بعشر سنوات استطاعت ، بواسطة القرابين والتقدمات التي قدمها الاثينيون الى الآلهة ، أن ترفع ويلات هذا الوباء عن المدينة .

---

١ – ترجمة Symposium وتعني حلقة دراسية يتناول فيها المجتمعون قضية او بحثاً فيتداولونه . (المترجم)

٢ – في الترجمة الانجليزية لهذا المقطع كلمة حب Love تكتب بحرف كبير اي انها كيان ووجود قائم بذاته ، وليس الحب بمعناه العادي بـــل الفلسفي . (المترجم)

ان النبية ديوتيما هي التي علمتني جميع الامور التي تتعلق بالحب.

« إن الامر ، كما اشرت يا صديقي اغاثون ، يقتضينا ان نبيّن ما هو الحب [1] ومن يكون ، وما أثره . وانه لأيسر عليّ ان آتي على ذكر هذا الحديث بالترتيب ذاته الذي وضعته النبية الاجنبية عندما سألتني عنه . ذلك انني سردت عليها الامور ذاتها التي ذكرها لنا اغاثون الآن – اعني ان الحب إله عظيم وان الحب جميل . ولكنها دحضت رأيي بادلائها الحجج والاسباب ذاتها التي ادليت بها الآن لادحض رأي صديقي اغاثون، واقنعتني ان الحب ليس جميلاً وليس قبيحاً ، كما ذكرت لكم . ولكنني اعترضت عليها قائلاً :

– « اذن ، يا ديوتيما ، تريدين ان تقولي ان الحب قبيح وشر ؟ فأجابت ديوتيما قائلة :

– كلامك حسن ، ولكن انتبه : هل تريد ان تقول لي ان الشيء اذا لم يكن جميلاً فهل من الضرورة ان يكون قبيحاً ؟ وان ما ليس حكمة هل ينبغي بالضرورة ان يكون جهلاً ؟ الا تستطيع ان تتصور شيئاً وسطاً يتوسط بين الجهل والحكمة ؟

– ما هذا الكلام ؟

---

١ – يستعمل ضمير العاقل ، كما قلنا اي انه كائن او وجود او جوهر .
(المترجم)

ـ أوردته لكي يتوافر عنـــدنا الرأي السديد والمعتقد الصحيح . واريدك ان تلاحظ ان هذا النوع من الرأي الذي لا يمكن لنا ان نقيمه على حجة او دليل ، لا تستطيع ان نقول عنه انه يدخل في نطاق المعرفة ، اذ اية معرفة هي هذه التي لا تقوم على دليل ولا على منطق ؟ وهذا ينطبق على الجهل ، اذ اي جهل هو هذا الذي يستطيع صاحبه ان يقنع به الآخرين وهو جهل ؟ ان الرأي السديد هو شيء يقع وسطاً بين الفهم والجهل . واني اعترف ان حجتها في ذلك حق وصواب . ثم انها تابعت كلامها قائلة :

« لا تقل اذن ان ما ليس جميلاً هو بالضرورة قبيح ؛ وان ما ليس خيراً هو بالضرورة شر . كذلك ، وبما انك قلت آنفاً واعترفت ان الحب ليس جميلاً ولا خـــيراً ، لا تسرع الى الاستنتاج ان الحب تشويه وشر ، ولكنه شيء يقع وسطاً » .

غير اني قلت لها : « جميع الناس يعترفون بان الحب إله عظيم . فأجابت قائلة : عندما تقول « جميع الناس » هل تعني « جميع » الذين يعرفون ما يقولون او « جميع » الذين يجهلون ما يقولون ؟ ان لفظة « جميع » كلمة عامة شاملة ، وهل هذا امر ممكن يا سقراط ؟ ثم راحت تسألني وهي تضحك : كيف يمكن للناس الذين لا يؤمنـــون اولاً انه إله ان يزعموا انه إله عظيم ؟ ثم ، من هم هؤلاء الناس ؟ فقلت لها : انت احدهم وانا الآخر ايضاً واحد منهم . كيف يحق لك ان تقولي مثل هذا

الكلام يا ديوتيما ؟ فأجابت : انه من السهل عليّ ان اقول هذا وبكل اخلاص . قل لي بربك ، ألست تؤمن بان الآلهة كلها جميلة وسعيدة ؟ او انك تزعم ان احدها ليس جميلاً ولا سعيداً ؟ فقلت لها : اقسم لك بالإله زفس اني لست ممن يزعمون هذا .

— ألست تحسب السعيد من يفوز بالاشياء الجميلة ، وبالاشياء الحسنة ؟

— هذا امر اكيد .

— لقد اعترفت ان الحب ، بسبب رغبته في الحصول على الاشياء الجميلة والحسنة ، لا يستطيع ان يفوز بالامور التي توفر السعادة لصاحبها .

— نعم ، اعترف انني قلت هذا .

— ولكن كيف نستطيع ان نتصور إلهاً ليس له نصيب في الامور الجميلة والحسنة ؟

— لا استطيع ان اتصور هذا اطلاقاً .

— لاحظ ، اذن ، انك بقولك هذا لا تعتبر الحب إلهاً .

— ما هو الحب اذن ؟ هل هو انسان او شيء فانٍ ، شيء يموت ؟

— كلا .

— اذن ما هو ؟

- هو ، كما قلت لك سابقاً ، ليس شيئاً فانياً ، ولا شيئاً خالداً ، بل شيئاً يقع وسطاً بينهما .

- ما هو هذا الشيء الوسط يا ديوتيما ؟

- انه جنّ عظيم يا سقراط . والجن يقع ابداً وسطاً بين الإلهيّ وبين الفاني .

فسألتها : ما قوته وما هي طبيعته ؟

- انه يفسر ويوضح ثم يتصرف باعتباره صلةً بين الامور الإلهية وبين الامور الانسانية ، وبذلك ينقل الصلوات ويشفع للقرابين التي يقدمها الناس للآلهة ، وينقل للناس أوامر الآلهة والتوصيات او التعليمات الصالحة التي عليهم ان يعملوا بموجبها في عباداتهم المرضية للآلهة . وهو يملأ الفضاء الذي يقع وسطاً بين هذين الكائنين ، الآلهة والناس ، كي يوحد بقوته جميع الاشياء التي يتكون منها هذا الكون . به يتم كل تكهن ومعرفة للغيب ، وهو مصدر الاسرار المقدسة التي لها علاقة بالقرابين والضحايا التي تقدم للآلهة ، وهو مصدر الكفارة ، وبه يحل المرء من أثر السحر او الرقية ، وهو مصدر النبوءة والسحر . ذلك لان الطبيعة الإلهية لا تستطيع مباشرة الاتصال بالناس وبما هو انساني ، بل ان كل اتصال وكلام تسمح الآلهة به للناس ، سواء أكانوا نياماً ام ايقاظاً ، انما يتم بشفاعة الحب . ومن كان له علم بأسرار هذا الاتصال

بين الآلهة والناس فانه رجل ينعم بملء السعادة، ويشارك الجن طبيعتهم ، بيد ان من كان له علم بغير هذا العلم او الفن فانه يظل مجرد عبد مستعبد . الحق اقول لك ان الجن كثر واصناف عديدة والحب واحد منهم .

— فسألتها : من هما ابوا الحب ؟

— ان الاجابة على سؤالك تقتضيني شيئاً من الاسهاب في التاريخ . ولكني سأحاول ان أفسر لك الامر . عندما ولدت افروديت [1] أقامت الآلهة احتفالاً عظيماً . وكان من جملة من أتوا الى الاحتفال « الوفر » ابن متيس (Metis) . وبعد العشاء ، جاء « الفقر » ووقف على الباب يستجدي ، ذلك بعد ان شاهد مظاهر الترف والنعمة . وكان الوفر ثملاً من كثرة شراب المسطار — لان الخمرة لم تكن بعد قد اكتشفت — فراح الى حديقة الإله زفس ونام نوماً عميقاً . ولان « الفقر » [2] كان يرغب في ان يكون له ولد من صلب «الوفر» وبالنظر الى مقامه الوضيع ، فانه ذهب ونام في أحضان « الوفر » وبعد ضم وعناق حبل بالحب . فالحب اذن تابع وعبد لافروديت لانه حبل به يوم مولدها ، ولانه بطبيعته

---

١ — وهي عشتاروت . (المترجم)

٢ — في النص الفقر مؤنث فهو امرأة تريد ولداً . (المترجم)

يحب الجمال ، وافروديت جميلة ، وبما ان الحب هو ابن « الوفر » و « الفقر » فانه بطبيعته يشارك ابويه طبيعتهما. ان الحب دائماً فقير ، وهو دائماً قذر بائس شاحب اللون ، وليس كما يتصوره الناس شيئاً جميلاً رقيقاً نحيفاً . يطير فوق الارض على ارتفاع قليل ، لا مسكن له ، ولا يلبس في رجله حذاء . ينام امام الابواب بدون غطاء ، وفي الاسواق غـــير المسقوفة ، ولانه اكتسب سجايا امه (اي الفقر) وتمثلت فيه طبيعتها ، فانه دوماً حليف العوز والفقر . ولكن لانه يشترك مع ابيه (اي الوفر) في بعض سجاياه ، فانه دوماً يسعى للحصول على الاشياء الجميلة والحميدة . انه لا يعرف الخوف ، غير انه قوي عنيف . وهو صياد يُخشى جانبه ، وهو دوماً يحوك الحبائل . وهو ايضاً شديد الحذر وفطن حكيم واسع الخيال حسن التحايل . وهـــو طوال حياته فيلسوف وساحر قوي ومشعوذ وحكيم ذو دهاء . ولان طبيعته ليست فانية ولا خالدة فانه في اليوم الواحد ، اذا افلح واسعفه الحظ ، فانه يعيش ويزدهر ثم يموت ويفنى لكي يعود ويحيا وذلك بفضل اكتسابه طبيعة ابيه . كل ما يمتلكه يتلاشى ويفنى دوماً، وبهذا لا يكون الحب اطلاقاً غنياً او فقيراً . وهو دوماً يقع وسطاً بين حالتي الجهل والمعرفة. ان الواقع هو هذا : ليس هناك من إله يتفلسف أو يرغب في ان يكون حكيماً ، لانه حكيم بالفعل، ولا

يوجد هنالك كائن آخر حكيم يرغب في ان يتفلسف .
ولا الجهال يتفلسفون لانهم لا يرغبون في ان يكونوا
حكماء ، فهذا هو شر الجهالة ، اعني ان المرء الذي ليس
على ذكاء ولا يتصف بفضيلة او يحس مرهف يتصور انه
يجمع في ذاته جميع هذه الامور ، وبمقدار كبير منها .
ولذلك لا تراه يسعى الى الحصول على ما لا يشعر بحاجة
اليه .

فقلت لها مستفسراً: «من هم الفلاسفة ان لم يكونوا الجهلة او
الحكماء » ؟

— « انه من الواضح ، حتى لدى الاطفال ، انهم الجماعة التي
تقع وسطاً بين هاتين الحالتين ، والحبُّ واحد منهم .
لان الحكمة من أجمل الاشياء اطلاقاً ، والحب هو الذي
يتوق الى الجميل ابداً فهو بالضرورة فيلسوف لان الفلسفة
وسط بين الجهل والحكمة . ووالداه هما المسؤولان عن
طبيعته لانه ابن والدٍ حكيم ينعم بالوفر ، ووالدة تجمع
في ذاتها الجهل والفقر .

« هذه هي اذن طبيعة الجن ، يا عزيزي سقراط . اني
لا استغرب جهلك حقيقة الحب ، لانك حسبت ان الحب
كما استنتجتُ من كلامك ، ليس هو الذي يُحِب (او
المحِبّ) بل الحبيب ، اي المُحَبّ ، لذا وجب ان
يكون — واستنتاجك هذا صحيح — على غاية من الجمال،

لان الذي يكون موضع حب وتقدير يجب ان يكون جميلا دمثاً، كاملا ، ويجب ان يكون أسعد الخلق . لكن الحب ، كما قلت آنفاً ، هو وريث طبيعة تختلف عن هذا كلياً» .

– قلت لها : ايتها المرأة الغريبة ، ان في كلامك اقناعاً ، وليكن الامر ما تقولين . ولكن هذا الحب ما نفعه وما الخير فيه للناس ؟

– سأحاول ، يا سقراط ، ان اوضح لك هذا الامر . بما ان طبيعة الحب هي كما وصفتها لك ، وبما ان اصله هو كما وصفته لك ، فانه في الواقع ، كما قلتَ انت ، هو حبنا للاشياء الجميلة. ولكن اذا سأل سائل قائلا : لماذا الحب، يا سقراط ويا ديوتيما ، هو حب الأشياء الجميلة ؟ او بكلام اكثر وضوحاً : ماذا يحب المُحِبُّ للأشياء الجميلة في محبوبه ، وماذا يسعى الى الفوز به من محبوبه ؟

– قلت مقاطعاً كلامها : انه يطمع في الحصول عليه ، وفي الفوز به ملكاً له .

– فأجابت : ان مثل هذا القول يرد عليه بسؤال آخر : هذا الجميل ، ماذا يملك ، وماذا في حوزته ؟

– فعلاً ، لا استطيع الاجابة عن هذا السؤال فوراً، ولكن

اذا استبدلنا لفظة « جميل » بلفظة « الخير » فاني اقول ان كل انسان يطلب « الخير » .

– اني اسألك يا سقراط ، ما هو هذا الشيء الذي يحبه من يُحِبُّ الخير في محبوبه ؟

– اجبتها : ان يمتلكه .

– وهذا الذي يملك الخير ، ما عنده ؟

– ليست الاجابة عن هذا السؤال امراً عسيراً : انه يكون سعيداً .

– اذن تريد ان تقول ان الذين هم سعداء انما هم سعداء لانهم ملك من يحبون . وما الفائدة من سؤالنا عما يرغب فيه من يسعى للسعادة ؟ يبدو لي ان للسؤال هذا جواباً تاماً. ولكن هل تعتقد ان هذه الرغبة وهذا الحب امران يشترك فيها كل الناس ، وان كل الناس يرغبون في أن يكون الخير دوماً من نصيبهم ؟

– بالطبع ، هذان امران يشترك فيها الناس جميعاً .

– اذن ، لماذا لا نقول ، يا سقراط ، ان كل انسان يحب ، اذا كان جميع الناس دائماً يحبون الشيء ذاته ؟ ولكن هذا ليس بصحيح اذ اننا نعلم ان بعض الناس يحب وبعضهم الآخر لا يحب .

– ان هذا فعلاً يحيّر لي .

– لا تتعجب ، اجابت ديوتيما ، لاننا في حبنا نختار انواعاً وفضائل مختلفة من الحب ونطلق عليها ، وبكل وضوح، تسميات عامة .

– هل لك ان تعطيني مثالاً على ما ينطبق عليه هذا الكلام ؟

– نعم ، الشعر ، وهو اسم عام يعني كل علة يصدر عنه ما ليس له وجود الى شيء له وجود ، فينتج ان ممارسة اي فن من الفنون الابداعية هو نوع من الشعر ، وكل فنان من هذا النوع هو شاعر . ولكننا لا نسميه شاعراً انما نطلق عليه اسماء اخرى مميزة له . وجزء أو نوع من الشعر ، أعني ذلك النوع الذي له صلة بالموسيقى والايقاع، ينفصل عن بقية انواع الشعر ، انما يعرف بالاسم العام الذي نطلقه على الكل . لان هذا النوع وحده يسمى بحق شعراً ، والذين يمارسون هذا النوع من الفن هم الشعراء . وهذا ينطبق على الحب . ان الحب في الواقع ، هو هذا التوق العام المخلص للحصول على السعادة والخير ، هو هذا الحب العظيم الذي يعمر به قلب كل حي . غير ان الذين يسعون للحصول عليه بتكديس الثروة او بالحذق في الرياضة البدنية او عن طريق الفلسفة ليسوا ممن يحبون ، ولا يحق لنا ان نسميهم محبين . نوع واحد فقط نسميه الحب ، والذين وحدهم يصح لنا ان نسميهم محبين ويحبون ، اعني

اولئك الذين يسعون لاشباع هذا التوق العام بوساطة نوع واحد من الحب ، هو الحب الذي يتميز عن غيره من انواع الحب بتسميتنا له « الحب » اطلاقاً . يزعم بعضهم ان الذين يحبون هم اولئك الذين يفتشون عن النصف الضائع من وجودهم المجزّأ . ولكنني اجزم لك ان الحب ليس حب النصف ، ولا حب الكل ، إلّا ، يا صديقي ، اذا توحد مع ما هو خير ، اذ اننا نشهد اناساً يبترون عن طيب خاطر ايديهم او ارجلهم اذا استشعروا ان في بقائها في الجسم شراً ووبالاً . ولا نعلم ان الناس يتعشقون ما هو في حوزتهم لمجرد انه ملك لهم ، الا اذا اراد احدهم ان يقول ان ما هو خير هو خير لصيق وملازم لطبيعته، وهو ملكه أيضاً، وان ما هو شر هو شر غريب عنه، وشر طارىء لا يدَ له فيه . اما الحب فلا يريد الا الخير . ألا يبدو لك الامر هكذا ؟

— لا شك في ذلك . هل نستطيع اذن ان نقول بتأكيد ان الناس انما يحبون الخير .

— لا شك في ذلك .

— أليس لنا ان نضيف سؤالاً آخر وهو انه ، الى جانب حبهم الخير ، يحبون ايضاً ان يفوزوا بالحب .

— نعم ، ينبغي لنا ان نضيف مثل هذا القول . وأضيف

قائلة انه يجب ألا يكتفوا بأن يفوزوا بالحب بل ينبغي ان يكون الحب دوماً أليفَهم .

– الحب اذن ، عند جميع الناس ، هو توقهم للحصول على الخير وان يكون الخير ابداً في حوزتهم .

– هذا صواب .

– اذا كان هذا هو تحديد الحب العام فهل تستطيع ان توضح لي مم يتألف الحب عندما يسعى الحب الى الوصول الى غايته واي نوع من العمل يقتضيه للوصول اليه ؟

– لو كنت ادرك ما تسألين عنه، يا ديوتيما ، لما كنت اعجب من حكمتك ، ولما كنت سعيت اليك كي استمد منك العلم والمعرفة .

– اذن سأخبرك . الحب هو رغبة التوليد والانسال في الجميل إن من جهة الجسد او من جهة الروح .

– عليّ ان اكون عالماً بالغيب لأفهم ما تقولينه ، لانني ، وانا من تعهدينه من العجز والقصور ، أقر واعترف اني لا افهم قولك .

– اني سأفسر لك الامر بايضاح . ان اجساد الكائنات البشرية وأرواحها تحمل في ثناياها ذرية الاجيال المقبلة فهي حبالى بها . وعندما ، نحن البشر ، نبلغ سناً معينة تدفعنا طبيعتنا الى الانسال والى الابقاء على الذرية. وهذه

الطبيعة لا تستطيع ان تولد بواسطة اجساد تعتريها عاهة او تشويش بل بواسطة الجسد الجميل . ان الجماع بين الذكر والانثى قصد الانسال – ذاك العمل المقدس – عبر عملية الحمل فالولادة هو عمل خالد ، يقوم به الفاني . وهذه العملية لا يمكن ان تتم في ما هو بطبيعته متضاد يعوزه الانسجام ، لان صاحب العاهة هو من هذا القبيل (اي متضاد)، لكن الجميل ينسجم مع الفاني ومع الإلهي. الجمال اذن هو إلاهة الانسال . وعليه عندما يقترب الجسم المليء بالقوى التوليدية من الجميل فانه يشعر بنشوة من السعادة وينسكب شهوة، وينسل، ويبقي على الذرية . ولكن عندما يقترب من الجسد ذي العاهة ينكمش أسىً، وينفر ليجد ذاته مُلجَماً ، فلا ينتج ، بل يجد ذاته مرغماً على ان يبقي القوى التناسلية في جسده . ولذلك نجد الجسد الذي يتحرق شهوة ينجذب بعنف نحو الجميل ، وذلك لانه يتألم من جراء ما يتضمنه جسده من قوة للخلق او شهوة للانسال . فالحب ، يا سقراط ، ليس كما تتوهم انه حب الجميل .

– اذن ما هو ؟

– هو الانسال وانتاج الجميل .

– ولكن لماذا هو انسال ؟

– ذلك لان الانسال شيء خالد لا يفنى رغم كونه في عالم

الفناء . فيترتب علينا اذن ، وبالنسبة الى ما قررناه آنفاً ، ان نتشوق الى الخلود ، والى ما هو خير . اذ ان الحب هو توق الى الفوز بالخير والى ان يبقى الخير ملازماً لنا دوماً . وبالضرورة يجب ان يكون الحب توقاً الى الخلود » .

«ان ديوتيما علمتني هذه التعاليم في اثناء حديث لنا عن الحب . وبالاضافة الى هذا سألتني مرة مستوضحة : ماذا تعتقد يا سقراط في اصل هذا الحب وفي اصل هذا التوق ؟ ألست تلاحظ كيف ان جميع حيوانات الارض والهواء ، عندما تعمل فيها شهوة الانسال للابقاء على النسل تهتاج وتنفعل الى درجة الضعف والوهن ، ان لم أقل الى درجة المرض ، وذلك بسبب حوافز الحب ؟ أولاً ، هنـــالك التوق للامتزاج ، امتزاج الواحد بالآخر ، ثم السعي لتوفـــير الطعام للصغار حتى انك تجد اضعف الخلائق على أتم استعداد لمنازلة اشد الحيوانات بطشاً ، وذلك استجابة لهذا القانون ، لا بل انك تجدها على استعداد ان تضحي بحياتها لاجـــل المحافظة على صغارها ، او ان تموت هي جوعاً ، وان تقاسي العذاب في سبيل توفير الغذاء . قــد يقال ان البشر يتصرفون هذا التصرف في هذه الحالة عن طريق العقل ، ولكن هـــل تستطيع ان تفسر لي لماذا سائر الحيوانات تتأثر وتنفعل ، كما يتأثر البشر وينفعلون تحت تأثير الحب ؟

– اعترف لك اني لست اعرف السبب ·

– قالت : هل تتصور ذاتك ثقة في علم الحب اذا كنت جاهلاً هذه الامور ؟

– قلت لك سابقاً يا ديوتيما اني آتي اليك مدركاً حق الادراك اني في حاجة الى معلم يرشدني . ولذا اتوسل اليك ان توضحي لي اسباب هذه الظواهر ، واسباب الظواهر الاخرى المتعلقة بالحب .

– قالت ديوتيما : اذا كنت الآن تؤمن بأن الحب هو من الطبيعة ذاتها التي تكلمنا عنها ، واتفقنا في الرأي حولها ، فلا تعجب من أثره في الاحياء. لان الطبيعة الفانية تسعى جهدها ألا تموت بل ان تحصل على الخلود . ولكنها لا تستطيع اشباع هذه الرغبة الا بواسطة الانسال الذي من شأنه ان يقيم كائناً جديداً ليحل محل كائن قد فني . فانه بالرغم من قولنا ان الانسان يحيا حياة طويلة ويبقى هو ذاته من طفولته الى شيخوخته فان هذه التي نسميها « ذات » لا تتضمن دوماً الاشياء ذاتها بل ان هذه الاشياء التي كانت تتألف منها سابقاً تتغير وتتبدل وتتجدد ، حتى ان شعر المرء ولحمه وعظامه ، حتى جسده برمته ، يتغير . وهذا التغير لا يتناول الجسد وحده بل ان الروح ذاتها تتغير . فان عادات الانسان ، وقوانين الاخلاق

عنده ، وآراءه ورغباته ومسراته وأحزانه ومخاوفه ، جميع هذه عرضة للتبدل ولا تبقى على شيء واحـــد في الانسان طوال حياته . بعضها يتلاشى ويفنى ، وغيرها يتجدد فيه . واغرب من هذا ان ليس بعض معارفنا يتجدد وأن بعضها يتلاشى ويفنى واننا بالنسبة الى معارفنا على تغير وتبدل مستمرين، بل الغرابة هي في ان كل فكرة وكل معرفة عرضة ان تمر في هذه الدورة . ان هذا الذي نسميه تأملاً وتفكيراً ، او الذي نسميه ذاكرة هـــو في الواقع هرب وتملص من الذاكرة ذاتها . لان النسيان هو فقدان أو فرار المعرفة ، والتأمل – وهو بمثابة استعادة فكرة أو معرفة زايلتنا – محاولة للحفاظ على المعرفة . وهكذا تبدو المعرفة، بالرغم عما يعتريها من تغير وتبدل، انها هي هي . اذن ، بهذه الطريقة كل ما هو فانٍ يبقى ويدوم ، ولكن ليس بمعنى انه هو في حد ذاته دائم خالد كما هي الحال في الامور الإلهية ، ولكن بمعنى التجدد ، بمعنى ان المولود الجديد يحل محل القديم الذي فني . فهل ، بناء على هذه الطريقة التي وصفناها ، نستطيع ان نقول ، يا سقراط ، ان الفاني – اي الجسد وأموراً أخرى – يشترك في الخلود ، وان الخالد انما هو خالد ولكن بطريقة اخرى ؟ لا تعجب اذن اذا وجدت ان من طبيعة الاشياء ان يحب الواحد منا ما نتج او ما ولد عن ذاته ، لان الحب الحقيقي هو هذا التوق والاشتياق الى الخلود .

« بعد سماعي هذا الحديث اخذني العجب، فسألتها : هل هذه الامور حقيقية يا ديوتيما الحكيمة ؟ فاجابتني ، كما يجيب السوفسطائيون (Sophists) الراسخون في علمهم ، قائلة :

– اعلم ، يا سقراط ، انك لو فكرت جيداً في أمر حب المجد والعظمة الذي يحرك عزائم الناس ، فانك لا تتعجب من عجزك وقصورك عن اكتشاف هذه الحقائق التي ابديتها لك . اعتبر عنف الرغبة التي تتأجج في صدور هؤلاء الناس ، والتي تدفعهم ليصبحوا عظماء ومشاهير يعملون على تخليد أمجادهم الى الابد ، لاحظ كيف انهم للوصول الى هدفهم يسعون برغبة وشوق تتضاءل معها رغبتهم وتوقهم للحفاظ على صغارهم . ان جميع الناس لا يستنكفون عن مقارعة الاخطار او عن انفاق ثرواتهم ، او عن تحملهم شتى الآلام ، او عن الموت في سبيل الحصول على المجد . او تظن ان السستيس (Alcestis) كان مستعداً ان يموت عوضاً عن ادمتوس (Admetus) او ان أخيلس (Achilles) كان مستعداً ان يضحي بحياته انتقاماً من باتروكلس (Patroclus) او كودرس (Codrus) في سبيل ملك لذريته ، لو لم يكن هؤلاء جميعهم يؤمنون بان امجادهم ، هذه الامجاد التي نعتز بها نحن الآن ونفخر ، ستخلد وتبقى أبد الدهر ؟ ولو كان الهدف غير هذا فانهم لم يكونوا على استعداد لهذه التضحية . ان مثل هذه الاعمال المجيدة يقوم بها اصحابها في سبيل فضيلة تخلدهم ، وفي سبيل مجد خالد يفوزون به ، وكل

ما كان المرء من ذوي السجايا الممتازة كان اندفاعه الى الفوز بهذا الثواب ، اعني خلود اسمه ، اشد واعنف ، لانهم يحبون الخلود .

«ان الاجساد التي يتأجج فيها حب الخلود هي وحدها الاجساد التي تجد نفسها منجذبة الى المرأة ، سعياً منها الى انجاب الاولاد الذين تتصور انهم سيكونون تجسيداً للسعادة والخلود والذكرى التي لا يمحوها الزمن . اما من كانت نفوسهم حبالى بامور الفكر والروح اكثر مما تكون اجسادهم حبالى بحب الانسال فانهم يولدون ما يشرف الروح ويتناسب مع مقامها . فما هو هذا الذي يتناسب مع مقام الروح ؟ الذكاء وكل قوة من قوى العقل وفضائله، العقل الذي هو نتاج جميع الشعراء وغيرهم من الفنانين الخلّاقين المبدعين . وان اعظم حكمة واشرفها هي تلك الحكمة التي تنظم تدبير العائلات وحكومات الدول ، والتي نسميها باسم آخر : الاعتدال والعدالة . وعليه فكل امرىء يشعر ، وهو بعد حدث ، ان نفسه تجيش (حرفياً : حبلى) بهذه الفضائل والسجايا انما ذلك هبة من الآلهة . وعندما يحين الوقت يشعر بالرغبة في تجسيد هذه الفضائل التي تجيش بها نفسه ، وفي تجواله وسعيه في الارض يبحث عن الجميل الذي بواسطته يجسد هذه الفضائل . لأن لا إنسال ولا ولادة بواسطة صاحب العاهة ، لذا تراه يمتزج بالاجساد الجميلة لا الاجساد القبيحة نزولاً عند القوى الكامنة فيه ، والتي تتوق دوماً الى تخليد الذات . واذا اتصل جسده بالشكل الجميل وبالجمال ذاته، وبالكرم وبرقة الروح فانه

يجد نفسه ممتزجاً به ، وبشرع حالاً بتثقيف محبوبه وبشرح هذه الفضائل وبتوضيح ما يكون عليه من يطمح للحصول على هذه الفضائل وما تفرضه هذه الفضائل على من يتحلى بها. لانه باتصاله بالجميل ، لا بل بمجرد ملامسته ، يولد وينتج ما كانت ذاته تتوق اليه . ثم يشرع بتغذية ما يولده وبتثقيفه ، متعاوناً في ذلك مع محبوبه ، الذي لا تمحي صورته من ذهنه اطلاقاً سواء اكان المحبوب موجوداً ام غائباً . وبهذا يرتبط الاثنان بروابط نبيلة وبصلات محبة قوية لانهما قد اصبحا الآن والدين لذرية اشرف وانبل من ذرية غيرهم من الوالدين وكل من يأخذ بعين الاعتبار اية ذرية خلفها هوميروس الشاعر وهسيود وغيرهما من سائر الشعراء ، تلك الـــذرية التي هي السبب في شهرتهم وفي خلود ذكراهم ، او من يأخذ بعين الاعتبار الذرية النبيلة التي خلفها ليكورغس (Lycurgus) لتكون حارسة لبلاد الاغريق برمتها لا حارسة فقط لولاية لقادونيا (Lacedœmon) ، او من يفكر في مجموعة القوانين الشهيرة التي خلفها صولون كذرية له ، او من يفكر بالمآتي والمفاخر العظيمة التي خلفها لنا اناس من الاغريقيين ومن البرابرة والتي هي نتاج امتزاج هؤلاء بالجمال وبالجميل، اقول من يفكر بهذه الامور لا شك عندي انه يؤثر ان يكون والداً لمثل هذه الذرية من ان يكون والداً لاولاد لهم شكل البشر فقط . وان السماء لتغدق بركاتها ونعمهـــا على هذه الفئة من الوالدين الذين أولدوا مثل هذه الذرية ، في حين انها لا تغدق نعمها على من ذريتهم لها شكل البشر .

« ان تأملاتك يا سقراط، يمكن ان تكون قد مهدت السبيل للنظر في جميع هذه الامور المتعلقة بالحب والتي علمتك اياها . اما الغايات النبيلة والاهداف العليا للحب – اذ ان ما ذكرته لك ليس سوى الذرائع التي توصل المرء اليها ، لا الغايات والاهداف ذاتها – فلست اعلم اذا كان في قدرتك ان تكتشفها لذاتك . ولذلك سأوضح لك الغايات والاهداف ما استطعت الى الايضاح سبيلا . على اني سأسألك ان تركز تفكيرك وانتباهك الكلي لكي تستطيع الغوص الى الاعماق ، اذ ان الامر ليس سهل الادراك . ان الذي يطمح ان يحب حباً حقيقياً ينبغي له منذ حداثته ان يتصل بالاشكال الجميلة، وان ينتقي من هذه الاشكال شكلاً واحداً يكون موضع حبه الذي بواسطته يولد أو يتسل الفضائل الفكرية . عليه اذن ، ان يعتبر ان الجمال ، مهما يكن الشكل الذي يتخذه هذا الجمال، هو أخ للجمال القائم في الشكل الآخر . وان كان غرضه السعي وراء الشكل الجميل فانه من غير المنطق ان يتصور ان الجمال ليس واحداً ، بل هو هو في جميع الاشكال الجميـــلة ، فهو اذن يؤثر واحداً يعطيه اخلص حبه مدركاً ادراكاً شعورياً علوّ المستوى في الفضائل والمؤهلات التي يريدها في محبوبه . وبالاضافة الى هذا عليه ان يعلم ان انبل جمال هو جمال الروح لا الجمال الذي في الشكل . فاذا كان المرء على جمال روحي وفضائل روحية، بالرغم من ذبول الشكل وشحوب المنظر ، فانه يكفيه ان يكون هذا المرء موضع حبه وعنايته ، وان يكون خليقاً بان يكون شقه الآخر الذي بواسطته سينسل

او يولد تلك الصفات والسجايا التي من شأنها تحسين الذرية :
وهذا من شأنه ان يجعلنا نعتبر الجمال والكمال بالنسبة الى اثره ،
وبالنسبة الى ما يمكن ان يحدثه في المجتمع . وهذا من شأنه ايضاً
ان يجعلنا حذرين من ان نؤخذ بالجمال في شكله الخارجي . ان
رجلاً كهذا يقود صغيره الى حب العلم كي ينظر في جمال الحكمة .
ان تأملاته في الجمال المطلق حرية بان تحرره من الاستعباد ،
ذلك الاستعباد الذي يقع فيه المرء من جراء انجذابه نحو هـذا
الجمال او ذاك ، وتجعله يأمن شر الانجراف نحو علم خاص من
العلوم ، ولكن عوضاً عن هذا تقوده تأملاته في الجمال المطلق الى
الغوص في اعماق جمال الفكر ، وجمال الفكر وروعة الاشكال
التي يتخذها الفكر تجعله قادراً ان يجسد افكاره في الفلسفة .
وبعد ان يشتد ساعده ، وبعد ان ترسخ قدمه في العلم فانه اخيراً
يختار علماً واحداً يركز عليه اهتمامه ، وهذا العلم هو علم الجمال
المطلق . اني اطلب اليك ان تحاول قدر استطاعتك ان تفهم
فهماً صحيحاً ما اقوله لك . ان الرجل الذي تمرس في الحب الى
هـــذا المستوى من التمرس ، وبينما هو يتأمل في الاشياء الجميلة
ويتدرج من واحد الى آخر الى ان ينتهي به المطاف الى معرفة
كل ما يتعلق بالحب ، اقول ان مثل هذا الرجل لا بد وان يلقى
يوماً جمالاً عجيباً في طبيعة جماله . وهذا هو، يا سقراط، الهدف
الاخير الذي يتحمل المرء من اجله ما يتحمله ويقاسي ما يقاسيه .
الحب خالد ، لم يولد ، ولا يمكن زواله او ملاشاته ، لا يضاف
اليه ، ولا يتعرّض للاضمحلال . فهو لا يشبه سائر الاشياء من

حيث ان فيه جمالاً وفيه قبحاً ، ولا يكون في زمن ما جميلاً ليكون قبيحاً في زمن آخر . وجماله وقبحه ليسا جمالاً نسبياً ولا قبحاً نسبياً فلا هو جميل هنا ، وقبيح مشوه هناك . وليس جميلاً في عيني انسان وقبيحاً في عيني آخر . ولا يمكن تصور جماله الفائق كما يستطيع الواحد منا ان يتصور جمال وجه او جمال يد او جمال اي عضو آخر من اعضاء الجسم. ولا يخضع لوصف ولا لتحليل علم. وليس للحب كيان او وجود في شيء له كيان ووجود لا على الارض ولا في السماء او في اي مكان آخر. هو واحد ازلي دائم الوجود ، وهو يتفرّد بالنوع والشكل . اما سائر الاشياء فجميلة بقدر ما تشارك الاشياء في جمالها ، مع هذا الفارق وهو انها عرضة للولادة والموت ، اي انها توجد وتموت ، بينما هو لا يولد ولا يتغير . وعندما يصعد الانسان في مراتب الحب ، ويبدأ في التأمل بهذا الجمال الفائق ، عندما يبلغ ذروة السعادة في نيل ما جهد للفوز به . واذا روض الناس انفسهم على هذا النظام من الحب ، او عندما يتدرجون في مراتب الاشياء الجميلة الى ان يصلوا الى الجمال ذاته ، متنقلين من حب صورة ما الى صورة اخرى ، ومن صورة اخرى الى حب كل شيء جميل ، ومن حب الصور الجميلة الى الفضائل الجميلة ، فالى المؤسسات الجميلة ، ومن المؤسسات الجميلة الى العقائد الجميلة، ومن التأمل في جميع العقائد الجميلة الى ان يصلوا أخيراً الى الايمان في الجمال المطلق ذاته ، فيجدون الراحة والسعادة في الوصول اليه والتأمل فيه .

« قالت لي النبية الغريبة، وبشيء من الدهشة : « إنّ حياةً كهذه ، يا عزيزي سقراط ، يقضيها الانسان في التأمل بالجمال ، هي الحياة الكريمة الجديرة ان يحياها الانسان ، واذا قيض لك ان تحياها فانك ستؤثرها على الذهب والحلى الثمينة ، لا بل انك ستؤثرها على الاشخاص الذين انت وغيرك تنظرون الى جمالهم الذي يبهر عيونكم . ولكي لا يفوتكم مرأى جمالهم ولذة العيش معهم تؤثرون الا تأكلوا او تشربوا بـــل ان تبقوا في حضرتهم شاخصين الى جمالهم . اذن ما هو كنه الجمال الاسنى ذاته ، وكيف لنا ان نتصور ذلك الجمال البسيط الصافي الذي لا يخالطه لحم ودم وألوان وصور أخرى تافهة زائلة كتلك التي نقرنها نحن الذين كتب الموت علينا بالجمال الذي نعرفه ونحس به ؟ ما هو كنه هذا الجمال الالهي الاسنى الاصل والمتفرّد بالنوع والشكل، وأي حياة هي تلك التي يحياها الانسان الذي يساكن هذا الجمال ويشاهده ، هذا الجمال الذي يجدر بنا ان نفوز به ؟ ألا تشاركني الرأي ان من مثل هذا الرجل الذي يحيا مع الجمال ويساكن الجمال هو وحده الذي يجب ان ينسل النسل لا ذلك الرجل الذي هو مجرد صورة للفضيلة وظل من ظلالها ؟ ذلك لانه لا يماس الظلال بل انه وثيق الصلة بالحقيقة ذاتها ، بالفضيلة ذاتها لا بظلالها ، ولانه يُولد الفضيلة ويغذيها فانه يصبح محبباً عند الآلهة ، واذا قيض لكائن بشري ان يفوز بهذا الامتياز العظيم فانه يصبح من الخالدين » .

« هذا هو ، يا فيدروس ، ويا اصحابي ، ما قالته لي ديوتيما . ولانني اقتنعت بصحة كلامها رحت احاول اقناع غيري انه ليس بيسير على المـــرء ان يجد معيناً افضل من الحب في سعيه للفوز بالخلود لطبائعنا البشرية . ولذا فانني احث كل واحد منكم على ان يعظّم الحب وان يكرمه . فانني انا اجله وارفع من مقامه ، وأنا ، نفسي ، اتمرس بالحب وادعو الآخرين ان يتمرسوا به . هذا واني امتدح ، بكل ما اوتيت من بيان ، الحبّ ، واقدر سجاياه وفضائله . وليكن هذا الحديث ، اذا شئتم يا فيدروس ، بمثابة قصيدة مديح للحب ، اوسمّه بما تشاء » .

ولكن ما شأن هذا الرجل ذاته (اي سقراط) الذي يثـير مثل هذه القضايا ويتحدانا للتفكير بها ؟ لست اعلم ان احداً استطاع ان يرسم لنا صورة أخاذة افضل من الصورة التي رسمها السيبيادس (Alcibiades) عندما اخذ يمتدح سقراط عنـــد انتهاء المأدبة . عندما انتهى سقراط من تقريظه الحب جاءت جماعة من السكارى غـــير المدعوين الى المأدبة وكان بينهم السيبيادس الذي دخل بدون تكلف ، وبدون ان يتلقى دعوة لذلك ، وجلس ليقضي بقية السهرة . فطلب اليه الحضور باصرار ان يمتدح سقراط فأخذ يقول :

« سأبدأ مديحي سقراط بتشبيهه بتمثال . وقد يتبادر الى

ذهن سقراط اني اشبهه بتمثال على سبيل الهزء او المزاح . ولكني أؤكد لكم ان هذا التشبيه ضروري لايضاح الحقيقة . فأقول ان سقراط يشبه فعلاً تمثالاً خشبياً ، نصفه حصان ونصفه الآخر عنزة ممسكاً بقيثارة او بناي ، يضعه النحاتون عند مداخـــل حوانيتهم . ولكن اذا شققت هذه التماثيل الى نصفين وجدت في داخلها صور الآلهة . واني أؤكد لكم ان سقراط يشبه تمثال مرسياس (Marsyas) الذي يدعو الى الاستغراب والتسآل . وانك يا سقراط لا تجرؤ على ان تنكر ان شكل جسدك وملامح وجهك تشبه هذه التماثيل المضحكة . انك تشبهها من جميع النواحي ووجـــه الشبه بينك وبينها شديد . اسمع ، ألست بطبيعتك من المستهزئين الحادّي المزاج ؟ ان كنت لتنكر هذا القول فاني على استعداد لاحضار شهود يشهدون بذلك . ألست ممن ينفخ في الناي كما ينفخ تمثال مرسياس بالناي ، لا بل تفوقه مهارة وحذقاً ؟ لان مرسياس، ومن هو الآن على شاكلة مرسياس يعزف الموسيقى التي كان يعلمها للناس ، (لان اغاني اولمبوس هي من موسيقى مرسياس ، تلك الاغـــاني التي علمها للناس) ليسحر الناس وليخلب لبهم بقوة فمه ؟ لان كل موسيقي ، سواء أكان موهوباً ام لم يكن ، يستطيع بواسطة موسيقاه ان يستحوذ على عقـــول السامعين ، والموسيقى بطبيعة مصدرها الإلهي ، تستطيع ان تعلن الآلهة للناس الذين يريدون ان يعرفوا الآلهة والذين هم بحاجة الى معرفة اسرارها . والفرق الوحيد

بينك وبين مرسياس هو انك تؤثر في عقول الناس وأرواحهم بدون اللجوء الى آلات موسيقية ، انما تؤثر عليهم بكلامك . لاننا عندما نسمع خطبة يلقيها بركليس او عندما نسمع خطيباً بليغاً آخر فاننا لا نبالي بما يقولانه . ولكن عندما يسمع الناس كلامك ، او عندما يسمعون ناقل كلامك ، وبالرغم من انك لست خطيباً موهوباً بل خطيباً عادياً وعلى شيء من الفظاظة ، فاننا جميعاً نساء واولاداً نتأثر غاية التأثر ، ونشعر ان كلامك يسحرنا ويأخذ بمجامع قلوبنا ويدخل قلوبنا بدون استئذان .

« ولو لم اكن اعرف اني ثمل جداً لكنت اقسم لكم ايماناً مغلظة مؤكداً لكم فعل السحر الذي كان يتملكني ، ولا يزال ، عندما اسمع كلام هذا الرجل (اي سقراط) . ذلك انني عـــندما اصغي الى كلماته اشعر وكأن قلبي يرتقص داخلي كما يرتقص قلب من يحتفل بعيد الاسرار الذي يحتفل به في اعياد الإلهة سيبل (Cybele) [١] . اني اذرف الدمع عندما يتكلم ، ولقد شهدت غيري ايضاً يبكي عند سماعه كلامه . لقد سمعت بركليس يخطب ، وسمعت غـــيره من الخطباء البلغاء وكنت اعجب بخطبهم ، ولكني لم اكن أتأثر شعورياً كما أتأثر من كلام سقراط ، ولم اشعر ان روحي كانت تضطرب في اثناء سماعي تلك الخطب ،

---

١ – في الديانة الفريجيّة (اواسط آسيا الصغرى) كانت سيبل الإلهة الامّ . (المترجم)

ولا كانت تشعر بشيء من التعنيف والتوبيخ الذاتي ، ولا كنت اشعر بالمذلة ولا بالانكسار الروحي . لكن هذا الرجل (اي سقراط) شبيه مرسياس ، كان يشعرني ، عندما كنت أصغي اليه ، هذا الشعور الذي ذكرته لكم آنفاً ، حتى اني كنت اشعر بتفاهة الحياة التي كنت احياها . ولا تحاول ان تنكر هذا يا سقراط ، لانني لو كنت لأصغي اليك الآن فاني لن استطيع ان اطيق التجلد بل كنت اشعر بوقع اثرك فيّ تماماً كما وصفت لكم . لان سقراط ، يا اصدقائي ، يرغمني على الاعتراف بالرغم من اني احتاج الى كثير من الامور ، بأني لا ازال اهمل الامور الضرورية واتناول الامور غير الضرورية ، واهتم بها تماماً كما يفعل اهل اثينا . ولذا تراني أصم اذني كما اصمها عند سماعي صراخاً مزعجاً وأعدو هرباً كي لا اجلس عند قدمي هذا الرجل واقضي شبابي ضياعاً مصغياً الى كلامه . ان هذا الرجل يرغمني على ان اشعر بالمذلة والحقارة في نفسي بيد اني اعتقد ان احداً من الناس لا يؤمن اني على شيء من هذه المذلة والحقارة . انه الرجل الوحيد الذي يثير في داخلي تبكيت الضمير والخشية من الاثم . لانني اشعر ، وانا في حضرته ، اني لا استطيع دحض أقواله ، ولا ان اعصى له امراً او وصية . ولكنني عندما انصرف عنه امتلىء فخراً وزهواً مما يغدقه عليّ الجمهور من تكريم ومديح . لهذا أهرب منه وأختبىء منه ، ولكن عندما يقع بصري عليه اشعر بحقارتي ومهانتي لاني لم اكن قد فعلت ما اعترفت امامه بأني فاعله . وكم من مرة تمنيت ان يختفي هذا الرجل من على وجـــه

الارض فلا يقع بصري عليه ، عالماً حق العلم انه متى وقع مثل هذا الشيء له فان حزني عليه يكون اشد ايلاماً مما أقاسيه الآن. فلست اعلم الى اين اهرب منه ولست ادري ما استطيع ان افعله . ولست وحدي الذي يقاسي ما يقاسيه من هذا التمثال النافخ في نايه (اي سقراط) بل ان هنالك آخرين غيري يشعرون هذا الشعور .

« ثم لاحظوا مبلغ الشبه الشديد بينه وبين تمثال بيده قيثارة او مزمار ، واريدكم ان تلاحظوا قوة تأثيره . ليس احد بينكم يدرك ادراكاً صحيحاً طبيعة سقراط الحقيقية . ولكن لاني بدأت اتعرف الى حقيقته فها اني أصوره لكم تصويراً واضحاً . لا شك انكم لحظتم كيف ان سقراط يجتذب اليه الجميل ، وكيف انه يدّعي الجهل . ان هذه المظاهر الخارجية في حد ذاتها تخدعنا . هذا هو مظهر سقراط الخارجي الذي يشبه تمثالاً منحوتاً يخفي عن اعيننا حقيقته . ولكن ، كما قلت ، اذا شققتم التمثال الى نصفين لوجدتم الاعتدال العجيب ، والحكمة البالغة لانه في الواقع لا يهتم بالجمال لانه مجرد جمال ، بل انه يكره ، اكثر مما يستطيع انسان ان يتصوره ، كل الاشكال والمظاهر الخارجية سواء أكان ذلك الجمال ام الثراء ام المجد ام اي شيء آخر يحسد المرء عليه . ان هذه الامور ، ومن يبالي بها ويهتم بالحصول عليها ، في نظره أمور تافهة . ويروح بين الناس ويغدو جاعلاً من الامور التي يحبونها ، ويبالغون في الحرص

عليها ، موضع هزء وسخرية . ولكنني لست اعلم اذا كان احدكم قد لحظ الصورة الإلهية في داخله عندما ننظر في داخله وعندما يكون هـــادئاً رصيناً . انني قد رأيت هذه الصورة الإلهية في داخله . انها صورة إلهية بالغة الجمال ، رائعة المنظر ، حتى ان الواحـــد منا يجد نفسه مرغماً على الانصياع الى قوله والطاعة الى ما يأمر به كأنه صوت الله ذاته .

« كنت في يوم من الايام رفيق سقراط في السلاح وكنا نعيش في معسكر واحد بالقرب من بوتيديا (Potidaea) . وهناك لم يغلبني سقراط انا وحدي، بل انه غلبنا جميعاً في تحمل المشقات والصعاب . وعندما كان يقل الزاد – كما يحدث كثيراً زمن المعارك – لم يكن بيننا احد يستطيع ان يجالد الجوع بصبر كما كان يجالده سقراط . وعندمـــا يكون عندنا وفر من الطعام والشراب فانه كان الوحيد الذي يستمتع به فعلاً . لم يكن يرغب في الشراب كثيراً ولكنه كان اذا أرغم على الشراب بزّنا جميعاً حتى في الامور التي لم يعتد عليها ، والغريب المدهش هو ان احداً من الناس لم يرَ سقراط ، لا في زمن الجندية ولا بعدها ، ثملاً فاقد الوعي بسبب الخمرة . وفي ذروة الشتاء (والشتاء هناك كان قاسياً) كان يتحمل المشاق والصعاب بصبر عجيب . ومن جملة الامور التي كانت تثير دهشتنا ، عندما كان الصقيع على اشده ، هو ان سقراط كان يخرج ويمشي على الجليد حافي القدم ملتفاً بعباءته التي كان يلبسها في الايام العادية، بينما كان الآخرون لا يجرؤون على الخروج خارج خيامهم ، واذا خرجوا فانهم كانوا

يلتفون بالثياب الدافئة ويضعون جزّات من الصوف حـــول اقدامهم ويلفون ساق الرجل بجلود عليها الصوف او الشعر . اما سقراط فانه كان يخرج في مثل تلك الايام الباردة لابساً ما اعتاد لبسه في الايام العادية ، ويمشي حافي القدمين على الجليد ، واكثر من هذا انه كان يمشي دون اجهاد نفسه او تكليفها بما كان يتكلفه أولئك الذين كانوا يستعدون للخروج الى الخارج وهم لابسون احسن لباس لمثل ذلك الطقس . كان الجنود يعتقدون انه كان يفعل ذلك عمداً وهزءاً بطاقتهم على احتمال المصاعب . فيحسن بنا اذن ان نذكر فضل هذا الرجل الشجاع فيما تحمله وعاناه في اثناء تلك الحملة . وذات صباح باكر شوهد سقراط واقفاً في مكان ما تائه الفكر غارقاً في التأمل . ويبدو انه لم يتوصل الى حل ما كان يفكر فيه فظل واقفاً في مكانه يسائل نفسه ويناقشها . وعند الظهر شاهده الجنود على هذه الحالة فقال احدهم للآخر : « ان سقراط واقف هنا منذ الصباح الباكر ولم يبرح مكانه » . واخيراً خرج بعض الجنود الايونيين بعد تناول العشاء الى ذلك المكان ، ومعهم اغطيتهم ، لان الوقت كان صيفاً ، يريدون ان يناموا في الهواء الطلق المنعش . فشاهدوا سقراط واقفاً هنـــاك طوال الليل يفكر ويتأمل الى ان لاح الصباح ، وعندما طلعت الشمس ادار وجهـــه ناحية الشرق وحياها بصلاة صامتة ثم انصرف .

« وليس لي ان اتغاضى عن ذكر سقراط كجندي في وسط المعركة ، وعن ذكر شجاعته واقدامه . بعد تلك المعركة امر

القواد بمنحي وسام الشجاعة ، لكن الحقيقة هي ان سقراط كان الجندي الذي انقذ حياتي ووقف الى جانبي عندما وقعت جريحاً، يدافع عني وعن سلاحي كي لا يقع في ايدي الاعداء . واذكر اني توسلت الى القواد ان يمنحوا سقراط وسام الشجاعة فانه يستحقه اكثر مما استحقه انا . وانت لا تستطيع يا سقراط ان تنكر صحة هذه الحادثة ، وهي ان القواد ارادوا بتكريمي ان يرضوا جماعة الضباط من الصف الذي كنت انتمي اليه ، وليس سوى ذلك . اما انت فقد كنت اكثر حماسة من القواد انفسهم في رغبتك ان يمنح الوسام لي وليس لك .

« اما رؤية سقراط عندما خسر جنودنا المعركة وانهزموا امام العدو عند ديليوم فكان فعلاً امراً عجيباً . في تلك الحادثة كنت انا في كتيبة الخيالة وكان هو احد المشاة متقلداً كامل اسلحته . وعندما تضعضع الجيش واخذ بالتراجع كان سقراط مع لاشيس، فأخذا بالتراجع معاً . وعندما لقيتهما صدفة طلبت اليهما ان يشددا من عزيمتهما والا يفقدا الامل لاني سأظل الى جانبهما ولن اتخلى عنهما . ولانني كنت ممتطياً جواداً فاني لم اكن اخشى على نفسي بأساً فرحت اشاهد سقراط وتصرفه وهو في حالة من حالات الاخطار والطوارىء ، وكانت فرصة لمراقبته افضل من تلك التي سنحت لي وانا اراقبه في معركة بوتيديا . انه كان يفوق صاحبه لاشيس شجاعة ورباطة جأش . وانت يا اريستوفانس ، عندما كنت تلعب دوراً على المرسح تمثل فيه شخص سقراط لم

تكن بعيداً عن حقيقته كما لمستها في هذه الحادثة . فانه كان يمشي واثقاً من نفسه ، يلقي بنظراته يمنــــة ويسرة ، على اصدقائه واعدائه وعلى وجهه سكينة وهدوء ، مما لم يدع شكاً عند احد منا انه اذا جرؤ احد من الناس على مهاجمته فانه سيلقى مقاومة عنيفة فيها استماتة . وهكذا سلم الاثنان ونجوا بنفسيهما. لان من ينهزم في المعركة ويتراجع مذعوراً يعرض نفسه للهلاك على ايدي الجنود المتعقبين اعداءهم ، ولكن هؤلاء الجنود يحجمون عن مهاجمة من كان مثل سقراط متراجعاً منهزماً ولكن محتفظاً برباطة جأشه وهدوء اعصابه .

« غير ان هنالك صفات وسجايا اخرى يتصف بها سقراط حرية بان تكون موضع مديح وتقريظ ، ولكنها قد تكون سجايا يتصف بها غيره من الناس، وصفات مشتركة بين الرجال. ولكن الصفة البارزة في سقراط ، والتي لا نجد لها مثيلاً عند سائر الناس ، الاحياء منهم والاموات ، هي انه يختلف عن الناس اختلافاً كلياً ولا يُفَاضَل بينه وبين الآخرين لانه فوق المفاضلة . وقد يزعم احدهم ان براسيداس وسواه كانوا على شاكلة أخيلس (Achilles) ، وان بركليس يستحق ان يقابل بنسطور وانتينور ، وان سواهما من افاضل الناس ، ومن عصور مختلفة ، يمكن ان يُفَاضَلَ بينهم. ولكن انساناً فريداً من نوعه كسقراط، واحاديث فريدة كأحاديثه مع الناس لا يمكن لاحد من الناس في عصرنا هذا ، او في العصور الغابرة ان يجد له أو لها مثيلاً ، لانها

غير عادية ، اللهم الا اذا قال احدهم : نعم يمكن تشبيهه بمن شبهته بهم من تماثيل اشباه الآلهة الممسكة بايديها آلات العزف .
ولقد فاتني ان انبه افكاركم الى شدة الشبه بين احاديثه وبين ما تمثله تلك التماثيل . اذ اننا عندما نصغي الى سقراط تبدو لنا احاديثه على شيء من الهزل والسخرية . فان العبارات والجمل التي يستعملها سقراط تغلفه بغلاف يشبه الجلود الخشنة التي يلتف بها تمثال ماجنٍ فظ خليع . فانه يتكلم دوماً عن حمير للبيع في الاسواق ، وعن دقاقي النحاس ، وعن الذين يفصلون الجلود ، وعن صانعي الالبسة من جلود الحيوانات ، حتى اذا صدف ان سمعه احد الاغبياء فانه لا يتمالك عن الضحك. ولكن اذا حاول المرء ان يقرأ بين السطور ، وان ينفذ الى اعماق المعنى ، فانه سيجد ان لاحاديثه واقواله معنى عميقاً ، وان فيها حجة قوية لا عهد لعقول الناس بها من قبل، فيستشعر انها تصدر عن مصدر إلهي ، وانها تبرز للعقول صوراً من الفضائل لا عد لها ، وانها ترمي الى اعلى الغايات النبيلة ، او الى انبل ما يسعى المرء للفوز به من الجمال المطلق والخير المطلق ، كي يبلغ اخيراً نهاية طموحه .

« لهذه الامور، ايها الاصدقاء ، امتدح سقراط واثني على فضائله » .

٥ الحيـاة

اننا اذا اردنا معرفة الاسباب الحقيقية لتلـــك الحيوية الديناميكية التي كان يتصف بها اهل اثينا في القرن الخامس قبل الميلاد ، فعلينا ان نجدها في نجاحهم الباهر في حقول المعرفـــة المختلفة ، وفي تجاربهم المستمرة . فان الخبرة ذاتها التي اكتسبها مقتلع الحجارة ومهذبها ، والخبرة التي تكدست عنـد العمال الآخرين الذين كانوا يعملون في بناء الهياكل والابنية لم تكن لتقل عن القيمة التثقيفية للأعياد والمهرجانات التي كانت تقيمها الدولة أو المقاطعات الصغـــيرة . لان ستين يوماً من ايام السنة كانت تُكرّس للاحتفال بهـــذه المناسبات ، وكانت جوقات الغناء تتطلب خدمات ألفي شخص من الصبيان والرجال ، فلم يكن أهل اثينا مجرد جماعة من المتفرجين في المسارح التمثيلية ، بل انهم كانوا يشتركون اشتراكاً فعلياً في الاستمتاع بأدب حي ، وفي فترة كان فيها الفنانون والكتاب من جميع انحاء بـــلاد الاغريق يجتمعون في اثينا . ولكن اهم من هذا كله كان اشتراك المواطنين الاثينيين في تصريف شؤون حكومة امبراطوريتهم الصغيرة اشتراكاً تاماً .

للاثينيين ان يدّعوا انهم يحسنون نقــــد الفن والادب والسياسة ، ولكن بما انهم كانوا الى جانب هذا فئة من الناس الخلّاقين المبدعين فلم يكن باستطاعة احد من الناس ان يتكهن عن قيام جماعة من الناس تبدي لهم العداء والمقاومة . فانه بالرغم من ان الجامعة البيلوبونيسية الى الجنوب ، وشبيهتها ثيبس الى الشمال كانتا تحكمان حكماً اوليغاركياً (Oligarchical)[1] فان هاتين الدولتين كانتا تمثلان الحياة الاغريقية التقليدية القديمة خير تمثيل ، فكان من الطبيعي ان تنظرا الى اثينا على انها حكومه طاغية مستبدة . اما في داخل الامبراطورية الاثينية ذاتها فان مثل هذه النظرة الى اثينا كانت في بادىء الامر تقتصر على جماعة الارستقراطيين المحليين لان اثينا كانت تأخــــذ دوماً جانب الاحزاب الديمقراطية في الولايات الخاضعة لامبراطوريتها .

ان الضريبة التي فرضتها اثينا على ملحقاتها في الامبراطورية كانت تُمين الجماهير على الاشتراك في امور الحكومة والاحتفال بالاعياد وببناء المباني والهياكل ، ولكن بما ان الاثينيين برهنوا في القرن التالي على انهم يستطيعون ان يقوموا بهذه الاعباء المالية وحدهم ، لا بل ان يزيدوا من قيمة هذه الضريبة لكي يوفروا دفع النفقات لهــذه الشؤون العامة بعد ان تقلص ظـــل الامبراطورية ، فقـــد وضح لهم ان هذه الضريبة التي كانوا يفرضونها على الاتباع لم تكن ضريبة حيوية لا يستغنى عنها . إلا

---

١ – اي حكم جماعة التجار والاغنياء وأهل النفوذ .   (المترجم)

ان قولنا هذا لا يعني ان هذه الضريبة لم توفر للناس كجماعات ان يشتركوا في هذه الاحتفالات ، بل انها كانت عاملاً في ترسيخ هذه التقاليد وجعلها عرفاً متّبعاً . نعم ان الرق اسفر عن قيام فئة تنعم بالتفرغ من الاعمال . غير ان الرق في بلاد الاغريق كان على مستوى بسيط محدود وليس كما كان في الامبراطورية الرومانية وفي العهود التالية . ولكن الاستنتاج المحتم هو ان نجاح الاثينيين وتقدمهم كان يعزى في الدرجة الاولى الى الرؤى البعيدة التي كان يراها الناس ، والى الكدّ والجهد في العمل الذي كانوا يتولون القيام به ، فانهم ، على مر الاجيال ، كانوا يجهدون باستمرار في سبيل توفير ديمقراطية اكثر شعبية ، وقد تم لهم تحقيق هذه الديمقراطية في الوقت الذي انتصرت فيه اثينا في حروبها وفي انشائها امبراطورية .

اما حصة الاسد فقد كانت من نصيب رجال اثينا ، فقد كان العصر عصر الرجال وعلى مستوى اوسع بكثير مما كان عليه في القرن السابق وفي القرن الذي تلاه . اما النساء المحصنات فكن يلازمن بيوتهن ولم يكن يخرجن الى الخارج الا في المآتم والاعراس والاعياد . اما في مجتمع الرجل فقد كانت النساء المثقفات تظهر بصحبة الرجال . وقد كن يعرفن بالصواحب او الرفيقات وكن من خارج اثينا كما كانت مثلاً صاحبة بركليس ، اسباسيا الشهيرة التي جـــاءت من ميلتوس في آسيا الصغرى . وبفضل القانون الذي سنه بركليس نفسه والذي ينص على ان

المواطن الاثيني الذي يحق له ان يقترع يجب ان يكون ابواه مواطنين اثينيين ، فان ابنهما حرم حق التصويت الى ان منحه المجلس حق التصويت وذلك بقرار خاص .

كان أهل اثينا يعتقدون ان للمواطن الاثيني وحده حقوقاً سياسية وحقوق التملك ، لان واجب الدفاع عن الدولة يقع في الدرجة الاولى على كاهله . ولان حق تملك الارض أصبح ، بناءً على هـــذا الحق ، علامة فارقة للمواطنية الاثينية ، وبصورة تلقائية ، فان الزراعة والفلاحة اصبحتا من الاعمال الشريفة التي تحتل المكانة الاولى بين الاعمال والحرف . وقد كانت المحافظة الغريزية التي يتسم بها صغار الفلاحين والتي لم تكن تختلف بشيء عن المحافظة التي كان يتسم بها الاقطاعيون النبلاء ، عاملاً فعالاً في استقرار الدولة ، الامر الذي لم تنعم به بلاد الاغريق آنذاك.

كانت الزراعة أساس الاقتصاد في اثينا ، كما كانت في سائر الدول القديمة . فقـــد كانت مزارع اتيكا تصدر الخمر والزيت والحنطـــة والشعير والصوف ولحم الخنزير والجبنة والخضار الضرورية للحياة . غير ان مقادير كبيرة من الحنطة كانت تستورد من المقاطعات الواقعة على البحر الاسود . وكان السمك المجفف والخشب من المواد الاساسية الهامة التي كانت تستوردها البلاد . وقد كانت تفرض ضريبة على المستورد كما كانت تفرض ضريبة على المصدر من السلع مثل الدروع والجوهرات التي كانت

تنتجها الحوانيت الصغيرة ، والخزف المصنوع من طـــين اثينا الشهير . وقد كان الرخام المستخرج من جبـل بنتليكوس (Pentelicus) من الموارد الطبيعية الهامة ، وكذلك كانت ايضاً الفضة التي كانت تعدن في لوريوم عند الطرف الاقصى لشبه جزيرة اتيكا ، والذهب والفضة المستخرجان من معادن جبل بنغايوس (Pangaeus) في شمالي بلاد الاغريق التي كانت تحت رقابة اثينا. ولم تكن هنالك ضريبة مباشرة الى ان وقعت الحرب البيلوبونيسية التي في اثنائها فرضت ضريبة على الاملاك . غير ان الاغنياء كانت تفرض عليهم ضرائب خاصة كتدريب جوقة موسيقية او خلافها من الخدمات العامة . وقد كان اقتصاد البلاد ، نسبياً ، على شيء من البساطة ، وعليه يمكننا ان نتصور مبـــلغ المنافع التي كانت تجنيها اثينا من محافظتها على الامبراطورية ، وعلى الضرائب التي كانت تفرضها على الولايات التابعة لها .

كان معظم المواطنين الاثينيين يعنون بالزراعة والصناعة وبتصريف شؤون الحكم ، فكانت هذه الامور تستغرق معظم وقتهم ، وهكذا اصبحت التجارة في اكثرها من نصيب الغرباء المقيمين اقامة دائمة في المدينة . كانت هذه الفئة تعرف بجماعة الغرباء المقيمين . وبالرغم من انهم لم يكونوا يتمتعون بالحقوق السياسية ، ولا بحق التملك، وبالرغم من انه كانت تفرض عليهم الخدمة العسكرية وضرائب مختلفة ، فانهم كانوا يشعرون بشيء

من الغبطة لقيامهم بمثل هذه الخدمات . وبما ان كل ولاية ، او مقاطعة ، كانت تشعر بالاعتزاز والفخر في ان تصك نقوداً خاصة بها وان تضع نظامها الخاص بالموازين والمقاييس فان التجارة كانت من جراء هذا تعاني ما تعانيه وتصطدم بمختلف العقبات . ولكن كان من الطبيعي ان تكون الحرب والقرصنة اكبر عائق في وجه التجارة . وقد استطاع الاسطول الاثيني في فترة من الزمن ان يطهر البحار من القراصنة ، وكان هذا الامر في صالح البلاد ، لان جبال بلاد الاغريق وطرقها الوعرة كانت تقف عائقاً في سبل التجارة والمواصلات براً .

اما العبيد الارقاء فانهم كانوا اسعد حالاً في بلاد اليونان مما كان عليه اترابهم في سائر الارض . انما يجب ان نستثني عبيد الدولة الذين كانوا يعملون كالحيوانات في المناجم والمقالع الحجرية . كان للرجل الاثيني العادي ان يملك ستة او سبعة عبيد يعملون له في حقله او حانوته . كما انه كان للعبد ان يشتغل بالاجرة في وقت فراغه من عمل سيده فيكسب من المال ما يدفعه لسيده لقاء اعتاقه . واذا افتدى العبد ذاته وتحرر اصبح من جماعة الغرباء المقيمين . ولدينا نقش كتابي عن تشييد هيكل اركتيوم وفيه وصف جلي واضح يبيّن لنا وجه المقابلة ، من حيث المراتب الاجتماعية بين مختلف الطبقات . ذلك اننا نجد ذكراً لعشرين مواطناً وخمسة وثلاثين عبداً معتقاً وستة عشر عبداً ، وكل واحد منهم ، ويدخل في ذلك المهندس المعماري

نفسه ، يتقاضى أجراً يومياً قدره درهم واحد ، والدرهم ، نسبة الى قوته الشرائية آنذاك ، يمثل ضعفي نفقات المعيشة لرجل عازب .

من الامور العسيرة معرفة عدد السكان في الدول القديمة ، لا سيما عدد سكان بلاد الاغريق التي ، بخلاف الامبراطورية الرومانية ، لم تكن تجري احصاء للنفوس . ولكن على وجه الحدس نظن ان عدد السكان في عهد بركليس كان ١٥٠،٠٠٠ مواطن و ٣٥،٠٠٠ عبد معتق و ٨٠ الف عبد ، بما في ذلك الرجال والنساء والاولاد في مختلف الطبقات التي ذكرناها . ويرجح ان يكون الشباب ، بين السكان ، هم الغالبية ، مع العلم ان الرجل الذي كان يقيض له ان ينجو من خطر المرض والحرب وان يبلغ الستين من عمره كان يعيش حياة أطول من العمر التقليدي الذي يذكره العهد القديم : سبعين سنة .

اننا اذا استثنينا عدداً قليلاً من العائلات الغنية نجد انه لم يكن في اثينا القديمة هذا التفاوت الظاهر بين الغنى الفاحش والفقر المدقع الذي نعهده في يومنا هذا . لم تكن الحياة حياة بسيطة بدائية وحسب ، وانما كانت حياة خالية من تعقيدات الحياة الحاضرة . فقد كان العرف يقضي ان يكون حجم البيت صغيراً ، لان المدن الاغريقية ذاتها كانت في بادىء الامر مدناً صغيرة ، والبيوت فيها مزدحمة متلاصقة ضمن اسوار تحيط بها

وذلك لسهولة رد العدو عنها . حتى انه بعد ان كبرت المدن واتسعت ، وبعد ان اصبحت تلة الاكروبوليس ملجأ لا يكفي للسكان للجوء اليه زمن الخطر بل اصبحت مزاراً فيه هياكل للآلهة ، وبالرغم من ان أسوار المدن اتسعت فان حجم البيت الاغريقي ، حسب العرف ، ظل صغيراً . ولم يكن المواطن الاغريقي يجرؤ أن يظهر بمظهر الغنى والترف خشية الحسد ، تلك الصفة التي كان الاغريقي يتميز بها . فقد كان كل اغريقي ينظر الى جاره نظرة ريبة وحذر . وفضلاً عن هذا كله فان مناخ البلاد الدافىء يدعو السكان لقضاء اكثر اوقاتهم خارج البيوت ، وكانت روح الرجولة في ذلك العهد تدفع الرجل الى ان ينظر الى البيت على انه مجرد مأوى او مسكن يبيت فيه لا باعتباره حرماً للعائلة .

كان الاثينيون يشيّدون بيوتهم المبنية من اللبن على جوانب أسواقهم الضيقة المعوجة فكان منظر تلك الاسواق ، لدى المارة ، منظراً كئيباً . وكان صحن الدار الطلق مركزاً تقضي العائلة فيه اكثر اوقاتها ، واذا كان للبيت طبقة ثانية فانها كانت تخصص لغرف النوم . وكانت الكرامي والمناضد وسائر أثاث البيت تتمشى في اشكالها واحجامها مع بساطة العيش ، لان الاغريقي لم يبال بتطوير تلك الحاجات الضرورية والاهتمام بجمالها ، اذ كان يهدف اولاً الى الناحية النفعية فيها ، ثم الى جمال أشكالها . لذا لم يرَ موجباً لتطويرها . وهذا يصدق ايضاً

على الزي في اللباس فقد كان ثوب الرجل الاغريقي ، على مدى أجيال عديدة ، ثوباً قصيراً عريضاً مصنوعاً من الصوف .

كان شراء الحاجات من الأسواق عملاً يقوم به الرجال الا اذا كان يوم الرجل يوماً حافلاً بالاعمال والمهمات او يوماً يقوم فيه بواجبات حكومية ، ففي هذه الحالة كانت النساء تخرج الى الاسواق . كان طعام الافطار لا يتعدى كأساً من الخمر يتناوله الرجل ثم يتوجه الى سوق او سوقين لشراء حاجاته . وقد كان للسمك والزيت والآنية المعدنية والثياب وغيرها من الحاجات سوق خاصة او جزء من السوق . وهذا التقليد كان ولا يزال معمولاً به في بلدان الشرق الادنى . واذا اراد الاثيني معرفة الوقت من النهار فانه كان ينظر الى ساعات الماء او الساعات الزوالية المقامة هنا وهناك . اما مكان القيل والقال فكان دكان الحلاق . (تقول نكتة ان ملكاً من ملوك مقدونيا عندما سئل في دكان الحلاق : كيف تريد ان نقص لك شعرك؟ أجاب : بصمت وبدون ثرثرة !) اما طعام الغداء فقد كان أمراً عائلياً ، وبعد الغداء كان الرجل الاثيني يتوجه الى الملعب الرياضي ليمارس الالعاب الرياضية او ليتحدث الى الناس لانه لم يكن كالرجل الروماني الذي يتناول وجبة ثقيلة من الطعام ثم ينام قيلولة الظهيرة . وكان الناس يقضون سهراتهم بهدوء في بيوتهم الا اذا كان هنالك ضيوف مدعوون الى طعام العشاء .

وكان الضيوف من الرجال لا من النساء . كانوا يجلسون على مقاعد واطئة ويتناولون الطعام الموضوع امامهم على مناضد . ولذا يطلق الاغريق على أي لون من ألوان الطعام لفظة «منضدة» فيقولون « المنضدة » الاولى يريدون اللون الاول من الطعام ، و « المنضدة » الثانية . اما ما يتبقى من الطعام في الصحون فكانوا يرمون به الى ارض الغرفة فتلتهمه الكلاب التي كانت تربض تحت المقاعد تترقب هذه البقايا . وعند انقضاء وقت الاكل كانوا ينتخبون احد الحضور ليترأس المأدبة وكانوا يسمونه « ملك المأدبة » . وكان اول عمل يقوم به تقرير قدر الماء الذي يجب ان يضاف الى الشراب ، ثم اختيار موضوع الحديث يتجاذبون أطرافه في تلك السهرة .

ان المرء ليعجز عن تصوُّر حياة مدنية اكثر بساطة من حياة الاغريقي ، ولكن الاغريقي معروف بقدرته على الدمج بين الحياة البسيطة والتفكير الرفيع . كان الاغريقي يقضي شطراً كبيراً من وقته في أمور الحكم ، الشيء الذي كان عاملاً فعالاً في تربيته ونشأته . فانه كان يتوجه الى محلة تدعى فنيكس تقوم على هضبة الى الغرب من تلة الاكروبوليس ليحضر اجتماع المجلس العام ، والى محلة آريوس باغوس (حيث خطب القديس الرسول بولس في اهل اثينا بعد مرور قرون عديدة في اثناء

العهد الروماني) وكذلك كان يذهب الى مركز اغورا حيث كانوا يصرّفون امور الدولة الاخرى ، وهي محلة تقع الى الشمال من تلة الاكروبوليس .

كانت الاغورا مركز المدينة الاجتماعي . وكان يخترقه شارع يعرف بشارع باناثنيا (Panathenaea) يبدأ عند البوابة المزدوجة وكانوا يسمونها «ديبيلون» في سور المدينة وينتهي عند الاكروبوليس . وعلى افريز هيكل البارثنون حفرت ازاميل النحاتين صورة خالدة رائعة تمثل المواكب الرسمية التي كانت تخترق هذا الشارع في شهر آب. وكان في هذه المحلة، محلة اغورا، هياكل مختلفة : هيكل آرس (Ares) ، إله الحرب ، وهيكل هيفستوس (Hephaestus) إله عمال الآنية المعدنية وشفيعهم ، ومزارات مقدسة ، لان المحلة كانت بقعة مقدسة يستطيع المرء ان يطهر نفسه عند دخولها باغتساله في اجران تحتوي مــاء مقدساً . وكانت هنالك مذابح للآلهة بنيت هنا وهناك على جوانب الشوارع، منها مذبح للآلهة يعرف بـ «مذبح الاثني عشر إلهاً» وكان يعتبر النقطة المركزية التي كانت تقاس منها المسافات بين مدينة واخرى في ولاية اتيكا . وكانت محلة الاغورا في اثينا بعيدة الشهرة لكثرة تماثيلها . وفي زمن تال راحوا يقيمون هناك الحفلات الموسيقية في قاعة مستطيلة تعرف بالاوديون . والى جانب هذا اقيمت هناك مكتبة تحدر الينا منها هذا النقش الكتابي :

«لا يسمح باخراج الكتب الى خارج المكتبة . تفتح المكتبة ابوابها من الصباح حتى وقت الظهيرة » .

وكان يجري في محلة الاغورا كثير من المعاملات التجارية الرسمية حيث كان الناس يتجمعون في الاروقة وفي الممرات بين الاعمدة . ولكن اهم البنايات كانت بنايات الحكومة : مكاتب للشؤون المدنية ، ولصك النقود ، وللمحاكم القضائية ، ولمركز القيادة العسكرية حيث كان « القواد العشرة » يجتمعون ، وبناية المجلس ودوائر الحكومة ، وكانوا يسمونها ثولوس ، وهي كناية عن بناء مركزي مستدير لايواء مختلف دوائر الحكومة في اثينا ، ذلك لان بعض الموظفين كانوا يقيمون هناك حيث يأكلون وينامون لكي يكونوا أبداً على استعداد لعقد جلسات في حالات الطوارىء . ومنذ عهد قريب اجريت حفريات للكشف عن المحلة بكاملها . وقد قام بالحفريات هذه المعهد الامريكي للدراسات الكلاسيكية في اثينا . وهو عمل علمي جليل باهر اذ انه كان يقتضي الكشف عن المحلة شراء بقعة من الارض مساحتها ستة وعشرون فداناً تقع في الوسط التجاري المزدحم في قلب مدينة اثينا الحالية ، ونقل ثلاث مئة الف طن من التراب .

ان تاريخ اوروبا يبدأ بالشعب الاغريقي الذي لم يكن في تاريخه القديم شيء يشبه المآتي والمفاخر التي نعهدها في هذه الفترة . لقد كان من السهل على سوفوكليس ان يخلد في اشعاره ظهور الشعب الاثيني وان يمجد سيره الحثيث في معارج التقدم

والحضارة ولكنه في تمثيلية المأساة الموسومة بـ « انتيغون » آثر ان يمجد الانسان وان يتكلم عن عظمة الانسان وهي ميزة تميز بها الشعب الاغريقي .

المقطع الاول (وتغنيـه الجوقة وهي تدور في حلقة حول العازفين من اليمين الى الشمال) :

كثيرة هي عجائب الدنيا ، واعجبها الانسان
تمخر سفنه اليم هازئة بالعواصف
يشق طريقه في الاعصار ، يعلو الموج هامته فلا يخاف
هذه الارض ، الإلاهة — الأم ، القديمة قدم الزمن
هذه الارض التي لا تقهر سخر لها ثيرانه لتشق له
اثلامه ، سنة بعد سنة .

المقطع الاول (وتغنيه الجوقة بعد ان تغير اتجاه دورانها : من الشمال الى اليمين) :

لطير السماء اعدّ شراكاً
لحيوان البر اعد فخاخاً
ولسمك البحر حاك شباكاً.
بجبروت عقله يتسلط ؛
الحيوانات البرية التي تعيش في البراري والجبال

يؤنسها ويروضها .

الا ترى الحصان المختال بقوته يمد عنقه صاغراً

ليضع في عنقه النير ؟

الا ترى الثور البري يجول في الجبال

كيف يستسلم فيجر له المحراث ؟

المقطع الثاني (من اليمين الى الشمال) :

اعطاه الله هبة النطق ، يتكلم اللغات بيسر

له فكر نافذ ، فكر حر : حرية الريح في هبوبها

مطبوع على الالفة ، مؤهل للعيش المتحضر الرتيب

هجر مسكنه في البرية والقفار

فلم يعد سقفه السماء وفراشه الارض !

لا الرياح القارسة تؤذي جسده بعد

ولا المطر المنهمر يبلل جسمه

له عقل خصب يعينه على تدبير عيشه

فلا يرعبه الغد المجهول

الموت وحده يخيف ، وكم كان يود لو استطاع رده !

ولكن لا الدواء بناجع ، ولا الطبيب بنافع .

المقطع الثاني (من الشمال الى اليمين) :

تحلـّق به قوة الابداع ، ويشرد به الطموح

فلا يقف عند حد

يخلق من الخير انواعاً ، ومن الشر ضروباً

ولكن ، اذا قوض اساسات الدولة

اذا تجاوز حكم القانون

اذا انتهك حرمة العدالة

هذه التي أقسمَ بالآلهة ان يحافظ عليها ،

ايبقى انساناً مدني الطبـع ؟

ام يعود الى البدائية يتخبط في ديجور الشر والحقارة ؟

فلتحرس الآلهة بيتي من شر هذا الانسان

ولتبتعد افكاري عن افكاره .

وأي شاعر استطاع، كما استطاع اسكلوس (Aeschylus)، ان يصف لنا السبيل الذي سلكه الانسان في سيره صُعُداً من البدائية المتوحشة ، وأي شاعر ادرك هـول المشكلات التي اعترضت سبيله ، ثم المآتي والمفاخر التي أنجزها ؟ اصغ اليه يقول على لسان بروميثيوس :

من سواي عيَّنَ للآلهة الصغيرة ، صنعة يدي ، اعمالها ؟

ولكن لو كنتم تعقلون ...

لن اردد عليكم قصة سردتها على مسمعكم

ولكن أصغوا الي مرة اخرى اقص عليكم شقاء الانسان

لم يكن له لغة ، فوهبه الله النطق

لم يكن له ذكاء فوهبته الآلهة العقل والذكاء .

سأقص عليكم القصة كاملة ، فتعلموا مبلغ حي للانسان

كان للانسان عين ، ولكن لم يبصر بها

كان له اذن ، ولكن لم يسمع بها

كانت حياته الطويلة التي يحياها

حياة اشباح تروح وتجيء في الظلام

وجود الاشياء كان وقفاً على الصدفة العمياء

فلم تكن بيوته تبنى من اللبن الذي جففته الشمس

ولا من الخشب الذي قطعته الفأس

بل كان مأواه الكهف المظلم ،

وفي معارجه التي لا يدخلها شعاع الشمس

كان يزحف كالنملة ،

لم يكن يعرف الفصول ، لا مقدم الشتاء البارد

ولا مجيء الصيف الزاهر

ولا الخريف بعليل نسيمه

كان الانسان يجهل كل شيء حتى جئتُ أُخبره عن مطلع النجوم وعن افولها

علمته العدد ، والعدد رأس المعارف

علمته ان يصل حرفاً بحرف ليخلق الكلمة

والكلمة ام الفنون ، والكلمة خادمة العقل .

انا الذي روضت الحيوان وارغمته على حمل الاثقال ،

ليكون عوناً للانسان في كده وتعبه ،

انا الذي روضت الحصان ليُسْرج الى العربة ،

ليخضع للّجام والعنان ، فيكون عنواناً للمجد والقوة

انا وحدي وليس سواي أُسَيِّر الأشرعة على وجه اليم

واقودها عبر بحار لا تعرف لها حدود

اني اعتبر اعظم خدمة قدمتها للانسان الدواء والشفاء

ان المرض يصيب الانسان ، ولكن لم يكن على الارض دواء يشفي

ولا طعام يقوي الجسد ، ولا مرهم يخفف ألم الجرح .

لم يكن يعرف نعمة العقاقير ،

فكان يمرض ويموت ، الى ان جئت اكشف

عن اسرار الادوية التي تشفي من كل مرض .

وليت هذه جميع النعم التي اسبغتها على الانسان

فاني فضلاً عن هــــذا علمت الانسان الجاهل قراءة الغيب
ومعرفة المستقبل .

علمته تفسير الاحلام ، علمته ان يفسر مختلف الاصوات في
الهواء

علمته دلائل الطير ، وعلامات طيرانه

كي يعرف اين تكمن السعادة واين يتربص له الشر .

علمته كيف تمتزج العناصر ، وكيف تنسجم الاشياء المتنافرة
الى وحدات نافعة .

علمته ان يقرأ الدخان المتصاعد من حرق احشاء الذبيحة
فيعرف الغيب ، ويعرف مشيئة الآلهة .

علمته ان ينظر في لون الصفراء وان يراقب اشكال الكبد
المتداخلة المتعرجة فيتكهن عن الغيب

علمته علم الذبيحة والتقدمة .

علمته ان يغلف الاعضاء بشحم الذبيحة ويحرقها ثم ينظر في
العلامات القاتمة المتصاعدة من اللهيب

ومن سواي كشف له عن اسرار باطن الارض ؟

انا الذي اخبرته عن الكنوز المخبوءة في داخلها :

النحاس والحديد والفضة والذهب .

وليس سوى المجنون يجرؤ ان يقول انه

سبقني الى هذه الامجاد التي جدت بها على الانسان .

والمأساة الكبرى هي ان حيوية الرجل الاثيني – وكانت حيويته ، او لنقل حيوية بعضهم ، تتجلى في حبهم الديمقراطية وممارستهم لها ، وفي نزعتهم الى البحث والاختبار ، وتقديسهم العقل – لم تستطع ان تستمر في تقدمها وتطورها بخطى طبيعية . ذلك لان حرباً طويلة مدمرة حالت دون ازدهار تلك الحضارة التي وصفها المؤرخ توينبي بقوله « انهـــا كانت حضارة كسفت انوارها كل حضارة اخرى ظهرت حتى يومنا هذا » . يحدثنا المؤرخ ثوسيديدس، في معرض كلامه عن الحوادث المثيرة التي وقعت في عهده ، عن تقديره صديقاً له كان يفوق جميع الناس في صفاته وسجاياه فيقول :

« ادهى من هذا ان الاثينيين، عوضاً عن ان ينعموا بالسلام، وجدوا انفسهم مشتبكين في حرب ضد العدو . ولم تهدأ ثائرة الشعب الا بعد ان فرضوا على بركليس العقاب . ولكن شعور الجماهير واهواءهم عرضة للتغير والتبدل السريعين ، فانه لم ينقض وقت قصير حتى عادوا فانتخبوه قائداً عاماً وفوضوا جميع امورهم اليه . فشعروا ان وطأة متاعبهم ومصائبهم قد اخذت تخف ، وظنوا في تلك الظروف العصيبة انهم قد وُفّقوا الى

اختيار افضل قائد لهم . اما في فترة السلام ، عندما كانت دفة الحكم في يده ، فانه حكم البلاد بحكمة وفطنة ، وشعرت اثينا انها ، تحت لواء قيادته، في أمان وانها قد بلغت الذروة في العظمة . وعندما وقعت الحرب لم تخدعه الظواهر بل برهن على انه رجل يعرف قوة الاثينيين على حقيقتها . وقد بقي حياً مدة السنتين والنصف من ابتداء الحرب ، وبعد موته قدر الناس بعد نظره اكثر مما كانوا يقدرونه في حياته . لانه كان يقول للاثينيين انهم اذا صبروا وتحملوا واهتموا بتقوية الاسطول عوضاً عن ان يهتموا بتوسيع رقعة امبراطوريتهم والحرب مشتعلة ، واذا لم يعرضوا سلامة المدينة للخطر ، فانهم يربحون المعركة في آخر الامر . ولكنهم عملوا كل امر قال لهم الا يعملوه ، لا سيما انهم عملوا اعمالاً لا تمت الى الحرب بصلة ، واتبعوا سياسة تقوم على طموحهم ومطامعهم ومصالحهم الخاصة ، سياسة كان لها نتائج خطيرة بالنسبة لهم ، وبالنسبة الى حلفائهم . وادهى من هذا ان الاجراءات التي اتخذوها ، حتى في حال نجاحها ، كانت تعود بالخير والمجد على افراد، وفي حال عدم نجاحها كانت ضربة قاضية على المدينة تسيء الى مجرى الحرب . والفرق بين بركليس وعامة الشعب الاثيني هو ان بركليس ، بوصفه رجلاً يتحلى بجميل الفضائل الخلقية ويستمد سلطانه من قدرته الذاتية ومن مكانته غير المنازع فيها ، استطاع ان يكبح جماح الجماهير بعزم ونبل . انه كان يقودهم ولا ينقاد لهم ، ولانه لم يكن يبغي الحصول على السلطة بذرائع مشينة ملتوية ، فانه لم يكن بحاجة الى التملق الى

الجماهير فيقول لهم اشياء تروق لهم ، بل كان الامر على نقيض هذا ، فانه ، بفضل متانة خلقه كان يجرؤ على الوقوف بوجههم ، لا بل كان يجرؤ على اثارة غضبهم . كان اذا لحظ ان الجماهير تبدي غطرسة ، وتفاؤلاً لا مبرر له ، فانه كان يكلمهم بلغة قاسية تكسر من حدّة غطرستهم وتخفف من تفاؤلهم . كذلك كان اذا لحظ ان اليأس داخل قلوبهم ، ويدون مبرر لليأس ، فانه كان ينعش آمالهم ، ويعيد الثقة الى نفوسهم . وهكذا كان يحكم اثينا افضل ابنائها واعظمهم بالرغم من ان الديمقراطية في اثينا في تلك الفترة، كانت اسماً لغير مسمى . ولكن خلفاءه الذين كانوا يتساوون في المؤهلات فلا يتميز الواحد منهم على الآخر بشيء والذين كانوا يحتربون فيما بينهم للفوز بالسلطة ، اقول ، لكن هؤلاء الخلفاء كانوا على استعداد للتضحية بشؤون البلاد والدولة ارضاء للجماهير . ان مثل هذا الفساد في مدينة تسيطر على امبراطورية عظيمة ادى الى اقتراف اخطاء عديدة» .

٦ الحرب

اننا اذا اردنا ان نعرف الاسباب الحقيقية لنشوب الحرب البيلوبونيسية (٤٣١ – ٤٠٤ ق. م.) تلك الحرب التي جعلت من الشعب الاغريقي ، بين ليلة وضحاها ، شعباً خدعته الآمال ، شعباً يحاول الابقاء على الماضي وأساليبه التي ألفها ، فانه يحسن بنا ان نتجنب تلك التفاسير المألوفة السهلة التي كان يأخذ بها بعض الناس ، فنزعم مثلاً ان القسط الاوفر من اللوم لا يقع على كاهل اثينا الديمقراطية وعلى امبراطوريتها البحرية بل على الحكم العسكري الارستقراطي في سبارطة ذات الامبراطورية البرية . ان ما لا شك فيه هو ان المدينتين، اثينا وسبارطة، كانتا مختلفتين الواحدة عن الاخرى اختلافاً كبيراً . كان السبارطيون ، – ويعرفون باللاقونيين – يعيشون في وادي لاقونيا على امجاد الماضي وذكرياته ، وكانوا يتعمدون العزلة في تجارتهم وفي اساليب عيشتهم الحضارية . اما عرقياً فانهم كانوا ينتمون الى الفرع الدوري الاغريقي ، وكانت نظرتهم الى الحياة نظرة ضيقة الآفاق ، وكانوا يميلون الى الحكم الملكي ويرغبون في النظام الموجه في

شؤون الحكم وفي الحياة العادية . وكانوا على رأس الرابطة التي كانت تعرف بالجامعة البيلوبونيسية . غير ان الكورنثيين النشيطين المتقدمين كانوا يجدون انفسهم مرغمين على ان يذكّروا اهل سبارطة ان عليهم القيام بمسؤولياتهم كزعماء لهذه الجامعة . اما اهل اثينا فكانوا ينتمون الى الفرع الايوني الاغريقي ، وكانوا ديمقراطيين وثوريين بمعنى حبهم للتغيير والتبديـــل ، وكانوا يتزعمون بلاد الاغريق حضارياً وفكرياً ، هذا الى جانب كونهم امبراطورية ذات سيادة على البحار .

هذا الاتحاد الثنائي (الفرع الايوني والفرع الدوري) ، الذي وجدت بلاد الاغريق نفسها تمارسه وتعيش بموجبه كان اتحاداً تتوافر فيه شروط الاستمرار لو لم تكن اثينا ، تلك المدينــة القلقة التي تطمح الى المبادرة والابتكار ، قد بعثت الخوف والريبة في نفوس جيرانها . واننا لنلمس الشعور العام في بلاد الاغريق في الموقف الذي وقفته مدينة كورنثوس وعبرت عنه في المؤتمر الذي عقد في مدينة سبارطة قبل نشوب الحرب بمدة قصيرة . وفي وصف وقائع هذا المؤتمر يقول لنا المؤرخ توسيديدس ان اهل كورنثوس كانوا يرون في اثينا الخصم الاول . وتبدو وجهة نظر كورنثوس في ذلك مما يلي :

« انكم لم تتوقفوا لحظة لتفكروا في طبيعة هؤلاء الاثينيين الذين عليكم ان تحاربوهم يوماً ، واي صنف من الناس هم عليه ،

ولم تلاحظوا انهم يختلفون عنا اختلافاً كلياً . انهم ثورويون ، سريعون في تصور الاشياء ، فانهم ما ان يتصوروا خطة او يضعوا مخططاً حتى يبادروا الى تحقيقه ، بينما انتم محافظون — اي تحرصون على الحفاظ على ما بين ايديكم ، فلا تبتكرون شيئاً ، ولا تعملون شيئاً عندما يتحتم عليكم ان تعملوا . ان شجاعتهم العظيمة تسمو عـــلى قدرتهم الجسدية ، ويجازفون ويخاطرون على نحو لا يُقرّه التعقّل ولا الحذر . وفي المصائب والنكبات ترى قلوبهم مفعمة بالامل . امـــا طبيعتكم انتم ، وبالرغم من انكم اشداء ، فتدفعكم الى التصرف كما يتصرف الضعفاء . ومـــا ان تضعوا الخطط الحكيمة حتى يتسرب الى اذهانكم الشك في صلاحيتها ، واذا نزلت بكم النوازل تشعرون فوراً ان لا نجاة لكم من شرها ولا خلاص . انهم سريعو التأثر والانفعال اما انتم فترددون بطيئون . هم يكثرون من التسفار الى خارج اوطانهم اما انتم فقابعون في دياركم . انهم يأملون بأن ينالوا خيراً من اسفارهم واما انتم فتخشون كل مجازفة ، وتتخوفون من كل اقدام لئلا تتعرض مصالحكم القائمة الى اي شيء من الخطر . واذا ما انتصروا فانهم يستغلون انتصارهم ويتابعونه الى النهاية القصوى ، واذا ما حلت بهم الهزيمة فان انهزامهم وتراجعهم يكون الى ادنى حـــد . انهم يكرسون اجسادهم ومهجهم لخدمة اوطانهم كأن اجسادهم ومهجهم ليست ملكاً لهم . ان حقيقتهم تكمن في قدرتهم العقلية ، وهذه القدرة العقلية تتجلى على أروعها عندما يستخدمونها في خدمة

الوطن . واذا عجزوا عن ان يحققوا هدفاً وضعوه نصب أعينهم فانهم يشعرون كما يشعر من فقد شيئاً عزيزاً محبباً الى نفسه . واذا افلحوا في تحقيق هدف فانهم يشعرون بأنها خطوة نحو تحقيق اهداف اخرى، واذا عجزوا عن تحقيقه فانهم لا يقنطون، بل ترى قلوبهم مفعمة بالامل الجميل . انهم الشعب الوحيد الذي يؤمن بأن الامل مفتاح الفوز ، لذا تراهم لا يضيعون لحظة في سعيهم نحو تحقيق الاهداف . ان الحياة التي يفرضونها على انفسهم حياة شاقة مليئة بالاخطار والمصاعب. انهم لا يستمتعون بما لديهم من خير ونعم كما يفعل سائر الناس ، ذلك لانهم يسعون دوماً الى المزيد من الخير والنعم . عيدهم الاكبر قيامهم بالواجب ، ويعتبرون الخمول والتقاعس عن العمل اشد كراهية من الكد المضني . واذا قيل عنهم انهم أمة وجدت لا لتنعم بالسلام ولا لتدع احداً من الناس ينعم بالسلام فان مثل هذا القول الجامع قول صحيح ينطبق على حقيقتهم » .

بعد ان أصغى الوفد الاثيني الذي كان حاضراً الى هذا الخطاب أخذ بالرد مشيراً الى انتصارهم على الفرس ، ومما قاله بهذا الصدد :

« هل نستحق، ايها اللاقونيون، اذا ما أخذتم بعين الاعتبار القوة والحكمة اللتين ابديناهما في حربنا ضد الفرس ، نقول هل نستحق هذا الكره الشديد من قبل سائر الهلينيين لاننا أنشأنا امبراطورية ؟ اننا لم نحصل على هذه الامبراطورية بقوة السلاح .

ولقد كان من الواضح انكم لن تستطيعوا صد البرابرة وانتم قعود . ان حلفاءنا جاءوا الى نجدتنا من تلقاء انفسهم طالبين الينا ان نتزعم تلك الحرب . واذا كانت قوتنا العسكرية تضاعفت اثر هذه الحرب فان الامر لم يكن بيدنا بل فرض علينا فرضاً بحكم الظروف . وقد كان الخوف دافعنا وحافزنا الاول ، ثم كان الشرف، وبعد ذلك جاءت مصالحنا التي هي حوافز ثانوية. وعندما أصبحنا موضع كره ومقت من قبل حلفائنا ، وبعد ان ثار بعضهم ضدنا واستُعبدوا ، وبعد ان أصبحتم أعداء لنا بعد ان كنتم اصدقاء ، وبعـــد ان فقدتم ثقتكم بنا وأصبحت نظرتكم الينا نظرة استياء واستعداء ، نقول ، بعد هذا كله كيف نستطيع ان نتساهل وان نخفف من حدة ضغطنا عـلى حلفائنا بدون ان نعرض انفسنا الى خطر شديد ؟ فان المدن التي كانت تنفصل عنا كانت تنتقل الى معسكركم . وفي هذه الحالة لا يلام الرجل الذي يستفيد من كل سانحة تسنح له لا سيما عندما يكون الامر خطيراً .

« على كل حال ، ايها الشعب اللاقوني ، نقول لكم ، وانتم تمارسون سيادتكم التامة ، انه حق من حقوقكم ان تدبروا شؤون المدن البيلوبونيسية وان تصرفوا الامور فيها كما تشاؤون . ونضيف الى ذلك قولنا انكم ، لو ثابرتم في تزعمكم الحلفاء زمناً طويلاً الى ان اخذ الحلفاء يمقتونكم ويظهرون لكم العداء لاصبحتم عندهم ، كما اصبحنا نحن، شراً لا يطاق ، ولا أرغمتم ، كما ارغمنا

نحن ، حفاظاً على سلامتكم وحرصاً على بقائكم ، على ان تحكموا بيد من حديد كما نحكم نحن . ان امبراطورية قدمت الينا على طبق ، أفتعجبون ان نحن كبشر تصرفنا حسب طبيعة البشر فقبلنا الهدية ورفضنا ان نتخلى عنها ، يدفعنا الى ذلك ثلاثة دوافع شديدة الوطأة : الشرف ، والخوف ، والمصلحة ؟ اننا لسنا اول شعب طمح ان يسود ، وسنة هذه الحياة ، منذ بدايتها ، ان يتسلط القوي على الضعيف ، ونحـــن نعتقد اننا خليقون بالسلطة والتسلط، وفي زمن من الازمان كنتم انتم انفسكم تعتقدون اننا اهل للقوة . اما الآن فانكم عندما تعنون بالصالح لكم وبالمناسب لكم فانكم تغافون مطلبكم بالكلام عن العدالة . وهل كانت العدالة يوماً رادعاً يردع الانسان عن اخذ ما يمكن اخذه عن طريق القوة ؟ ان الشعب الذي يطمح ان ينشيء امبراطورية – وهذا طموح طبيعي عند الشعوب – وفي الوقت ذاته يحرص على تدعيم أسس العدالة اكثر مما ينبغي له في مثل هذه الظروف، نقول، ان مثل هذا الشعب حري بالامتداح والثناء . ولكي يظهر لكم مبلغ اعتدالنا واقتصادنا في تعريف الامور ، كنا نتمنى لو ان يحل شعب آخر محلنا . غير ان الواقع المرير هو ان اعتدالنا الذي نفخر به قد انقلب علينا مذمـــة وتوبيخاً وهذا ظلم وتجن » .

قبل ان تنشب الحرب اتخذ بركليس اجراءات مختلفة من شأنها ان تجعل مدينة اثينا مدينة لا تقهر . فانه لحظ اول مـــا

لحظه ، مثلاً ، ان عدد سكان المدينة لا يوفر لها جيشاً نظامياً ، ثم ان هذا الجيش ، على قلته ، يجب ان يستخدم اولاً لحماية المداخل المؤدية الى شبه جزيرة اتيكا وثانياً لحماية مدينة اثينا ذاتها . ثم ان كل الرجال الذين تتوافر فيهم شروط الخدمة العسكرية يجب ان يلتحقوا بالاسطول الذي كانت الغاية من بنائه غاية مزدوجة : الحفاظ على الامبراطورية ، واستيراد المواد الغذائية الضرورية . وبما ان اثينا لم تكن واقعة على ساحل البحر فقد يحاصرها جيش عدو من جميع جهاتها ويرغمها على الاستسلام بقطع الطعام عنها . وهذا ما يفسر لنا حرص بركليس على بناء جدران واقية تمتد من اثينا الى ميناثها بيرايوس (Piræus) على مسافة طولها اربعة اميال ونصف الميل . وهكذا ، في حالة الحرب ، يصبح في الامكان نقل سكان اتيكا الى مدينة اثينا ، وما دام الاسطول قادراً على السيطرة على البحار فان اثينا تستطيع مقاومة الحصار زمناً طويلاً .

كانت مدينة اثينا تستورد مواد الغذاء من جزيرة صقلية التي كانت يونانية . لكن سكانها كانوا من الفرع الدوري الذي كان يمكن ان يكون معادياً ، في حالة حرب ، لمدينة اثينا . والفرع الدوري كان يختلف عن الفرع الايوني سواء أكان ذلك بدمه ام بولائه . ولكي يحرر بركليس مدينة اثينا من اعتمادها على جزيرة صقلية ، فانه أسس مستعمرة « ثوري » وهي بلاد صغيرة تقع في جنوبي ايطاليا ، عجيبة الخصب . ولكن تأسيس هذه المستعمرة

هناك اثار في نفوس السكان مخاوف من ان يكون لدى اثينا مطامع ومقاصد اخرى في الغرب . وبعـــد مدة قصيرة راح بركليس ينشيء مستعمرة اخرى كبيرة — تعرف بمستعمرة امفيبوليس ، اي المدينة المزدوجة – في شمالي بلاد الاغريق عند معبر نهر ستريمون (Strymon) ، وكانت هذه المستعمرة تسيطر بفضل موقعها على جبل بانغيوس (Pangaeus) ، والى مدينة بيزنطة على البوسفور ، هذا الى جانب كونها مركزاً يحمي مصالح اثينا في تلك البقاع . وفضلاً عن هذا فان بركليس في السنة ذاتها ، طلب الى الاسطول ان يقوم بمناورات بحرية حول سواحل البحر الاسود ليلقي الروع في نفوس سكان تلك المنطقة التي كانت تعتبر من اهم اهراء الحبوب ، ولكي يذكرهم بقوة اثينا وعظمتها .

اما في اثينا فان بركليس كان قد هيأ احتياطياً من المال ، الامر الذي كان اهل البيلوبونيس يفتقرون اليه كثيراً ، وعبثاً حاول المحافظون معارضة بركليس في هذا الامر ، وجل مـــا استطاعوا ان يفعلوه هو ان يطلبوا ارسال ثلاثة اصدقاء من اصدقاء بركليس الى المنفى ، وهم دامونيدس ، معلمه في الموسيقى ، وانكساغورس الفيلسوف ، والنحات الشهير فيدياس الذي جُرِّم لاختلاسه ذهباً وعاجاً خصصا لتمثال الإلاهة اثينا . اما بركليس نفسه فلم يستطيعوا ان يتهموه بشيء .

كان النشاط السياسي الذي تقوم به اثينا شرقاً وغرباً يوحي

للناس ان لا حد لمطمحها . وكانت سيطرتها على الموانىء الواقعة حول خليج كورنثوس تبعث المخاوف في قلوب سكان كورنثوس. وكانت القسوة الفظة التي كانت اثينا تعامل بها حلفاءها الذين تحدثهم انفسهم بالثورة ضدها من الامور التي جعلت اثينا في نظر الناس مدينة طاغية قاسية . واذا ما قيس اهل سبارطة باهل اثينا لظهر ان اهل سبارطة كانوا ارق طبعاً ، وألين عريكة ، لانهم كانوا يمثلون في العيش اسلوباً تقليدياً بسيطاً .

بكلام آخر كان اهل اثينا يمثلون الروح القلقة الجديدة في بلاد اليونان ، وكان اثرهم يشكل نوعاً من التهديد والتحذير للذين يرغبون في الا يطرأ على الوضع الراهن اي تغيير كان . وقد لخص لنا المؤرخ ثوسيديدس اسباب الحرب البيلوبونيسية بقوله : « اعتقد ان الاسباب الحقيقية لهذه الحرب ، بالرغم من انها اسباب لا يقرها الناس ، كانت تكمن في ازدياد قوة اثينا التي القت الرعب في قلوب سكان لاقونيا واضطرتهم الى خوض غمار الحرب . اما الاسباب التي يعلنها الطرفان فقد كانت أنــــه. . . عندما اتخذوا هذا القرار ووطدوا العزم على اعلان الحرب لم يكن اهل لاقونيا قد تأثروا باقوال حلفائهم وبالخطب التي القيت بقدر ما كانوا يخشون اهل اثينا ويتخوفون من ازدياد قوتهم . لانهم رأوا بان القسم الاكبر من بلاد الاغريق قد سقط في قبضة ايديهم » .

لو لم يكن ثوسيديدس هو الرجل العظيم الذي ارخ لهذه الحرب

التي نشبت بين اثينا وسبارطة لكان اهتمامنا بها اهتماماً عادياً ، لا يتعدى اهتمام الرجل الذي يعنى بالتاريخ من وجهة اكاديمية . كان ثوسيديدس يحب اثينا التي كانت بمثابة الوطن له . ولكنه كان مؤرخاً يتحلى بفضيلة الجرأة العقلية التي جعلته مؤرخاً حيادياً يغوص الى الاعماق ليتوصل الى الحقائق والى القوى المحركة التي كانت تفعل فعلها . وثوسيديدس يذكرنا بسوفوكليس وبالمثل الاغريقية لانه كان رجل عمل لا رجل قول . فانه كان قائداً في الجيش في اثناء السنة الاولى للحرب . ويبدو انه ابطأ في ارسال المدد الى مدينة كانت قد وقعت تحت الحصار فكان جزاؤه النفي ، ولكن هذا النفي وفر له سبيل السفر والتجوال مدة عشرين سنة وافسح له المجال ليبحث ويناقش قضايا عديدة مع اولئـــك الذين اشتركوا في الحرب من الجانبين . وكتابه الموسوم بـ « تاريخ الحرب البيلوبونيسية » له قيمة خالدة لانه ، وبوصفه ممثلاً للعقل الاغريقي العظيم ، استطاع ان يسمو في تعليله الحوادث الاقليمية الخاصة الى مستوى الحقائق الكلية العامة . فانه يقول : « اذا كان الرجل الذي يرغب في ان يطلع على الحوادث التي جرت اطلاع شاهد عيان ، والذي يريد ان يطلع على الحوادث التي يمكن ان تقع في المستقبل في اطار التصرف البشري ، يحكم على ما كتبته بهذا الصدد بانه شيء مفيد فحكمه هذا امر يرضيني ، لان تاريخي هذا سيكون ملكاً عاماً للناس والى أمد بعيد ، وليس مقالاً يكتب في مباراة لاجل الفوز بجائزة فيُقرأ ثم يتناساه الناس » .

عندما بلغت اعمال التحدي والاستفزاز – وكانوا يسمونها مضايقات – حداً جعل الحرب امراً لا مفر منه وجد الاثينيون ان لديهم ، علاوة على جنود البحرية ، حوالي ١٣ الف جندي من المشاة المسلحين سلاحاً ثقيلاً كاملاً والف جندي من الخيالة الذين كان لا بد من توافرهم للحاميات ولأعمال الحصار في المدن الثائرة. وكان لدى البيلوبونيسيين ٢٤ الفاً من المشاة ومن الجنود المسلحين باسلحة خفيفة ، بينما كان لدى حلفائهم من الرابطة البيوتية (Boeotian) التي كانت تتزعمها مدينة ثيبس ، عشرة آلاف جندي من المشاة والـــف من الخيالة . وكانت خطة بركليس الستراتيجية تقضي اولاً بسحب السكان من شبه جزيرة اتيكا ونقلهم الى مدينة اثينا قبل ان تهاجمهم جيوش الاعداء ، وكانت تقضي ثانياً بمهاجمة شواطىء العدو وغزوها .

وبالرغم من ان الناس كانوا شديدي التذمر من اقامتهم في احياء مزدحمة بالاهلين ، ومن تخريب بيوتهم ومزارعهم ، فان الخطة نجحت نجاحاً تاماً ، وعند نهاية السنة القى بركليس مرثاته الشهيرة . ثم تفشى الطاعون في اثينا . وفي وصفه سير وبأ الطاعون لم يغفل ثوسيديدس امر النفاذ الى اعمال الطبيعة البشرية. قال :

« ما ان حل فصل الصيف حتى كان الجيش البيلوبونيسي ، الذي يتألف كما كان يتألف سابقاً من ثلثي قوة كل ولاية من ولايات الاتحاد ، بقيادة ارخيداموس ملـــك لاقونيا ابن

زوكسيداموس ، قد اجتاح شبه جزيرة اتيكا وضرب مخيماته فيها وراح ينهب المدن والقرى . ولم يمض على مكوثهم هناك سوى ايام قليلة حتى كان وبأ الطاعون قد تفشى في اثينا لأول مرة . ويقال ان وبأ من هذا النوع كان قد تفشى في بقاع عديدة ، لا سيما في لمنوس ، ولكن ليس لدينا سجل عن وبأ كهذا الوبأ ان في شدته او في عدد ضحاياه البشرية . وقد حاول الاطباء في بادىء الامر ان يصفوا للمرضى بعض الوصفات الطبية ولكنهم كانوا يجهلون طبيعة هـــذا المرض جهلاً تاماً ، وهكذا فان محـــاولاتهم وادويتهم لم تنجع ، وليس هذا وحسب وانما كان الاطباء انفسهم من اول الضحايا ، ذلك لانهم كانوا يحتكون بالمرضى اكثر من غيرهم . وهكذا لم تنجح وسيلة بشرية لوقف الكارثة ، كذلك لم تنفع الصلوات التي كانت تُرفَع الى الآلهة، ولا الذهاب الى العرافين في الهياكل ، وما اشبه ذلك ، حتى ان الناس في آخر الامر استسلموا استسلاماً كلياً وكفوا عن التوسل بهذه الاساليب .

« يقال ان هذا المرض ظهر ، اول ما ظهر ، في جنوبي مصر في بلاد الحبشة ، ومن ثم انتقل بالعدوى الى مصر وليبيا ، وبعد ان انتشر في جميع انحاء الامبراطورية الفارسية ظهر فجأة في اثينا . هاجم الوبأ اولاً سكان الميناء ، ميناء بيرايوس ، وظن الناس ان البيلوبونيسيين سمموا احواض المياه اذ لم يكن قد

انشئت لها مجار[1] بعد. ثم وصل الوبأ الى القسم الاعلى من المدينة فازدادت الوفيات ازدياداً كبيراً . اما اصل هذا المرض وسببه والخلل المظيم الذي يحدثه في الطبيعة فجميعها امور يختلف فيها الناس كثيراً اذ لكل امرىء تعليل وتفسير . اما انا فاني سأصف مجرى الوبأ وسيره وسأتكلم عن اعراضه حتى اذا ما تفشى المرض ثانية استطاع الناس ان يتعرفوا اليه . لاني انا وقعت فريسة الداء واعلم علم اليقين مبلغ الشقاء والألم اللذين يتعرض لهما من يصاب به .

« من المؤكد ان ذلك الفصل من السنة كان فصلاً خلواً من كل مرض شائع . ولكن اذا وجد مريض ما يشكو مرضاً غير مرض الطاعون كان الناس يقولون عن مرضه انه مرض الطاعون. كثيرون من الناس الذين يتمتعون بكامل صحتهم كانوا فجأة ، وبدون سبب ظاهر ، يشعرون بحمى شديدة وباحمرار العينين وتورمهما . اما في داخل الجسم فان البلعوم واللسان يسبحان في الدم ويصبح التنفس عسيراً . ثم يتلو هذا نوبات من العطس ، وبحّة في الصوت ، وبعد فترة قصيرة يصل المرض الى الصدر مرفوقاً بسعال شديد . ثم ينزل الى اسفل ، الى المعدة ، مسبباً قيئاً شديداً من الصفراء التي يطلق الاطباء عليها اسماء مختلفة . وتكون حالة المريض عندها على اسوأ ما تكون من الألم والشقاء. وكان معظم المرضى المصابين بهذا الداء يقاسون من التشنجات

---

١ — كان الاعتقاد شائعاً ان المياه الجارية لا تتلوّث . (المترجم)

التي كانت تنتابهم عند محاولتهم التقيؤ ، ولكن بدون ان يستطيعوا التقيؤ . واما بعض المرضى فقد كانوا ، عند زوال هذه الاعراض، يشفون حالاً ، واما بعضهم الآخر فلا يشفى إلا بعد مرور زمن طويل. واذا ما لمست الجسم فلا تشعر انه ساخن، ولا يظهر عليه اصفرار، بل تجد لونه قاتماً يميل الى الاحمرار وعلى بشرة الجسد تظهر حبيبات وقروح . اما الحرارة الداخلية فكانت شديدة حتى ان المريض لم يكن يطيق غطاء من الكتان الرفيع على جسده ، بل كان يطلب ان يستلقي عارياً ، وأشهى شيء عنده كان ان يرمي نفسه في بركة ماء بارد . وفي الواقع ان المرضى الذين لم يكن عليهم رقيب أو احد ليعتني بهم ، كانوا يرمون بانفسهم في احواض المياه لانهم كانوا يقاسون مرارة العطش الشديد ، ولم يكن هذا العطش ليُروى غليلـُه سواء أشرب المريض كثيراً من الماء ام قليلاً . والمريض لا يستطيع النوم ، بل ان حالة من القلق والاضطراب التي لا تطاق كانت لا تفارقه . وعندما يبلغ المرض ذروته يظل الجسم يقاوم على أحسن ما تكون المقاومة عوضاً عن أن يضعف ويهن بالرغم من شدة المرض وألمه . ويموت المريض في اليوم السابع من مرضه أو التاسع ، لا بسبب الضعف الذي يصيب الجسد بل بسبب الحمى الداخلية الشديدة التي تسبب معظم الوفيات . واذا سلم المريض من الموت فان الداء يهبط الى الامعاء مسبباً قروحاً شديدة ، وفي الوقت ذاته يصاب المريض باسهال قوي يسبب ضعفاً عاماً ، وباستثناء قلة قليلة ، فان معظم المرضى يموتون في هذه الحالة .

وهكذا ترى ان الداء يبدأ في الرأس في اعلى الجسم ثم يأخذ بالهبوط الى اسفله ، والمريض الذي ينجو من اسوأ حالاته يجد نفسه اخيراً مصاباً في اطرافه ، واحياناً يهاجم الداء الاعضاء التناسلية واطراف اصابع اليد والرجل . وآخرون ينجون من الموت ولكنهم يفقدون بعض اطراف الجسم او العيون . كذلك بعض من ينجو من الموت يصاب بفقدان الذاكرة فلا يعود يعي ذاته ولا يعرف أصدقاءه .

« ان المرء ليجد صعوبة في ايجاد الكلمات التي تصف طبيعة هذا الداء الوخيم ، ولا تستطيع الطبيعة البشرية ان تطيق شدة الضراوة التي يهاجم بها الداء فريسته . وهنالك ظاهرة غريبة تميز هذا المرض عن غيره من الامراض . ذلك ان الطيور والحيوانات التي تأكل من جثث الموتى — وقد كان هنالك جثث عديدة لم يكن لها من يدفنها — لم تقترب منها ، او انها اذا اكلت منها كانت تموت فوراً . والدليل على ذلك اختفاء الطيور التي تقتات على الجيف اختفاء كلياً . واما الكلاب التي تعيش بين الناس فان سبب هلاكها في اثناء الوبأ امر واضح لا يحتاج الى برهان .

« هذه هي اعراض المرض بصورة عامة . وقد اغفلت ذكر حالات خاصة كان بعض المرضى يتعرضون لها . اما الامراض العادية الاخرى فلم تظهر ولم تتفش في اثناء ظهور الطاعون ، واذا صدف ان ظهر مرض آخر فان نهاية المريض المصاب به كانت

تأتي على يدي الطاعون . كان بعض المرضى يموت لعدم وجود من يعتني به، ولكن من جهة اخرى كان الذين يعتنى بهم احسن اعتناء يموتون ايضاً وبالمعدل ذاته . هذا ولم ينجع دواء واحد في الشفاء من المرض ، والدواء الذي كان ينفع مريضاً ما كان يقتل مريضاً آخر . ولم تكن هنالك أجساد من القوة بمكان فتستطيع مقاومة المرض او اجساد ضعيفة فتنجو من شره، بل انه جرف جميع الناس على السواء ، ولم تنجع وسيلة في الشفاء . واشد الامور ايلاماً كان ذلك الشعور بالقنوط واليأس الذي يحس به المرء عندما يشعر انه قد وقع فريسة المرض . فانه يستسلم فوراً الى اليأس القاتل ، وعوضاً عن ان يتماسك ويتجالد كان يضيع على نفسه كل فرصة بالنجاة . ومما كان يخيف ايضاً سرعة انتقال العدوى من انسان الى آخر . وكان الذين يعتنون بالمرضى يموتون كالأغنام ، وهذا هو سبب ارتفاع الوفيات . واذا خاف الناس من عيادة المريض فان المريض كان يموت وليس حوله أحد من الناس . وهكذا اقفلت بيوت عديدة لانه لم يبق من ساكنيها احد ليعتني بالآخرين. كذلك اذا جرؤوا على عيادة مريض فانهم كانوا يموتون ، لا سيما اولئك الذين كانوا يتحلون بالبطولة والشجاعة . لانهم كانوا يذهبون لزيارة اصدقائهم غير مبالين بسلامتهم بل كانوا يشعرون بانه من العار التخلي عنهم في الوقت الذي انقطعت فيه الصلات بين الذين هم على فراش الاحتضار وبين سائر الناس ، حتى انه لم يعد هنالك من يبكي او ينوح على الميت ، لان هول الكارثة صعق الناس . وان كان هنالك

من بقية رحمة وعطف على المرضى والمحتضرين فقد كان مصدرها اولئك الذين تعافوا من المرض ونجوا من الموت . فان هؤلاء كانوا قد اختبروا المرض ولم يكن يخامرهم خوف او خشية من عدوى فكانوا يعودون المرضى ويعتنون بهم . لان هذا المرض لا يصيب الانسان مرتين ، او على الاقل انه لا يكون في المرة الثانية مرضاً قتالاً . كان الناس يهنئون هؤلاء الناجين على عطفهم وحسن معاملتهم للمرضى ، بينما هم انفسهم كانوا يشعرون بغبطة فيها براءة الطفل وذلك لظنهم ان ليس هنالك مرض يستطيع بعد ان يودي بحياتهم .

« ومما زاد في شقاء الناس ومحنتهم نزوح جماهير الناس من القرى الى المدينة ، وكانت جموع المهاجرين هي التي تعاني البلاء اكثر من غيرها . لان هؤلاء لم يكن عندهم بيوت بل كانوا يعيشون ، وحر الصيف على أشده ، في أكواخ صغيرة خانقة . وكانت معنوياتهم على أدنى ما تكون عليه المعنويات ، فكانوا في هذه الفوضى يموتون ميتة ذعر وخوف . فكانت جثث الموتى تتكدس بعضها فوق بعض ، واما المرضى الآخرون الذين كانوا على وشك ان يموتوا فقد كانوا يتمرغون في أوحال الاسواق ويزحفون زحفاً محاولين الوصول الى المـــاء لاطفاء عطشهم . وكانت الهياكل التي يبيتون فيها ملأى بجثث الموتى الذين لقوا حتفهم فيها . ذلك لان هول الكارثة أفقد الناس صوابهم فلم يعودوا يعرفون اي متجه يتجهون ، وكان اليأس قد أخذ منهم

مأخذاً جعلهم يتخطون كل قانون انساني او إلهي . وامـــا طقوس الدفن التي كان الناس يقومون بها فقد تغاضى الناس عنها وخرقوا حرمتها وصار الرجل يدفن ميته كيف يشاء وبأية صورة يشاء . ولانه كانت تعوزهم حاجات وأدوات للدفن من كثرة عدد الوفيات في البيت الواحد فان الناس فقدوا كل احترام للموت . كان الرجل اذا استطاع ان يجمع كومة من الحطب لحرق موتاه كان آخرون يهجمون عليه ويرمون بجثث موتاهم ويشعلون النار فيها قبل ان يتمكن هو من طرح جثث ذويه . واذا كانت جثة ما تحترق كان بعضهم يأتي بجثة صاحبه ويرمي بها في النار قبل ان يتمكن احد من ايقافه عن عمـــل كهذا . وكانت هنالك أعمال خارجة عن العرف والقانون أشد قبحاً من هذه الامور التي ذكرتها والتي تفشت في اثينا من جراء كارثة الطاعون . فان الناس الذين كانوا ينغمسون في الملذات ، ولكن بتستر وخفاء ، أصبحوا الآن اكثر جرأة في تصرفهم المفضوح . لانهم كانوا يرون بأم العين سرعة التبدل والتغير — الاغنياء يموتون في خلال لحظات والمعدمون يرثون ثرواتهم — هؤلاء صاروا يفكرون في تفاهة الحياة والغنى وانها أمـــور طارئة فانية ، وراحوا يطلبون اللذة ما أمكنهم السعي وراءها ، واصبح التمتع بالحياة مطلبهم الوحيد . فمن من الناس ، آنذاك ، كان يفكر في التضحية في سبيل الشرف وهو لا يعلم انه سيعيش ليكافأ على تضحية في سبيل القانون والشرف ؟ وأصبحت اللذة الآنيّة ، وأصبح كل ما يؤول الى الحصول على متعة العيش ،

يحل محل الشرف والسلوك الشريف . ولم يكن هنالك ما يردع المجرم سواء أكان ذلك الرادع قانون الناس ام قانون الآلهة . فان الذين كانوا يشاهدون الموت يحصد الناس على السواء لم يعودوا يبالون بعبادة الآلهة او بعدم عبادتها . لان من كان يجترىء على القانون لم يعد يخشى عقاباً . فانه لم يكن يأمل ان يعيش طويلاً حتى ينال منه القانون جزاء . وها هو الطاعون يصدر حكماً على الناس اشد صرامة من قوانين الناس ، فأصبح الحكم بالموت مصلتاً فوق رؤوسهم ، وقبل ان ينزل بهم القصاص المحتوم ماذا يضير الانسان ان يتمتع بشيء من لذة العيش » ؟ .

ولنا ان نسأل : ماذا يحل بأمة مشتبكة بحرب عندما تنزل بها كارثة غاشمة طلسمية فتجرف فجأة ثلث السكان ؟ لا شك في ان الشقاء الذي حل بها والخوف الذي استحوذ على قلوب أفرادها من جراء الطاعون كانا من العوامل التي هوت بأمة بلغت الذروة في التحضر والتمدن الى مهاوي القسوة والفظاظة . هذا التدني المريع كان احد الموضوعات الرئيسية التي عالجها ثوسيديدس في تاريخه . وعندما توفي بركليس بالطاعون سنة ٤٢٩ ق. م. انتقلت الزعامة في اثينا الى كليون (Cleon) الذي كان رجلاً غوغائياً من الرعاع الذين ينتمون الى طبقة الصناعيين. وبعد فترة قصيرة ثارت مدينة ميتلاني (Mytilene) في جزيرة لسبوس (Lesbos) ، وكانت اهم حليف من بين حلفاء اثينا . ولكي يلقي اهل اثينا الرعب في قلوب من تحدثهم انفسهم

ليحذوا حذو ميتلاني ، فيثورون كما ثارت هي ، فانهم اتخذوا قراراً باعدام كل الرجال في ميتلاني وباستعباد النساء والاطفال . واتخذت اثينا هذا القرار الرهيب بتحريض وإلحاح من كليون . وفي اليوم الثاني شعروا بالندامة على اتخاذهم مثل هذا القرار . ولكن كليون راح يتوسل اليهم بتهكم وسخرية عنيفة ألا يغيّروا رأيهم : « لقد قلت مراراً وتكراراً ان النظام الديمقراطي في الحكم لا يصلح لادارة امبراطورية ، والامر الآن واضح لديّ اكثر من ذي قبل ، فها اني أراكم قد ندمتم على اتخاذ القرار الماضي بتجريم اهل ميتلاني . انكم عندما تتعاملون مع حلفائكم تتصرفون كما تتصرفون فيما بينكم بروح من الثقة والاطمئنان ، غير انكم تنسون انه متى اذعنتم لمطالبهم ، تحدوكم روح الشفقة والعطف ، وتخدعكم اقوالهم المعسولة ، فانكم تخطئون وتعرضون أنفسكم الى مخاطر انتم بغنى عنها . وفضلاً عن هذا هل تعتقدون انهم يشكرونكم على صنيعكم هذا ؟ انه واجب عليكم ان تذكروا ان أية امبراطورية انما هي نوع من التسلط المطلق الباغي يفرض قسراً على شعوب لم ترتضه ، شعوب تحوك الدسائس والمؤامرات دوماً للتحرر من نير سلطانكم . انهم لن يظهروا الطاعة لكم ولن يذعنوا بسبب لطف وعطف تبدونها لهم ، وفي الوقت ذاته يعود مثل هذا العطف عليكم بالشر والاذى ، الا اذا كانوا يدركون انكم لا زلتم أسياداً لهم وهم خاضعون لكم . انهم لا يحبونكم ، والقوة وحدها هي التي تخضعهم لسلطانكم . وفضلاً عن هذا ،

قولوا لي هل هناك أقبح من ان يغير المرء رأيه ويبدله دوماً ، وبين آن وآخر ؟

« انني لا أزال أعتقد انه ينبغي لكم ان تتقيدوا بقراركم الاول ، وليس لكم ان تتأثروا بعواطف الرحمة والشفقة ، ولا ان تنخدعوا بمعسول الكلام ولا ان تستسلموا الى حسن طويتكم التي تدفع بكم الى العفو والغفران . ثلاثة أمور لا أعلم أموراً غيرها اكثر ضرراً وتهديداً لقوتكم : اولاً الرحمـــة للرحماء فقط ، وليس لأولئك الذين لا يرحموننا بل ، بفضل الظروف القائمة ، ينبغي لنا ان نعدهم اعداء لنا . ثانياً خطباؤنا المصاقع ، وهؤلاء اطمئنهم اننا سنبقي ساحاتنا العامة مفتوحة لهم شرط ألا يتناولوا في خطبهم اموراً مصيرية خطيرة كي لا تدفع مدينتنا ثمناً باهظاً مقابل التمتع بالسماع الى بلاغتهم بضع دقائق ، بينما هم يقبضون مكافأة حسنة مقابل خطاب حسن التنميق. واخيراً العفو والغفران ، والعفو يجب ان يمنح لأولئك الذين ، بعد العفو عنهم ، يبقون اصدقاء لنا ، لا للذين يظلون على عدائهم لنا ، والذين لا يعملون شيئاً للتخفيف من غلواء كراهيتهم . وبكلمة واحدة : انكم اذا عملتم ما أقوله لكم فانكم تكونون قـــد عاملتم أهل ميتلاني معاملة عادلة ، وفي الوقت ذاته تكونون قد أحسنتم الى انفسكم . واما اذا سلكتم السبيل الآخر فانهم لن يشكروكم على صنيعكم وتكونون قد حكمتم على أنفسكم بأنفسكم . لانه اذا كانوا على حـــق في ان يثوروا ضدكم فهذا

معناه انكم على خطأ في إقامة امبراطورية لكم . ولكن اذا كنتم قد وطدتم العزم على ان تحكموا امبراطورية ، خطأ او صواباً ، فانه يجب عليكم انزال العقاب بهم ، خطأ كان ذلك ام صواباً ، وذلك لاجل صالحكم وخيركم . والا فانه يتوجب عليكم ان تتنازلوا عن الامبراطورية ، وعندما لا تترتب على الفضائل أمور ذات خطر على مصيرنا فانه يحسن اذ ذاك ان تتحلوا بالفضائل ما شئتم ان تتحلوا به . انزلوا بهم العقاب ذاته الذي لو أتيح لهم لانزلوه بكم » .

بعد هذا الخطاب ، ابدى اهل اثينا بعض اللين واتفقوا على انزال الاعدام برؤساء الثورة . والواقع انهم لم يلينوا الا بعد سماعهم خطيباً يلقي خطاباً نارياً جاء فيه : « ان القضية بالنسبة الينا ليست قضية الجرائم التي اقترفها اهـــل ميتلاني وانما هي الحفاظ اولاً وآخراً على مصالحنا نحن » . اما كليون فانه بذل اقصى جهده لمتابعة الحرب « لانه ادرك بخياله ان خزعبلاته وغوغائيته تبدو ، في زمن السلم شفافة ويظهر السخف في سبابه وشتائمه فلا يعود الناس يصدقون ما يقوله » .

اذا كانت الامبراطورية البركليسية هي التي كانت قد سبّبت نشوب الحروب ، فان الحروب ، يقول لنا توسيديدس ، بدورها تسفر عن العنف والقسوة ، والفوضى السياسية سببها العنف والقسوة . وفي وصفه الثـــورة التي حدثت في كورسيرا

(Corcyra)[1] يحلل لنا، بثاقب نظرته الى اغوار النفس البشرية، الاثر الذي تخلفه الحروب في اخلاق الناس :

« عندما شاهد اهل جزيرة كورسيرا (كورفو) الاسطول الاثيني يقترب من شواطئهم ، واسطول العدو يفر منها ، ادخلوا افراد الجيش المسيني (Messenian) – الذين ظلوا خارج اسوار المدينة حتى هذه الفترة – الى المدينة وامروا المراكب التي كانت تحت امرتهم بالسفر الى ميناء هيلايس (Hyllaic) فامتثلوا للامر وابحروا . في هذه الاثناء راحوا يقتلون كل من كانوا يقبضون عليه من الاعداء في المدينة . وعندما وصلت المراكب الى الميناء الذي عينوه لها انزلوا البحارة الذين غرروا بهم ليقلعوا بمراكبهم الى هذا الميناء وسرحوهم . ثم توجهوا الى هيكل الإلاهة هيرا (Hera) واقنعوا حوالي خمسين رجلا كانوا يصلون هناك بالمثول امام القضاء لمحاكمتهم ، ثم حكموا عليهم جميعاً بالموت ، غير ان معظمهم رفضوا مغادرة الهيكل، وبما انهم علموا ماذا كان يجري في الخارج ، راحوا يقتلون بعضهم بعضاً في ساحة الهيكل ، وانتحر بعضهم شنقاً على الاشجار او بأية طريقة اخرى توافرت لديهم . وفي اثناء الايام السبعة بعد ان كان يوريمدون (Eurymedon) قد وصل بمراكبه الستين استمر اهل كورسيرا في قتل مواطنيهم في المدينة ممن كانوا يتهمونهم بانهم اعـــداء الشعب . وكانوا يتذرعون في قتلهم انهم كانوا يأتمرون ضد

---

١ – أي جزيرة كورفو . (المترجم)

الديمقراطية ، ولكن الحقيقة ان بعضهم قتل لاسباب محض شخصية ، وبعضهم قتل على يدي الدائنين الذين كانوا يطالبونهم بديون . وقد كانت اسباب القتل متعددة ، وكل ما يمكن ان يقع من جريمة بشعة في اثناء الثورات وقعت في المدينة في هذه الفترة . فان الوالد كان يقتل ولده ، وكان المصلون يجرون جراً الى خارج الهياكل ويقتلون ، حتى انهم مرة قيدوا جماعة من المصلين وربطوهم الى جدران هيكل ديونيسوس وتركوهم هناك الى ان لاقوا حتفهم . الى هذه الهوة من القسوة والعنف تحدرت الثورات ، وهذه الثورة كانت اسوأها لانها كانت الثورة الاولى.

«بعد فترة وجيزة كان العالم الهليني يعاني فترة قلق واضطراب. كانت كل مدينة منقسمة الى جبهتين فكان زعماء الجبهة الديمقراطية يحاولون ان يستميلوا اثينا لينضموا تحت لوائها ، وكان زعماء الطبقة الغنية الارستقراطية يحاولون استمالة لاقونيا. ولنلاحظ هنا ان في وقت السلم لا يمكن لحزب وطني ان يتطلع الى الخارج فيدعو دولة غريبة لاحتلال بلاده كما فعل اهل كورسيرا ، ولا يريد ان يقوم بعمل كهذا . ولكن في وقت الحرب نجد ان الحزب الناقم او المعارض لا يستنكف عن دعوة دولة اجنبية لمصلحته اولاً ، ولهزم خصومه او لالحاق الاذى بهم ثانياً. ان الثورة جرّت على المدن الاغريقية شتى الكوارث والمصائب المفجعة ، تلك المصائب التي تحل دوماً بالناس ، طالما ان الطبيعة البشرية لا تتغير وتتبدل . غير ان هذه الكوارث تتباين حيناً

وتزداد حدتها ووطأتها حيناً آخر تبعاً للظروف الطارئة . في ايام السلم والازدهار نجد الدولة والافراد يتصرفون تصرف من تحدوه حوافز ومُثُل عليا ، ذلك لانهم يجدون انفسهم احراراً لا تتسلط على حياتهم ظروف قاهرة ولا حاجات مستبدة . ولكن الحرب التي تحرم الناس هانيء العيش وتسلبهم رغدهم وراحتهم ، طاغية ظالمة تفرض على الناس قسراً ان يكيّفوا أخلاقهم وتصرفاتهم لتتلاءم مع ظروفها .

وبعد ان بدأت الاضطرابات في المدن وبعد ان اتسع نطاقها، راح الناس الذين ساروا في طريق الثورة يدفعون بها من مجالها الى مجال اوسع . ويبدو كأنهم اخذوا عهداً على انفسهم ان يتفوقوا على من سبقوهم في دروب الثورة ، سواء أكان ذلك في نطاق الاساليب الجهنمية ام في الخطط التخريبيـــة ، وفي الثارات والفظائع الدامية . وانعكست مفاهيم الكلمات ، فلم تعد تعني ما كانت تعنيه سابقاً بل اصبح لها معنى يسبغونه هم عليها كيفما شاءت لهم الحال . فأصبحت المغامرة غير المسؤولة تُعَدُّ شجاعة وولاء ، واصبح التأني والتؤدة حجة يتذرع بها الجبان ، وصار الاعتدال في الامور ستاراً يتستر به الصعلوك ، واصبح الخول بديلاً عن المعرفة والحكمة ، واصبحت القوة الجسدية الغاشمة الفضيلة الحقيقية التي يتحلى بها المرء . ولكي ينجو المتآمر وحائك الدسائس بحياته راح يطلب الرحمة والعفو تحت ستار من التخفي. واصبح رجل العنف والقسوة انساناً يثق الناس به ، ورجل

الرحمة والشفقة انساناً يشك الناس في حقيقته . ومن كان ينجح في مؤامراته ودسائسه اصبح رجلاً عالماً فطناً في نظر الناس ، واصبح اعلم منه وافطن ، في نظر الناس ، من كان يكتشف صاحب المؤامرة والدسيسة ليفضح امره. ومن جهة اخرى اصبح الرجل الذي حزم امره على الا يشترك في مؤامرة او دسيسة ، رجلاً هداماً غايته تفكيك وحدة الصف ، وجباناً يخاف الاعداء . وبكلام آخر اصبح الرجل الذي يبز غيره في الشقاوة والشر رجلاً يصفق له الناس . كذلك اصبح الرجل الذي يحرض جاره ، الذي لا يعرف الرذيلة ولا الشر ، على اقتراف الشر والرذيلة ، رجلاً شريفاً تحترمه الجماهير . واصبحت الرابطة الحزبية اقوى من رابطة الدم ، لان الرجل الحزبي كان دوماً على استعداد ان يقوم بأي عمل بدون ان يسأل كيف ولماذا . (لان الروابط الحزبية لا تقوم على اسس من القانون المعترف به ، ولا ينشد الحزبُ الصالحَ العامَ ، بل الامر على نقيض هذا فان الحزب يقوم على تحدي القانون تحدوه المصلحة الشخصية) ولم يعد عنوان الايمان احترام الشرع الالهي بل اصبح الشراكة في اقتراف الجرائم . وعندما كان العدو ، وهو بعد في اوج سطوته ، ينثر القول الجميل هنا وهناك فان الناس لم يتقبلوا كلامه بروح نبيلة بل بروح من الريبة والحذر . وكان الثأر اعز لديهم من المحافظة على السلامة والبقاء. وكانت المواثيق التي كانوا يقطعون بها عهداً على انفسهم في فترات الضعف والعجز مواثيق تربط بينهم ما داموا ضعفاء لا حول لهم ولا طول . واما الرجل الذي

كان يغتنم الفرصة ليجرؤ على مهاجمة عدوه وهو في غفلة عنه ، فقد كان يفخر بانه لم يتقيد بعهد ، ولم يبر بوعد ، اكثر مما كان يفخر بانه ثأر لنفسه جهراً كما يثأر الرجل الشريف . وكان يهنىء نفسه انه سلك السبيل المنجي ، وانه غلب عدوه وفاز بالتفوق عليه ، ونستطيع القول ان الناس ، بصورة عامة ، اصبحوا يقدرون الدجالين والماكرين على دهائهم وتحايلهم اكثر مما يقدرون بسطاء الناس على فضيلتهم وجودتهم . ان عامة الناس تفاخر بمثل هؤلاء الناس الاذكياء وتستحي بالبسطاء الفضلاء .

« ان سبب هذه الشرور كلها حب القوة التي تنشأ عن الطمع ، وعن الطموح ، وعن الروح الحزبية التي تنشأ عندما يدور الصراع للفوز بالقوة والعظمة . لان زعماء الطرفين يستعملون كلمات خداعة ، فيدعي الفريق الاول انه انما يدافع عن حقوق المساواة للجميع ، ويدعي الفريق الآخر انه يدافع عن الحكمة في الابقاء على الارستقراطية ، بينما نجد الفريقين يسعيان للغنيمة بالمصالح العامة ، تلك المصالح التي يتذرعون بها اسماً لا فعلاً . وفي سعيهم للقضاء والتغلب بعضهم على بعض اقترفوا اشد الجرائم فظاعة ووحشية . غير ان هذه الفظائع ليست شيئاً بالنسبة الى فظائع الثارات التي بلغت الذروة في حدتها . ولم يكن كلا الطرفين ليقفا عند حد من الاعتدال ، سواء أكان ذلك احتراماً للقوانين ام للصالح العام، بل كان الدهاء والتحايل

قانوناً وشرعاً في تلك الظروف المدلهمة . كان همهم الأكبر اشباع الرغائب الحزبية سواء أكان ذلك عن طريق الاحكام التعسفية الجائرة ، ام عن طريق التفرد بالسلطة والقوة . فلم يبال احد من الطرفين بامور الدين ، بل كانوا اذا افلحوا في خداع الناس بالكلام المنمق عن الاغراض التي تثير الغريزة البهيمية ، يطبل لهم الناس ويزمرون . وكانت الواقعة تقع على اولئك الناس غير الحزبيين الذين لم ينحازوا لا الى هؤلاء ولا الى اولئك، فكانوا موضع كراهية لانهم كانوا محايدين، او موضع حسد لانهم كانوا يفوزون بالسلامة في اثناء هذا الصراع .

« وهكذا نجد ان الثورات كانت تولد اقبح الشرور في جميع انحاء بلاد الاغريق . تلك البساطة الفطرية التي هي عنصر من عناصر الطبيعة البشرية النبيلة زايلت الناس واصبحت موضع هزء وسخرية . وسادت الروح العدائية لكل معتقد ومبدأ . ولم يبق اي سبيل للمصالحة والتوفيق بين الخصوم ، اذ لم يعد يتقيد الناس بعهد او ذمام . واصبح الايمان بان كل شيء أصبح عرضة للمخاطر والهلاك مستمسك الرجل القوي ، فصار همه الاول سلامته ، ولم يكن في صالحه ان يثق باحد من الناس . واصبح الناجح في الحياة صاحب العقل البليد الخامل . لان مثل هذا الرجل الذي يدرك نقائصه ، ويخشى تفوق خصمه الفكري ، الذي لا يستطيع مجاراته في قوة الحجة والبلاغة ، والذي قد يفوقه ايضاً في حوك الدسائس وفي تخطيط الشر اذا ما اراده ،

اقول ، ان مثل هذا الرجل ، اذا سنحت له سانحة يبطش بخصومه قبل ان يبطشوا به . غير ان الطبقة العاقلة من الناس – على افتراض ان هؤلاء يتوقعون الشر قبل وقوعه ، وبالرغم من خيلائهم وغطرستهم – التي كانت تؤثر استعمال عقلها قبل اللجوء الى اعمال القوة ، أُخذت على حين غرة وقُضيَ عليها » .

وهكذا استمرت الحرب حتى سنة ٤٢١ ق.م. عندما توفي كليون وخلفه اثيني ارستقراطي اسمه نيسياس الذي استطاع انهاء الحرب . ولكنه كان من العسير جداً احلال السلام وذلك بسبب السيبيادس (Alcibiades) وطموحه الذي لا حد له . كان السيبيادس، حفيد بركليس ومرافقه الخاص ، ذا شخصية محببة ولكنه لم يكن يتحلى بالفضائل الخلقية ، فكان يرى في الحرب خير وسيلة لتدعيم مركزه . ولذا اقنع الاثينيين سنة ٤١٦ ق.م. بتجهيز حملة عسكرية ضد جزيرة ميلوس (Melos) التي وقفت على الحياد طوال هذه المدة . ان هذا العمل الوحشي الفظيع الذي اثار حفيظة الناس عامة ضد اثينا جعل يوريبيدس في السنة التالية يظهر امتعاضه ببلاغته المعهودة في روايته « نساء طروادة » . كذلك ثوسيديدس نفسه صور لنا في كتابه المشهور « الحوار حول ميلوس » التطور المخيف للنظرية التي تأخذ بها الشعوب الطاغية من ان « الحق الى جانب القوة » . يقول :

« ثم ان الاثينيين جهزوا حملة ضد جزيرة ميلوس قوامها

ثلاثون سفينة من سفنهم، وست اخرى تابعــــة لجزيرة خيوس (Chios) وسفينتان من سفن جزيرة لسبوس ، والف ومئتا جندي من المشاة الكاملي السلاح ، وثلاث مئة من رماة القوس، هذا الى جانب عشرين آخرين من الرماة الخيالة ، وحوالي الف وخمس مئة جندي من المشاة قدمتهم لهم الجزر الحليفة . وكان سكان ميلوس من جماعــــة اللاقونيين المستعمرين الذين توطنوا الجزيرة ، وبحكم ولائهم لم يكن باستطاعتهم الخضوع لزعامة اثينا كما خضعت لها سائر الجزر . في بادىء الامر وقفوا على الحياد ولم يشتركوا في الحرب الدائرة . ولكن عندما حاول الاثينيون ارغامهم على دخول الحرب الى جانبهم بتخويفهم وبتخريب مزارعهم فانهم ثاروا ضدهم . فتوجه اليهم قائدان ، كليوميدس ابن ليكوميدس وتيسياس ابن تيسيماخوس ، وعسكرا بجنودهما في الجزيرة، وقبل بدء القتال ارسلا الى اهل ميلوس وفداً للتفاوض معهم . إلا ان اهل ميلوس ، عوضاً عن ان يحضروا اعضاء الوفد ليمثل امام الشعب ، رغبوا اليهم ان يدلوا بمهمتهم امام الحكام وامام اعيان الشعب . فقام احدهم وقال :

« بما انه لم يسمح لنا ان نخاطب الشعب مباشرة لئلا تتعرض الجماهير لسماع محاضرة او خطاب فيه من القول والحجج ما لا يمكن دحضه في خطاب كهذا الخطاب (لاننا نعلم علم اليقين ان هذا هو السبب في احضاركم ايانا الى هنا لنخاطب قلة مختارة) فاننا نطلب اليكم ، انتم الجالسين امامنا ، ان تستبينوا الامر

غاية الاستبانة . دعونا من الخطابات المهيأة ، وقولوا لنا هل انكم تريدون الرد على كل قول من اقوالنـــا لا توافقون عليه، وهل ترغبون في نقده فوراً بعد الادلاء به ؟ نطلب اليكم ان تخبرونا عن الطريقة التي ستدار بها هذه الجلسة .

« فأجاب ممثل جزيرة ميلوس : ان بحثنا هذه القضايا بصورة هادئة وتفسيراتنا لها أمر على غاية من التعقل ، ولسنا نعارض مثل هذا التدبير . غير ان تحركاتكم العسكرية التي فضلاً عن انها تثير المخاوف في قلوبنا والتي تقومون بها على مرأى منا ، تكذب اقوالكم تكذيباً قاطعاً . واننا نعتقد ، ولكم ان تخالفونا الرأي ، انكم جئتم الينا بوصفكم قضاة ، وانكم في حال اظهار عدالة قضيتنا ورفضنا الاذعان لمطالبكم ، ستشهرون الحرب علينا ، وظاهر اننا اذا اقتنعنا بصحة حججكم فان معنى هذا ، بالنسبة الينا ، الاستعباد . اجـاب الاثينيون : كلا ، انكم اذا اردتم ان تبحثوا القضية بناء على أوهام وتخيلات عن المستقبل، او اذا اردتم ان تبحثوا معنا قضايا غير القضايا التي لها علاقة بظروفكم الخاصة وبسلامة مدينتكم فاننا نقول لكم ان مثل هذه الامور قـــد بحثناها وناقشناها . ولكن اذا كانت هذه غايتكم فلا مانع عندنا من متابعة النقاش .

« فرد عليهم اهل ميلوس قائلين : انه لامر طبيعي له مبرره ان الناس الذين يجدون انفسهم في وضع كوضعنا هذا لا يستنكفون عن مناقشة اي رأي او اية وجهة نظر تعود علينا

بالخير . ولكننا نقر ونعترف ان هذا المؤتمر انما عقد لبحث مصيرنا وسلامة بقائنا . وعليه فلتجر المناقشات على الصورة التي ترتأونها .

« اجاب الاثينيون : حسناً ، اذن . نحن الاثينيين نعدكم اننا لن نلجأ الى الكلام المنمق ، ولن نسترسل في الحديث الجاني لنقول لكم لماذا نشعر انه حق من حقوقنا ان نحكم لاننا نحن الذين قهرنا الفرس ، ولا لنقول لكم اننا نهاجمكم الآن لأنكم كنتم السبب في أذيتنا . حتى وان حاولنا ان نقول هذا فليس لكم ان تقتنعوا بصواب حجتنا ، كما انه لا يحق لكم ان تنتظروا منا ان نقتنع بحجتكم القائلة انـــكم ، بالرغم من كونكم مستعمرة لاقونية ، لم تشتركوا في حملاتهم العسكرية ، او انكم لم تلحقوا بنا اي اذى . ولكن الاجدى لنا ولكم ان نقول اننا اناس يعقلون ويزنون الامور ، واننا لسنا نطلب سوى ما هو ممكن . لاننا ، نحن الفريقين ، نعلم انه متى كان البحث يدور حول شؤون الناس فان قضية العدالة لا تدخل في البحث الا اذا توافرت قوّة متساوية لفرضها ، كما اننا نعلم ان القويّ يفرض على خصمه ما يشاء فرضه ، وان الضعيف ينبغي له ان يتنازل عما يرى انه ضروري للتنازل عنه .

« أجاب أهل ميلوس : حسناً ، اذن . اذا كنتم قد وضعتم قضية العدالة جانباً ، وطلبتم الينا ان نتكلم عما هو صالح ونافع بقطع النظر عن المبادىء ، فاننا نرى انه من الصالح لكم ان

تعترفوا ان هنالك مبادىء نبيلة تعمل لخير المجموع ، كذلك ترى انه من حق الرجـــل الذي يجد نفسه في مأزق خطر ان يطلب لنفسه ما يراه مطلب حق ، وان كل ما يحتج به ، وان كان ما يحتج به احياناً يحيد عن سبيل الحق ، انما هو للدفاع عن قضية . اما في هذه القضية فان الحفاظ على هذا المبدأ هو في صالحكم كما هو في صالحنا؛ وذلك لانكم اذا غلبتم على امركم وفاتكم النصر فان ثأركم سيكون ثأراً فظيعاً ، وبذلك تكونون أقبح قدوة يقتدي بها البشر .

« أجاب الاثينيون : ان سقوط امبراطوريتنا ، هذا اذا سقطت ، لن يكون حدثاً ننظر اليه بخوف ووجل ، لان الدول التي تحكم دولاً أخرى مثل دولة لاقونيا لا تقسو على الاعداء الذين تخضعهم الى سلطانها . اننا لسنا في صراع الآن ضد لاقونيا انما الخطر الحقيقي الذي يهددنا يكمن في الدول التابعة لنا التي يمكن ان تثور من تلقاء ذاتها فتقهر اسيادها وتتغلب عليهم . ولكننا لا نطلب اليكم ان تشركونا في مخاوفنا إزاء هـــذا الخطر . انما سنحاول ان نريكم ان غاية مجيئنا اليكم هو الحفاظ على مصالح امبراطوريتنا ، وان مـــا سنقوله لكم الغاية منه المحافظة على مدينتكم . لاننا نريد ضمكم الينا واعتباركم واحداً منا بدون تكليف انفسنا اي قدر من المتاعب . وانه لمن صالح الطرفين ألا يقضى عليكم . اجاب اهل ميلوس : قـــد يكون

من صالحكم ان تكونوا اسياداً علينا ، ولكن كيف يمكن ان يكون من صالحنا ان نستعبد لكم ؟

« أجاب الأثينيون : اما الصالح لكم فهو انه بخضوعكم لنا تتجنبون محنة اشد هولاً ، وأمـــا بالنسبة الينا فان بقاءكم والحفاظ عليكم خير وغنى لنا .

« – أهل ميلوس : هل من الضرورة ان نكون لكم اعداء ؟ ألا تعتبرونتا اصدقاء اذا بقينا على الحياد وحافظنا على السلام بيننا وبينكم ؟

« – الاثينيون : كلا ، ان صداقتكم لنا اكثر ضرراً لنا من عداوتكم ، ذلك لان عداوتكم في نظر رعايانا برهان على قوتنا واما صداقتكم فبرهان على عجزنا وضعفنا .

« – اهل ميلوس : هل ان رعاياكم حقاً لا يستطيعون ان يميزوا بين الدول التي لا تهتمون بها وبين تلك التي هي فعلاً مستعمرات لكم والتي كانت تثور بعض الاحيان فتقضون على الثورة فيها ؟

« – الاثينيون : ان رعايانا لا يشكون في ان كلا النوعين من هذه الدول يشعران بأنها على حـــق في المطالبة بالعدالة لانفسهم ، غير انهما يعتقدان بأن دولة كدولتكم .تركت لشأنها لأنها لا تستطيع حماية نفسها ، او اننا لم نهاجمها قصد اخضاعها

لاننا لا نجرؤ على مهاجمتها . وهكذا تجدون ان اخضاعنا لكم يزيد من سلامتنا ، هذا فضلاً عن ان في ذلك ايضاً توسيعاً لرقعة الامبراطورية . لاننا نحن أسياد البحر وانتم سكان جزر ، وليس هذا وحسب بل سكان جزر لا قيمة لكم ، فيجب علينا ألّا نتركم وشأنكم .

« — أهل ميلوس : ألستم ترون في هذا خطراً آخر ؟ وكما قلنا سابقاً : بما انكم ترفضون دعوانا التي تقوم على مبدأ العدالة وبما انكم ترغموننا على قبول وجهة نظركم التي تقوم على الحكمة والصالح، فانه واجب علينا ان نبيّن لكم ما نعتقده صالحاً لنا ، وما نعتقده صالحاً لكم ايضاً ، علكم تقتنعون بصواب رأينا . ولذا نسألكم : ألستم بتصرفكم هذا تجعلون الدول الحيادية الآن في صفوف اعدائكم ؟ لانها عندما تراكم تعاملوننا بهذه الصورة فانها تنتظر ان تنقلبوا عليها يوماً فتعاملونها كما تعاملوننا . واذا كان قولنا هذا صواباً ألا تشعرون انكم بهذا تقوون مركز اعدائكم ، وتضيفون الى اعدادهم اعداء آخرين لم يخطر لهم ببال يوماً ان يكونوا اعداء لكم ؟

« — الاثينيون : اننا حقاً لا نعتبر الشعوب التي تقطن القارة اعداء خطرين ، ذلك لانهم ، طالما ينعمون بحريتهم فانه لن يخطر لهم ببال ان ينزلوا بنا يوماً اي ضرر ، او ان يتخذوا بحقنا اية اجراءات عنيفة . اما سكان الجزر مثلكم الذين لا يخضعون الى اي نوع من السلطة ، وجميع الذين يتضايقون من

ضرورة كونهم خاضعين لامبراطوريتنا ، نقول ، ان مثل هؤلاء هم اعداؤنا الحقيقيون، لانهم لا يقدرون عواقب الامور . هؤلاء هم أقرب الناس الى الانزلاق في مخاطر لا بد لهم من توقعها ، فيجروننا معهم الى مهاوٍ لا نعرف عواقبها .

« – اهل ميلوس : اذن ، اذا كنتم مع رعاياكم تجازفون هذه المجازفة ، انتم للحفاظ على امبراطوريتكم ، وهم للتخلص من انضمامهم الى امبراطوريتكم ، أفليس من الجبن والعار علينا ، ونحن الاحرار ، ألا نجاهد وألا نعاني ونضحي بكل ما لدينا كي لا نستعبد لكم ؟

« – الاثينيون : ان الامر ليس كما تتخيلون ، هـذا اذا فكرتم به تفكيراً هادئاً . لأنكم اذا حاربتمونا فاذكروا انكم تحاربون من هو أقوى منكم لا مساوياً لكم في قوته ، فتعرضون بذلك انفسكم لمذلة الانهزام . انتم الآن تتداولون فيما بينكم قضية مقاومة قوة لا طاقة لكم بها او عدم مقاومتها . فالقضية اذن ليست قضية شرف بل قضية حكمة وتروٍّ .

« – أهل ميلوس : اننا نعلم ان مصير الحرب غامض فلا ينحاز الحظ فيه الى جهة معينة وليس من الضروري ان يكون النصر الى جانب الفريق الذي عدد جنوده كبير . اذا خضعنا الآن وأذعنا الى مطالبكم نكن كمن حـكم على نفسه بنفسه ، وقضي الامر ، واما اذا حاربنا فلنا امل في النصر والحفاظ على بقائنا .

« — الاثينيون : ان الامل في وقت الخطر المدلهم اجمل عزاء للناس ، ولكن اذا كان للناس شيء آخر غير الامل يعتمدون عليه ، وان كان مثل هذا الشيء يؤلم، فانهم لا يعودون يشعرون بالخيبة المريرة اذا فاتهم الأمل . ولكن اذا غرهم الأمل برحابته المعهودة على ان يجازفوا بكل شيء ، وخاب أملهم الجميل ، فانهم يستفيقون ليجدوا ان احلامهم قد تلاشت مع الأمل المفقود . واما من كان يعرف عن كثب ان الأمل قد يكون خداعاً فانه يحترس لنفسه من الاسترسال فيه . انتم ضعفاء واذا رجحت الكفة قليلاً فقد يكون ذلك سبباً في هلاككم . فلا تنخدعوا ، وتحاشوا الوقوع في الاخطاء التي وقع فيها كثيرون ممن كان يمكن لهم ان ينجوا من مخاطرها لو انهم اتبعوا السبل القويمة ، ولا تكونوا كمن زايلته الثقة بنفسه فراح ينشد الخلاص في امور غيبية ، ويستشير المتنبئين والعرافين ومـا اليهم ممن يُودون بالناس الى التهلكة بجعلهم فريسة الاحلام والآمال .

« — اهل ميلوس : اننا ندرك تمام الادراك ان الصراع ضد قوتكم العسكرية سيكون صراعاً مريراً ، ونعلم علم اليقين ان تحدي المصير امر عسير ، اذا لم يحالفنا الحظ . غير اننا لن نيأس ولن نقنط من ان يحالفنا الحظ . لاننا نأمل ان تنعم علينا السماء كما تنعم عليكم وان تجود علينا كما تجود عليكم ، لاننا اناس صالحون بررة واما انتم، الذين نحارب ضدكم فأشرار ظالمين. ونحن واثقون ان العون الذي سنتلقاه من حلفائنا اللاقونيين سيعوض علينا

النقص في قوتنا العسكرية . فانهم لن يرفضوا نجدتنا، ان لم يكن لسبب سوى اننا نمت اليهم بالنسب ، ناهيك عن شعورهم بان الحفاظ على شرفهم يفرض عليهم ان يهبوا الى نجدتنا. وعليه فان ثقتنا بانفسنا ليست ثقة عمياء او ثقة تقوم على وهم كما تظنون .

« – اهل اثينا : اما فيما يتعلق بالآلهة فاننا نأمل ان تجود علينا بالنعم والآلاء كما تجود عليكم. ذلك لاننا لا نعتقد اننا نعمل شيئاً او ندعي حقاً يرى فيه الرأي العام والعرف العام انه تجاوز على مشيئة السماء او الارض . لاننا نعرف ان الآلهة ، كالناس ، بطبيعتها تميل الى الحكم والسيطرة عندما تستطيع الى ذلك سبيلاً. وهذا قانون لا يد لنا فيه، لاننا لم نستن سنة كهذه، ولسنا اول من طبق هذه السنة ، غير اننا قد ورثناها وسنخلفها ارثاً للاجيال . ونحن نعلم ايضاً انكم انتم ، وغيركم من الناس لو كنتم اقوياء مثلنا لكنتم تفعلون ما نفعله نحن . فلنترك الآن أمر الآلهة وسنتها ، يكفينا ان نقول لكم اننا نأمل ان نحظى بعطف السماء وجودها كما تأملون انتم . ولنعد الى ما ذكرتموه عن ابناء جلدتكم اللاقونيين . اذا كنتم تعتقدون انهم يهبون الى نجدتكم حياء منهم فان اعتقادكم هذا ، البريء الساذج ، يعجبنا، ولكننا لا نحسدكم على هذه الغباوة . ان اهل لاقونيا، بالنسبة الى نظرتهم الوطنية الى الاخلاق ، وبالنسبة اليهم كأفراد في مجتمع واحد ، على كثير من نبل الفضائل والسجايا . ولكن بالنسبة الى تعاملهم وتصرفهم مع الآخرين – ويمكننا هنا ان نقول الكثير عنهم –

فاننا نستطيع وصفهم لكم بكلمة موجزة – انهم من ادهى الناس الذين نعرفهم واشهرهم في قدرتهم على التكيف والتوفيق بين متناقضين . فما هو حسن لهم يعتبرونه شريفاً ، وما هو صالح نافع لهم يعتبرونه عادلاً ولكن ما ابعد هذا التلون في الاخلاق عن ثقتكم العمياء بهم واملكم الخداع في انهم ينجونكم من بلواكم .

« – اهل ميلوس : اذا كنا نثق بهم فلهذه الاسباب عينها التي جئتم على ذكرها . فانهم سينظرون اولاً في مصالحهم الخاصة ، ولذلك لن يتخلوا عن جزيرة ميلوس لانها مستعمرة لهم ، فلا يعود اصدقاؤهم في جميع انحاء بلاد الاغريق يثقون بهم ، وبهذا يقعون في احابيل اعدائهم .

« – اهل اثينا : ولكن الا ترون انكم اذا سلكتم سبيل الصالح النافع لكم تأمنون العثار ، بينما اذا استمسكتم بمبادىء العدالة والشرف فانكم تعرضون انفسكم لمخاطر ومحاذير حقيقية ، مع العلم ان اللاقونيين قلما يعرضون انفسهم لمجابهة مثل هذه الاخطار ؟

« – اهل ميلوس : اننا نعتقد انه مهما كان هنالك من اخطار ومحاذير فان اللاقونيين على استعداد ان يجابهوها من اجلنا، وعندما يكون الامر متعلقاً بنا فانهم لن يحسبوا للاخطار حساباً . لاننا ، في حال احتياجهم الى عوننا ، قريبون منهم ، ويستطيعون ان يثقوا بولائنا واخلاصنا لهم لاننا نمت اليهم بالنسب .

« — الاثينيون : هذا صواب . غير ان الذي يشجع القوم الذين دُعوا الى مد يد المعونة في الحرب ليس حسنُ نية الذي طلب اليهم العون بقدر ما هو شعور المدعوين الى الحرب بانهم متفوقون عسكرياً . ولسنا نعلم شعباً ينظر في مثل هذا الامر بثاقب نظر كاللاقونيين . فانهم شعب تنقصه الثقـــة بموارده وامكاناته حتى انه اذا هاجم جيرانه فانه يهاجمهم عندما يتأكد من كثرة الحلفاء الى جانبه . وعليه فانه من غير المرجح ان هؤلاء يأتون وحدهم الى جزيرة وهم يعلمون جيداً اننا اسياد البحر .

« — اهل ميلوس : انهم قد يوفدون حلفاءهم . ان بحر كريت بحر واسع الارجاء ، واسياد البحر يجدون فيه صعوبة كلية في اللحاق بالسفن التي تطلب النجاة لنفسها اكثر مما يجدون في اللحاق بالسفن الهاربة . واذا فشلت محاولة اللاقونيين فانهم قد يرتدون الى مهاجمة اتيكا ذاتها فيتصلون بحلفائكم الناقمين الذين لم يستطع براسيداس ان يتصل بهم قبلاً ، وعندها تجدون انفسكم مرغمين على خوض غمار حرب ليست غايتها اخضاع جزيرة ليس لكم بها شأن بل حرب تفرض عليكم فرضاً للمحافظة على ارضكم وعلى امبراطوريتكم الاتحادية .

« — الاثينيون : قد يهب اللاقونيون الى نجدتكم كما هبوا الى نجدة غيركم ، ولكن اذا قيض لكم ان تخبروا الحرب ضدنا فانكم سترون ان الاثينيين لم يتراجعوا عن محاصرة بلاد او مدينة مرة

واحدة في التاريخ خوفاً من العدو . لقد قلتم لنا ان همكم الاول
سيكون سلامة مدينتكم والحفاظ عليها . ولكننا لحظنا في اثناء
هذا الجدل الطويل ان احداً منكم لم يأت على ذكر شيء عن الوسائل
التي ستلجأون اليها لخلاص مدينتكم يتقبله الرجل العاقل على انه
كلام مسؤول . لان اقوى حججكم انما تقوم على آمال ، وعلى
آمال غامضة ، والقوة العسكرية المتوافرة لديكم الآن لا تقاس
بقواتنا التي هي معروضة لديكم اذ ليس هنالك وجه للمقابلة .
ترى ، هل لنا ان ننتظر منكم ان تُبدوا حكمة وتعقلاً اذا
انسحبنا الآن ، — وقد تبدون الآن حكمة وتعقلاً بدون ان
ننسحب — فتصلوا اخيراً الى نوع من القرار الحكيم ، اذ نلاحظ
انه يعوزكم كثير من التعقل والحكمة . ومن المحقق انه لن
يشرد بكم الخيال فتسترسلوا في التفكير الخاطىء عن الشرف
والمحافظة على الشرف ، ذلك التفكير الذي كان سبباً في خراب
أمم كثيرة عندما احدق بهم الخطر ولاح لهم شبح الخزي والعار.
نعم، هنالك اناس عديدون يدركون الخطر المحيق بهم، ويعلمون
النتائج المحتمة ، ومع هذا فان لفظة « شرف » تستولي على
مشاعرهم وتسحر عقولهم فتدفع بهم الى المقاومة اليائسة، وبذلك
تجر عليهم ويلات كان بوسعهم تجنبها . ان هذه الحماقة تسبب لهم
مخازي أشد وقعاً مما يسببه لهم القدر . وانكم اذا كنتم حكماء
فانكم لن تجازفوا هذه المجازفة . عليكم ان تدركوا ان اذعانكم
الى مطالب مدينة عظيمة كأثينا التي تدعوكم ان تكونوا حلفاء
لها ، وعلى اسس معقولة ، ليس خزياً ولا عاراً . اذ ان لكم ان

تحتفظوا ببلادكم وبأرضكم ، انما تدفعون لنا جزية . وعليكم ايضاً ان تدركوا انه ليس من الشرف بشيء ، اذا خيرتم بين امرين ، الحرب والسلامة ، فاخترتم اشد الامرين شراً . ان طريق السلامة هي ان يحافظ المرء على حقوقه عندما يكون الامر متعلقاً بدولة مساوية في القوة لدولته ، وان يظهر الحنكة السياسية عندما يكون الامر متعلقاً بمن هو اقوى منه ، واخيراً ان يكون عاقلاً منصفاً عندما يكون الامر متعلقاً بمن هو دونه قوة وبأساً . نطلب اليكم ان تترووا في الامر بعد ان ننسحب من الاجتماع واذكروا دائماً ان الامر يتعلق بخلاص بلادكم ، وليس لكم من بلاد سواها ، وان قراركم هذا قد يعرضها الى الخراب كما انه قد يجنبها محن الحرب . اذكروا هذا جيداً » .

هنا ، انسحب الاثينيون من قاعة المؤتمر وراح اهل ميلوس يتداولون الامر فيما بينهم . واخيراً قر قرارهم على ان يتشبثوا بموقفهم : رفض مطالب الاثينيين . وكان جوابهم كما يلي :

« ايها الرجال الاثينيون ، اننا لم نبدل رأينا ، ولن نتخلى لحظة عن التمسك بحرية مدينتنا ، تلك الحرية التي نالتها منذ سبع مئة سنة ولا تزال تتمتع بها . اننا نسلم امرنا الى القدر والى مشيئة الآلهة التي حفظتنا الى الآن ، والى النجدة التي نترقبها من اللاقونيين . اننا سنحاول جهدنا لحماية انفسنا . غير اننا على استعداد ان نكون لكم اصدقاء . لا نريد ان نكون اعداء لكم

او للاقونيين . ونطلب اليكم الجلاء عن اراضينا بعد ان تكونوا قد توصلتم الى نوع من الصلح فيه الخير لنا ولكم » .

هكذا اجاب اهل ميلوس . وقبـــل ان يغادر الاثينيون المؤتمر اجابوا :

« اذن ، وبناء على القرار الذي اتخذتموه ، لنا ان نقول انكم الشعب الوحيـــد الذي يرى ان الغيب والمستقبل في نظركم امر اكيد اكثر مما هو الواقع والحال ، وانكم الشعب الوحيد الذي يعتبر المجهول امراً سيتحقق وذلك بفضل استرسالكم في الترقّب والاحلام . ولنا ان نقول لكم ايضاً انكم ما دمتم تعتمدون على نجدة اللاقونيين ، وعلى القدر ، وعلى الامل ، وما دمتم تثقون بهذا كله فان هلاككم سيكون هلاكاً تاماً ماحقاً » .

ثم ان الوفد الاثيني رجع الى المعسكر ، وعندما رأى قواد الجيش ان اهل ميلوس لن يذعنوا امروا فوراً بالقتال . وشرعوا في الحال ببناء سور يحيط بمدينة ميلوس موزعين العمل على مختلف الكتائب . وبعد ذلك خلفوا بعض الجنود من الاثينيين ومن جنود الحلفاء لحراسة السور ولمحاصرة المدينة براً وبحراً وغادروا آخذين معهم الجزء الاكبر من الجيش . واما الباقون منهم فقد عهد اليهم متابعة حصار المدينة .

استولى اهل ميلوس ، بعد هجوم قاموا به ليلاً ، على جزء من السور الذي بناه الاثينيون والذي يطل على آغورا (Agora)

وقتلوا بعض الجنود واستطاعوا ان يدخلوا مؤونة من الحبوب ومن الضروريات الاخرى قدر استطاعتهم ثم عادوا فانسحبوا الى داخل المدينة وراحوا يترقبون . بعد هـــذه الحادثة اتخذ الاثينيون اجراءات للحراسة اشد صرامة .

بعد فترة من الزمن استولى اهل ميلوس على جزء آخر من السور الذي بناه الاثينيون لان عدد الجنود في ذلك القسم لم يكن بالعدد الكافي لحماية الحصون فيه . فارسلت اثينا مدداً عسكرياً جديداً بقيادة فيلوقراطس ابن ديمياس ، فاحكم الحصار وسد كل منفذ . ثم ان الخيانة دبت بين بعض المواطنين فوجد اهل ميلوس انفسهم مرغمين على الاستسلام بدون قيـــد وشرط . فقتل الاثينيون منهم كل رجل كان في سن الخدمة العسكرية واخذوا النساء والاولاد عبيداً ارقاء ، واستعمروا الجزيرة بارسال خمس مئة مهاجر الى هناك ليتوطنوها .

كانت حماسة الناس للخدمة العسكرية ، وتوقهم الى القيام بأي نوع من العمل، حتى وان اقتضى الامر ان يذهبوا الى ساحة الحرب ، او اي نوع آخر من المغامرة التي قد تخفف عنهم سأم العيش الرتيب، وطموح الرجال الى ان يصبحوا قواداً عسكريين، وحب الشباب للمغامرة وتطلعهم الى الفوز بكنز من ذهب ، هذه العوامل وغيرها دفعت بأهل اثينا الى تجهيز حملة استعمارية ثانية ضـــد سيراكيوز (٤١٥ — ٤١٣ ق. م.) في شبه جزيرة صقلية التي كانت مستعمرة لمدينة كورنثوس . فراح السيبيادس،

وقد اسكره الانتصار الذي احرزه في مغامرته العسكرية ضد ميلوس ، يحرض الاثينيين ويثير حماستهم لتجهيز حملة عسكرية نحو الغرب . وبعد وقت قصير ابحر غرباً اسطولان ضخمان يقلان خمسة واربعين الف جندي من الاثينيين وحلفائهم لم يعد منهم الى اوطانهم سوى العدد القليل . اما نيسياس فقد كان يعارض السيبيادس في سياسته ، وحاول ان يقنع الناس بعدم صواب الامر مبيناً لهم ان عدد السفن وعدد الرجال الذي تقتضيه الحملة غير كاف ، ولكن معارضته ذهبت سدى :

«لم يكن الامل الضئيل بالنصر ليخفف من حدة حماسة الاثينيين بل كان الامر على نقيض هذا ، فانهم وطدوا العزم على خوض غمار هذه الحرب ، ووافقوا على خطته اذ انهم كانوا على ثقة تامة بان السيبيادس قـــد تكفل بازالة كل خطر يهددهم بالهزيمة . فاستحوذ عليهم جميعاً توق شديد للسفر . اما المتقدمون في السن منهم فكانوا يؤمنون بان الاستيلاء على صقلية امر يسير — اذ ان جيشا هذه عدته وسلاحه لا يمكن ان تحل به كارثة عسكرية . واما الشبان منهم فانهم كانوا يتطلعون الى رؤية عجائب البلدان البعيدة ، وكانوا على ثقة انهم عائدون بالسلامة الى اوطانهم . اما الجنود النظاميون فانهم كانوا يتوقعون ان يحصلوا على جوائز كرواتب لهم ، وان يستولوا على بلد امكاناته عظيمة لدفع الرواتب في المستقبل . وكانت حماسة غالبية السكان شديدة حتى ان اولئك الذين كانوا يعارضون كانوا يخافون بان يتهموا في ولائهم

ووطنيتهم اذا ما اقترعوا ضد الحرب ، ولذلك ارغموا على المهادنة ...

«كانت المدينة قد استعادت حيويتها بعد كارثة الطاعون، وكان كابوس الحرب وويلاتها قد زالت حدته ، ونشأ جيل جديد من السكان كان لديه متسع من الوقت لجمع الثروة في اثناء الهدنة . وهكذا توافر لديهم الوفر من كل جانب ...

« حوالي منتصف الصيف تحركت الحملة نحو صقلية ، وكانت الاوامر قد صدرت قبل ذلك الى الحلفاء، والى المراكب الكبيرة التي تحمل الحبوب ، والى المراكب الصغيرة ، والسفن التي تعنى بنقل الذخائر والعتـــاد ان تتجمع كلها في جزيرة كورسيرا (Corcyra) ومن هناك يقلع الاسطول بحملته عابراً الخليج الايوني الى رأس آيبيجيا (Iapygia) . وفي الصباح الباكر من اليوم المحدد للاقلاع نزل اهل اثينا الى ميناء بيرايوس يصحبهم خلفاؤهم الذين انضموا اليهم وصعدوا الى المراكب المعدة لهم . وراحت غالبية السكان تشيعهم ، المواطنون منهم والغرباء النازلون بينهم ، هذا ليودع صاحباً له وذاك ليودع قريباً أو ابناً له . وعندما ابتعدت السفن كنت ترى الدمع في عيونهم ، والامل يفعم قلوبهم . اما من كان الامل يفعم قلوبهم فلانهم كانوا يتطلعون الى الاستيلاء على صقلية ، واما من دمعت عينه فلانه كان يشك في ان يرى صديقه بعد مدركاً ان السفرة بعيدة . وما ان حانت ساعة الافتراق حتى اخذوا يشعرون بدنو الخطر .

عندما اقترعوا الى جانب الحرب ووافقوا على الحملة العسكرية لم يشعروا بالخوف والوجل ، واما الآن فانهم بدأوا يشعرون بان نفوسهم منقبضة . ولكن منظر العتاد البهج والمؤن الكثيرة التي اعدوها بعثت فيهم روح الحماسة . كان الفضول يدفع بالغرباء وبالمواطنين على السواء ، لمشاهدة هذه المغامرة التي تفوق عظمتها حد التصديق .

« لم يكن لأية ولاية اغريقية عهد بمثل هذه الحملة ان في ابهتها او في عظمة قوتها ، الا اذا استثنينا الحملة العسكرية التي وجهها بركليس الى ابيدورس ، ومن بعده الحملة التي وجهها هاغنون الى بوتيديا. فانهما لم تكونا اقل عدة سواء اكان ذلك في عدد السفن ام في عدد الجنود. لان هذه الحملة كانت تتألف من مئة سفينة اثينية من نوع السفن المجهزة بثلاث فرق من المجذفين ، وخمسين سفينة من جزيرة كيوس ، وخمسين من جزيرة لسبوس. وكانت هذه السفن تقل اربعة آلاف جندي من حاملي السلاح ، جميعهم من مواطني اثينا ، وثلاث مئة فارس ، وكتائب عديدة من جنود الحلفاء. ومع ان هذه الحملة كانت حملة معدة الى فترة خدمة طويلة ، ومع انها كانت مهيأة للعمل بحراً او براً حيث تقتضي الحاجة ، اقول ، بالرغم من هذا كله فانها كانت لسفرة قصيرة وكانت معداتها قليلة . اما الذين كانوا يمونون الاسطول ويقومون بنفقاته فقد كانت الدولة وجماعة من القواد الذين كان احدهم يتبرع بتقديم سفينة ذات ثلاث فرق للتجذيف . وكانت الخزينة العامة تدفع

درهماً كل يوم لكل بحّار ، وكانت تجهز للجيش ستين هيكل سفينة سريعة من ذوات الاشرع ، واربعين سفينة اخرى لنقل الجنود . وكانت جميع هذه السفن تجهز باحسن الرجال . وكان القواد الذين يتبرعون بالسفن يدفعون ، اضافة الى ما تدفعه الدولة ، من جيوبهم الخاصة علاوات على رواتب المجذفين من الصنف الاول وبعض العلاوات للجنود من ذوي الرتب البسيطة . وكانت نفقات الزينة والزخرف والاثاث باهظة تفوق كل وصف ، اذ كان هنالك منافسة شديدة بين هؤلاء القواد المتبرعين بالسفن على ان تتفوق سفينة الواحد منهم بالجمال والسرعة على سفن الآخرين . وكان جنود الخيالة من الرجال المنتقين ، ومن قوائم باسماء دقق فيها تدقيقاً جيداً . وكانت المنافسة بين الجنود على اشدها سواء أكان ذلك من جهة السلاح ام من جهة المؤهلات الشخصية . وبينما كان الاثينيون منصرفين الى اتمام واجباتهم الوطنية المختلفة في مدينتهم على احسن وجه ، كان سائر الناس في بلاد الاغريق ينظرون الى هذه الحملة على انها تعبير رائع عن قوتهم وعظمتهم لا على انها مجرد حملة للحرب . ولو ان احداً من الناس حاول ان يعرف مبلغ النفقات التي كانت الدولة والافراد من الجيش يدفعونها ، بما في ذلك : أولاً ما قدمته المدينة وما كان يعهد الى القواد بتقديمه من التبرعات ، ثانياً ما كان ينفقه الافراد على ذواتهم من عدة وسلاح ، وما كان ينفقه المتبرعون بالسفن على سفنهم ، والمؤن التي كانت تعد للسفرة الطويلة ، اضف الى هذا مبلغ الرواتب وما كان يحمله الجنود والتجار من

مختلف السلع للمقايضة بها في الخارج ، اقول ، انه لو حاول احد معرفة مقدار هذه النفقات لوجد ان مبلغاً عظيماً من الدراهم انفق من خزينة المدينة . لقد اذهلت هذه الخطة عقول الناس وصعقتهم روعة الاستعدادات التي كانت مدار حديث الناس في كل مكان ، ومما كان يحير عقولهم ايضاً بعد الشقة بين ضخامة هذه الاستعدادات وبين قوة العدو الموجهة اليه هذه الحملة . اذ لم توجه قبل هذا حملة بهذه القوة والعظمة الى اية بلاد اجنبية ، ولم تخطط قبل هذا اية خطة حربية كان الامل بنجاحها يتوقف في الدرجة الاولى على عامل القوة لا على مجرد التمنيات والاحلام .

« عندما صعدت الجيوش الى مراكبها ، وبعد ان تم تجهيزها بكل ما تحتاج اليه في السفرة ، وقبل ان تقلع المراكب اعلنت فترة صمت وذلك بفضل قرع الطبل ، واشترك جميع من كان على المراكب في تقديم الصلوات التقليدية . لم تكن هذه الصلوات تقام على كل سفينة بمفردها بل كانت جماعية يتلوها مصل واحد يشترك معه الجنود على مختلف المراكب بترديدها . وعلى ظهر كل سفينة كان القواد يشتركون مع البحارة في مزج الخمرة في كؤوس من ذهب وفضة وسكبها قرباناً للآلهة . وكانت جماهير المواطنين والمودعين المتفرجين من على البر يشتركون في الصلاة مع الجنود . وكان النوتية يرتلون ترتيلة الفرح (للإله ابولو) ، وبعد سكب الخمرة كانت السفن تقلع . وبعد ان تكون السفن قد قطعت مسافة ، الواحدة بعد الاخرى في صف واحد ، تعود

فتتفرق كل واحدة تحاول ان تسبق الاخرى الى ايجينا (Aegina) ومن ثم الى كورسيرا (جزيرة كورفو) حيث كانت جموع الحلفاء بجيوشها الاضافية متجمعة هناك بانتظارهم » .

يظن ثوسيديدس ان اثينا خسرت حربها الطويلة مع سبارطة لان الناس اخذوا برأي الزعماء الغوغائيين الذين كانوا يهدفون الى بلوغ غاياتهم الانانية ، اولئك الزعماء الذين استغلوا اسفل الغرائز الجماهيرية . واصر الاثينيون بالرغم من استمرار الحرب ، على متابعة حروبهم الاستعمارية ضد مشورة بركليس . وكانوا دوماً على استعداد ان يدخلوا في صراع حزبي عنيف . وان المرء لا يستطيع ان يتصور امراً اقبح من امر انتقائهم قوادهم ليقودوا الحملة الصقلية . فقد كان من جملتهم نيسياس (Nicias) الذي كان ضد هذه الحرب منذ البدء ، ولاماخوس وهو محارب صنديد ولكنه كان ينتمي الى المدرسة القديمة ، وقد وقع قتيلاً بعد دخوله صقلية بزمن قصير . والسيبيادس الذي استدعته حكومته بعد بدء الحرب بقليل ولكنه هرب وعاد الى صقلية .

وقد نزلت بالجيش الاثيني ، وهو امام مدينة سيراكيوز ، كوارث متعددة حتى انهم وجدوا انفسهم اخيراً مرغمين على ان يشقوا لهم منفذاً في الميناء يهربون منه الى اثينا . وعندما يصف لنا ثوسيديدس الحوادث الاخيرة التي وقعت لهم في تلك الحرب السيئة الطالع نشعر وكأننا نشاهد فصول مأساة تستولي على مشاعرنا .

«كان من العسير اذا اشتبكت سفن بقتال مع سفن اخرى — ولا نعلم ان عدداً من السفن اشتبك في حرب على بقعة صغيرة كهذا العدد ، فان سفن الاسطولين كانت تعد حوالي مئتين — ان يجري القتال البحري على الاساليب المعروفة ، لانه لم يكن باستطاعة سفينة ان تنسحب من المعركة ، او ان تضرب وتهرب ، بل كانت تصطدم السفينة بالاخرى اصطداماً عنيفاً في محاولتها الهرب او في محاولتها تعقب العدو . وكل مرة كانت السفينة تستطيع ان تجد متسعاً للحركة كان الرماة البحريون يمطرون العدو بوابل من الرماح والنبال والحجارة. واذا اقتربت سفينة من اخرى كان الجنود يقتتلون بالايدي يحاولين الاستيلاء على السفينة . وفي مواقع عديدة ، وبسبب ضيق المجال ، كانت السفينة التي تعتقد انها ضربت العدو الضربة الاولى تجد نفسها انها هي التي وقعت في قبضة العدو . في حالات كثيرة كانت السفينة الواحدة تجد نفسها محاطة ومشتبكة مع سفينتين او اكثر اضطراراً ، فكان على القواد ان يضعوا خططاً للدفاع واخرى للهجوم ليس ضد عدو واحد بل ضد سفن اخرى قادمة اليهم من نواحٍ مختلفة . كان اصطدام السفن العديدة بعضها ببعض يفقد الجنود البحريين صوابهم، ولم يكن باستطاعة الواحد منهم ان يسمع اوامر قائـــد السفينة اذ كانت اصوات قواد الاسطولين تختلط وسط الجلبة فلا يستطيعون فهم الاوامر المعطاة الى المجذفين او اصوات الضباط منهم وهم يحثونهم على القتال . كان قواد الاسطول الاثيني يصرخون برجالهم كي يشقوا

لهم منفذاً اذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً كي يهربوا والا خسروا المعركة فلا يعودون الى اوطانهم . اما من الجانب السيراكيوزي فان القواد كانوا يصرخون برجالهم وبجنود حلفائهم قائلين لهم ان عليهم ان يمنعوا اسطول العدو من الافلات وانهم على وشك ان يحققوا لانفسهم ولمدينتهم نصراً مجيداً يفخر به كل فرد منهم. وكان القواد في الاسطول الاثيني، اذا رأوا سفينة تتراجع بدون سبب ، ينادون قبطان تلك السفينة باسمه ويسألونه قائلين : اتتراجعون لانكم لا تتوقعون نصراً على ارض الد اعدائكم او انكم تتراجعون الى البحر ، البحر الذي ندعي دوماً انه لنا ؟ وعلى الجانب السيراكيوزي كان القواد يسألون قبطان السفينة المتراجعة قائلين : انكم تعلمون جيداً ان العدو يفتش عن منفذ له للهرب ، افي هذه الحـالة تتراجعون خوفاً من المنهزمين الهاربين ؟

« بينما كانت المعركة البحرية تتأرجح بين كفتي القدر كان الجيشان على البر يعانيان من التجارب اقساها ، ومن مرارة النفس وتبكيت الضمير الشيء الكثير . كان الفوز بمزيد من امجاد النصر يبعث العزم في نفس الجندي الصقلي ، بينما كان الجندي الاثيني الغازي يتألم مرارة وخوفاً من ان يكون نصيبه مزيداً من الهزيمة النكراء التي اصيب بها . كان الاسطول آخر امل عند الاثينيين في النجاة فكان قلقهم واضطرابهم شديداً . اما المعركة البحرية فقد كانت ، كما قلنا ، تتأرجح بين كفتي

القدر ، ولم يكن في قدرة الجنود الذين وقفوا على البر يشاهدونها ان يكوّنوا فكرة واضحة عن مصيرها، بل كان كل واحد يراها من زاوية معينة . ولكن بمـــا انها كانت معركة قريبة من الشاطىء وبما ان كل جندي كان له رأي في مصيرها فان بعضهم كان يرى ان سفن اسطوله قد ربحت المعركة فتنتعش نفوسهم وتعود اليهم شجاعتهم فيرفعون اصواتهم بالدعاء الى الآلهة الا تحرمهم الأمل بالنجاة . اما اولئك الذين كانوا يرون ان سفنهم قد وقعت في مأزق حرج خطر فكانوا يصرخون صراخ اليأس، وكان منظرهم يدل على ان اعصابهم قد انهارت اكثر مما انهارت اعصاب المشتركين في المعركة انفسهم . واما الآخرون الذين كانت ابصارهم مركزة على جانب واحد من المعركة ، جانب غامض لا يعرف فيه لمن تكون الغلبة فانهم كانوا في حالة عصبية مريرة . فكنت تراهم ، اذا مالت المعركة شمالاً او يميناً مالوا باجسادهم معها ، وعذاب الترقب والخوف آخذ منهم كل مأخذ. فقد كانت النجاة تلوح لهم تارة وشبح الهلاك تارة اخرى . وكنت كلما تأرجح مصير المعركة في كفتي القدر تسمع في معسكر الاثينيين ، في آن واحد ، نواحاً وصراخاً وهزيج الظفر وعويل الهزيمة، وكل نوع من الاصوات الخارجة من اعماق صدور الجماهير التي احاطت بها مخاوف المـــوت . ولم يكن اضطراب الجنود على المراكب باقل من اضطراب الجماعات على البر. واخيراً تمكن الاسطول السيراكيوزي بالتعاون مع حلفائه، وبعد معركة طال امدها ، من ارغام الاثينيين على الهرب من

ساحة المعركة . ثم انهم كروا عليهم ثانية وهم يهزجون اهازيج النصر ويهتفون هتاف الظفر وارغموا سفنهم الى ان تتجه ناحية الشاطىء . واما تلك السفن التي افلتت من قبضة الاسطول السيراكيوزي فانها ايضاً اتجهت ناحية البر في فوضى واضطراب كلي . وما ان قاربت سفنهم البر حتى قفزت الجنود الى البر وسارعت نحو معسكرهم . اما جنود البر الذين كانوا الى حين ينقسمون الى مؤمل ويائس فانهم ادركوا الآن عظم الكارثة فتبعثرت جموعهم وراح بعضهم يحاول الحفاظ على ما تبقى من سفن الاسطول وراح البعض الآخر يدافع عما تبقى من السور الذي بنوه حول المدينة . اما القسم الاعظم من الجيش فقد هرب طلباً للنجاة . لم يصب جيش اثيني من قبل بهزيمة نكراء كالهزيمة التي مني بها في هـــذه المعركة ، ولم يدب في صفوفه الذعر من قبل كما دب فيه هذه المرة . انهم الآن يقاسون ما كان يقاسيه الآخرون على يدهم في بيلوس . ذلك ان اللاقونيين في بيلوس ، عندما رأوا ان اسطولهم قد حطم ، ادركوا انه سيقضى عليهم وعلى حلفائهم الذين عبروا البحر الى سفكتاريا (Sphacteria) لنجدتهم . وهذا ما حدث الآن ، فان الاثينيين عندما رأوا ان العدو قد حطم اسطولهم ايقنوا أن لا امل لهم بالنجاة براً الا اذا حدثت معجزة » .

بعد ان حطم الاسطول لم يبق للاثينيين سوى الانكفاء براً ، او التسليم التام ، كما وقع فعلاً بعد ذلك :

« في اليوم الثالث بعد المعركة البحرية، عندما رأى القائدان نيسياس وديموستينوس ان جميع الاستعدادات قد تمت ، أمرا بتحرك الجيش. كانوا في حالة من اشد حالات اليأس. نعم، كانت خسارتهم الاسطول ، واملهم بالنصر الذي انقلب الى هزيمة تهدد حياتهم وتهدد اثينا باشد المخاطر مصدر غم وحزن ، ولكن كان منظر الجيش وهو يغادر مخيماته اشد وقعاً والماً في نفوسهم. ظلت جثث الموتى على وجه العراء وليس لها من يدفنها فكان الجندي اذا مر ورأى جثة صديق له يأسى ويحزن، وكان مرأى الجرحى والمرضى الذين لم يكن بد من تركهم حيث هم ، مصدر الم نفسي اشد وآلم من مرأى الموتى الذين ماتوا فاستراحوا ؟ كانت صلوات اولئك التعساء ونواحهم تقطع افئدة اصدقائهم وتفقدهم صوابهم. لانهم كانوا يتضرعون الى اصدقائهم ان يحملوهم معهم ، فكان الواحد منهم اذا مر به صديق او قريب يناديه باسمه طالباً اليه العون . وكان الواحد منهم يتمسك بصديقه المار ويتوكأ عليه الى مسافة قصيرة لا يلبث معها طويلاً حتى تكون قد خارت قوته فيقع الى الارض وهو يصرخ ويلعن . فكان كل فرد من افراد الجيش يبكي . وقد بلغ اليأس بهم مبلغاً شلهم عن الحركة بالرغم من انهم كانوا في ارض العدو ، وانهم كانوا يتعرضون الى كوارث لا ينفع معها البكاء، وانهم كانوا يتوقعون ويلات اعظم وادهى في المستقبل الغامض .

«ثم انه فضلاً عن هذا كله كان الواحد منهم يشعر بشيء من

الخزي والعار وتبكيت الضمير . وبالفعل ان شعورهم لم يكن شعور جيش بل شعور قوم هاربين من مدينة وقعت في يد العدو بعد حصار طويل . كانوا يعدون حوالي اربعين الف رجل ، وكان كل واحد منهم يحمل ما استطاعت يده الوصول اليه املاً ان يكون فيه بعض الخير على الطريق . حتى ان الجنود الكاملي السلاح والخيالة كانوا يحملون زادهم وهو أمر مخالف للعرف ، وذلك لان بعضهم لم يكن له خادم ليحمل له امتعته ، أو لأن الواحد منهم لم يكن ليثق باحد يسلمه هذه الحوائج . هذا ، مع العلم انهم كانوا يهربون من الخدمة العسكرية وجلهم هرب فعلاً . ولم يكن الزاد الذي حملوه ليكفيهم مدة طويلة لان المؤن في المخيمات كانت قد نفدت . كان شعورهم بالخزي والعار ، وكان الشقاء العام الذي يعانونه في تلك الآونة مما لا يطيق بشر ان يتحمله – نعم ، كان هنالك عزاء واحد وهو ان المصيبة قد جمعت بينهم – لا سيا وانهم يعلمون انهم هبطوا من عالي مجدهم وعزهم الى اسفل درجات الهوان . ولا نعلم في التاريخ هزيمة نكراء مني بها جيش اغريقي تضاهي في فداحتها هذه الهزيمة . فانهم جاؤوا ليستعبدوا شعباً واذا بهم يهربون خوف الوقوع في الاستعباد ، وعوضاً عن الصلوات التي تلوها والتراتيل التي رتلوها قبل اقلاعهم عادوا ادراجهم وعلى شفاههم انواع اخرى من الكلام ومن التعبير . ليسوا الآن بحارة تعتمد الاساطيل بل جيوشاً برية تعتمد على المشاة . ولكن بالرغم من انهم كانوا يعانون هذا الشقاء وبالرغم من ان الخطر المحدق بهم كان يهددهم جميعاً بالهلاك ، فانهم كانوا يتحملون جميع هذه الأمور ...

« عندما اطل الصباح اخذ نيسياس بالتراجع مع جنوده ، غير ان جيش سيراكيوز مع حلفائه ، تابع مهاجمتهم من كل صوب مطريهم وابلاً من الرماح والنبال. فأسرع الجيش الاثيني قاصداً بلوغ نهر اشيناروس (Assinarus) . انهم كانوا يأملون ان ينالوا شيئاً من الراحة عند عبورهم هذا النهر، لان نواة جيش العدو من الخيالة والمشاة كادت تقضي عليهم . وكان الاعيـــاء من جراء الاجهاد والعطش شديد الوطأة عليهم. ولكنهم ما كادوا يبلغون النهر حتى عمت الفوضى بينهم، وزال كل نظام، فهجموا على الماء، وحاول كل بمفرده ان يعبر النهر لينجو اولاً، بينما كان ضغط العدو عليهم شديداً مما جعل عبور النهر امراً صعب المنال. ولانهم كانوا مرغمين على ان يبقوا كتلة متراصة في وجه الخطر فانهم كانوا يتزاحمون فيسقط الواحد على الآخر ، وبعضهم لاقى حتفه تحت سنابك الخيل وبعضهم مات مطعوناً بسيفه او رمحه الذي وقع عليه ، وبعضهم الآخر الذي كان يعنى بأمر العتاد والامتعة غرق في النهر. وكان الجيش السيراكيوزي متربصاً لهم على الضفة المقابلة من النهر ، والمكان شديد الانحدار فكانوا يرمون الاثينيين بوابل من النبال بينما كانوا في مجرى النهر كتلة متراصة تحاول ارواء عطشها . ثم ان البيلوبونيسيين نزلوا اليهم من اعالي التلال وقضوا عليهم لا سيما اولئك الذين كانوا في مجرى النهر. فتلوثت مياه النهر فوراً ولكن هذا لم يمنع العطاش منهم ان يشربوا ماء كدراً مشوباً بدم الجنود ، وليس هذا فحسب انما كانوا يتزاحمون للوصول الى هذا الماء .

«واخيراً، وبعد ان تكدست الجثث في النهر اكداساً، وبعد ان قضي على الجيش قضاء مبرماً ، بعضهم غرقاً والبعض الآخر أسراً على ايدي الخيالة ، نقول ، بعد هذا استسلم القائد نيسياس الى جيلبوس الذي كان يثق به اكثر مما كان يثق باهل سيراكيوز. وقد توسل نيسياس اليه والى اللاقونيين ان يفعلوا به ما يشاؤون على الا يستمروا بقتل الجنود ، فوعده جيلبوس خيراً وامر ان يكف الجيش المنتصر عن القتل ويستعيض عنه بالاسر ...

«ان الاسرى الذين فرض عليهم العمل الشاق في مقالع الحجارة لاقوا ، اولاً، من العذاب الواناً على ايدي السيراكيوزيين. وكان عدد الاسرى كبيراً، وكانوا يعيشون في مكان ضيق عميق. ففي النهار ، ايام الصيف ، كانت تحرقهم اشعة الشمس اذ لم يكن هنالك سقف يظللهم ، وفي الخريف كانت الليالي قارسة البرد ، وهذا التباين بين درجات الحرارة كان السبب في علل وامراض خطيرة. ولانهم كانوا يعيشون في مكان ضيق فانهم كانوا يقضون جميع حاجاتهم في المكان ذاته . وكانت جثث الذين ماتوا من جراحهم ، او من تعرضهم الى الحر والبرد تتكدس بعضها فوق بعض ، ناهيك عن الروائح المنبعثة منها ، والى جانب هذا البلاء كانوا يعانون الجوع والعطش . كان يوزع عليهم في الثمانية اشهر حوالي نصف ليتر من الماء ونصف ليتر من الطعام لكل فرد في النهار الواحد . وهكذا حل بهم شقاء واصابهم بلاء من كل نوع يمكن ان يحل بالبشر في ظروف كهذه الظروف . على هذه الحال

ظل جميع الاسرى حوالي عشرة اسابيع . وفي آخر الامر باعهم السيراكيوزيون بيع العبيد باستثناء مواطني اثينا وبعض الايطاليين الاغريق او الصقليين الذين انحازوا اليهم في الحرب . ولا يعلم على وجه الضبط عدد الاسرى الذي بيعوا بالمزاد العلني ، ولكن لا يمكن ان يكون العدد اقل من سبعة آلاف اسير » .

ونحن اذا اعتبرنا جميع الحوادث التي وقعت في هذه الحرب الهلينية، لا بل في جميع الحروب الهلينية التي دونت لنا اخبارها، نجد ان هذه الحوادث كانت اعظمها واشدها قسوة — اعظمها بالنسبة الى المنتصر ، واشدها قسوة بالنسبة للمغلوب، لان النصر كان نصراً تاماً من جميع الجوانب وفي كل واقعة من وقائع المعركة ، فكان عذاب المغلوبين وبلاؤهم عنيفاً شديداً . قضي على الاسطول قضاء مبرماً فاختفى وجوده من على البحار ، وكذلك زال الجيش ولم يعــــد له من اثر ، ولم يكن باستطاعة الاثينيين ان يخلّصوا شيئاً واحداً، ولم يرجع من الجموع الكثيرة الى الوطن سوى قلة قليلة .

هكذا كانت نهاية الحرب الصقلية .

بعد كارثـــــة الحرب الصقلية تدهورت معنويات الاثينيين بصورة لا يمكن تصورها، فلم يكن في قدرة اثينا استعادة روحها الهجومية . ولكنهم ثابروا وصبروا مدة تسع سنوات راحوا يعيدون فيها بناء اسطول جديد، وعندما عرضت عليهم سبارطة الصلح رفضوا ذلك بإباء ، ومع ان الاسطول السيراكيوزي ظهر

في البحر الايجي، ومع ان الفرس وعدوهم بالعون العسكري والمالي، وبالرغم من ان حلفاء اثينا اعلنوا الثورة عليها، وبالرغم من قيام ثورة قصيرة اعلنها التجار والاغنياء في اثينا، فان الاثينيين صمدوا وثابروا في اعمالهم. وبفضل مشورة السيبيادس سمح لسبارطة بانشاء قاعدة عسكرية في اتيكا مما دفع السكان ان ينزحوا الى مدينة اثينا ليقيموا فيها طوال السنة وليس كالسابق عندما كانوا يأتون المدينة في اثناء اشهر الصيف عندما كانوا يستعدون للحملات العسكرية. اما البلاء فقد زاد قسوة واما الغذاء فأوشك على النفاد، وكانت واردات الدولة المالية قد بلغت الحضيض.

بقي ثوسيديدس حياً الى ما بعد الحرب البيلوبونيسية بسنوات عديدة، ولكنه توفي قبل ان ينهي كتابة تاريخه. ولذا نعتمد مؤرخاً اثينياً آخر يخبرنا عن سقوط اثينا هو زينفون (Xenophon). لقد ترك لنا وصفاً بليغاً مؤثراً عن الايام الاخيرة للامبراطورية الديمقراطية عندما وصلت سفينة الدولة ذات الطبقات الثلاث المسماة بـ «بارالوس» الى ميناء بيرايوس تنقل الخبر المفجع بان بقية الاسطول الاثيني الذي كانوا يتكلون عليه في النجاة قد حطم وقتل رجاله في المعركة :

« ... كان الوقت ليلاً عندما بلغت السفينة «بارالوس» ميناء بيرايوس حاملة الاخبار المفجعة التي عند سماعها تفجرت حناجر الناس بصراخ البكاء والعويل. وعلى جوانب السور الطويل من

بيرايوس الى اثينا كانت الاخبار تنتقل من جار الى جار فيعم البكاء ويزداد العويل . لم يعرف احد طعم النوم في تلك الليلة . نعم كانوا يبكون القتلى وينوحون عليهم فيمتزج بكاؤهم ونواحهم بالعويل على انفسهم لانهم ادركوا ان البلاء الذي سيتعرضون اليه سيكون اشد وقعاً من البلاء الذي اوقعوه هم انفسهم باهل ميلوس التي كانت مستعمرة" للاقونيين ، والتي وقعت في قبضة يدهم بعد حصار طويل . تذكر الاثينيون الآن ما فعلوه باهل هستيا وسيونه وتورونه وايجينيه ومدن هلينية اخرى كثيرة . وفي اليوم التالي اجتمع المجلس العام وبعد نقاش اتخذ قراراً باغلاق جميع الموانىء باستثناء ميناء واحدة ، وباعادة تحصين السور ، وباقامة حاميات هنا وهناك للمراقبة والحراسة ، وباتخاذ اجراءات ضرورية لاعداد المدينة لحصار طويل . هذه الامور كانت في نظر الاثينيين مما يجب الاهتمام بها ...

«واذ وجد الاثينيون انفسهم محاصرين براً وبحراً فانهم وقعوا في حيرة من امرهم لا يعلمون ماذا يفعلون . وقد تملكهم الاعتقاد بان لا امل لهم بالنجاة ، فلا سفن لديهم ولا حلفاء ولا مؤن ، وعليهم الآن ان يقاسوا من البلاء والشر ما قاسته المدن والولايات التي وقعت في قبضتهم . وما انزله الاثينيون من بلاء وشر في غيرهم لم يكن لثأر ولا لأذية اصابتهم على يدهم وانما كان تعدياً ووقاحة ، فراحت جموع الاثينيين تستعبد سكان دويلات صغيرة لا لسبب سوى انها كانت تحالف الدول التي وصلت جيوشها الآن

الى بوابات المدينة . وهم في هذه الحالة الروحية راحوا يحررون كل من فقد ، في يوم من الايام ، حقوقه المدنية ، ويروضون انفسهم على الصبر والجالدة ، وبالرغم من ان الجوع أخذ منهم مأخذاً فان قضية الصلح مع العدو او مهادنته لم تكن واردة اطلاقاً . ولكن عندما فرغت اهراء الحبوب او كادت وايقنوا انها لم تعد تكفي ، ارسلوا الى اجيس (Agis) وفداً يقترح ان يصبح الاثينيون حلفاء للاقونيين على شرط واحد وهو الابقاء على تحصينات الاسوار وعلى الاحتفاظ بميناء بيرايوس ، وان تعقد معاهدة فيما بينهما على هذا الشرط . فامرهم اجيس ان يتوجهوا الى لاقونيا لانه لم يجد نفسه ذا سلطة ليتصرف في هذا الامر . حمل الوفد طلب اجيس ورجعوا الى اثينا ، ومن هنا امروا بالتوجه فوراً الى لاقونيا . وعندما وصلوا الى سلاسيه ، وهي مدينة تقع في منطقة لاقونيّة ، اقاموا هناك ينتظرون جواب الحكام الذين عندما علـــوا بشروط الاثينيين (وهي الشروط ذاتها التي عرضوها على اجيس) امروهم بالانصراف فوراً قائلين لهم انهم اذا كانوا حقاً يريدون الصلح فعليهم ان يرجعوا اليهم ثانية ومعهم اقتراحات غير هذه الاقتراحات التي ان دلت على شيء فعلى انها اقتراحات لم تكن نتيجة تفكير متزن . وهكذا عاد الوفد الى بلاده ليقدم تقريراً عن مهمته ، وما ان سمع الرسميون حقيقة الخبر حتى عم اليأس جميع الناس . ان مجرد التفكير بانهم سيباعون ، آخر الامر ، بيع الرقيق كان مبعث حزن واسى . والى ان يعود الوفد الثاني الذي اوفدوه للمفاوضة

يكون عدد كبير من الناس قد مات جوعاً . ولم يجرؤ احد ان يوعز بان الحل هو هدم التحصينات من أساسها ، اذ ان انساناً يدعى ارخستراتوس تساءل مرة في المجلس اذا لم يكن من الافضل لهم ان يعقدوا هدنة مع اللاقونيين على مثل هذه الشروط التي يمكن ان يقبلوا بها ، ولكنه ارسل الى السجن لمجرد الايعاز بمثل هذا الامر . كانت المقترحات التي تقدم بها اللاقونيون، والتي اشرنا اليها آنفاً ، تنص على ان يهدم الاثينيون السورين الطويلين على مسافة تزيد عن الميل قليلاً . فاصدر المجلس قراراً يحظر على أيٍّ من الناس ان يقترح تهديم الاسوار والا تعرض صاحب الاقتراح للملاحقة قانونياً . وبعد ان وصلت الامور الى هذا المأزق تقدم ثراميس من المجلس العام بالاقتراح التالي : لكم ، اذا شئتم ، ان تبعثوا بي سفيراً الى ليسندر فاني على استعداد ان اذهب واسأله لماذا يصر اللاقونيون على عنادهم فيما يتعلق بتهديم الاسوار ، واحاول ان اعرف منه اذا كان في نيتهم استعباد المدينة او انهم يريدون ضمانات تضمن لهم حسن نيتنا من جهتهم . فوافق المجلس وارسله الى ليسندر حيث طال مكثه هناك مدة تزيد على ثلاثة اشهر مؤملاً ان يستسلم الاثينيون في آخر لحظة عندما تشتد المجاعة فيقبلون باية شروط تعرض عليهم ...

« وصل ثراميس وصحبه بلدة سلاسيه وعندما سئلوا عن مهمتهم اجابوا انهم حضروا ومعهم الصلاحيات التامة للمفاوضة

في امر الصلح . عند ذلك امر الحكام ان يمثلوا امامهم . وعندما حضروا عقد اجتماع عام حرض فيه اهل كورنثوس ، واهل ثيبس بوجه خاص، سائر الاغريقيين الا ينتهي الاجتماع هذا بنوع من الصلح بل يجب القضاء على الاثينيين قضاء تاماً . فأجاب اللاقونيون انهم لن يستعبدوا مدينة كانت في يوم من الايام جزءاً لا يتجزأ من بلاد الاغريق ، مدينة ادت خدمات للبلاد باسرها عندما كانت البلاد تمر في احرج ساعات الخطر . ان وجهة نظرنا على النقيض من هذا، قال اللاقونيون ، نحن على استعداد ان نصالح الاثينيين على الشروط المقترحة الآن وهي كما يلي : « يجب هدم الاسوار الطويلة في ميناء بيرايوس والتحصينات فيها، وعلى الاسطول الاثيني ، باستثناء اثنتي عشرة سفينة ، ان يستسلم ، ويجب عودة الاسرى منهم الى وطنهم . واخيراً على اثينا ان تعترف بزعامة سبارطة ، في السلم كما في الحرب ، وبان لها ملء الحق ان تختار من تشاء من الاصدقاء الحلفاء وان تعادي من تشاء من الاعداء ، وان تتبع اية سياسة ترتأيها في البر والبحر » . هذه كانت الشروط التي حملها ثراميتس وصحبه الى اهل اثينا ليعرضها على الحكام . وعندما دخلوا المدينة تجمهر الناس حولهم مرتعدين خوفاً من ان يكون الفشل قد حالفهم في مهمتهم . اذ لم يكن باستطاعة الناس حقاً ان يتحملوا بعد تأجيل البت في امر الصلح ، فان اعداد الناس الذين يموتون جوعاً تزداد يوماً بعد يوم . وفي اليوم التالي رفع الوفد تقريره ، وذكروا الشروط التي يقبل بها اللاقونيون لعقد الصلح . وكان ثراميتس

يتكلم بلسان الوفد وقد حث الاثينيين على ان ينصاعوا الى شروط اللاقونيين فيهدموا الاسوار . وقـــد ابدت اقلية في الاجتماع اعتراضها على الشروط ، غير ان الغالبية وافقت على الشروط وهكذا اقر المجلس قبول شروط الصلح. وبعد هذا ابحر ليسندر الى ميناء بيرايوس ، وعاد الاسرى ، وهكذا شرعوا فوراً بتهديم الاسوار والحصون ، وبحماسة بالغة وعلى انغام الناي تعزفه النساء . وقد اعتبر ذلك اليوم بدء تحرير بلاد الاغريق » .

ولقد كان ذلك اليوم حقاً فاتحة عهد جديد، عهد تحرير بلاد اليونان على انغام الناي وعلى انقاض تهديم الاسوار التي شيدتها ديمقراطية عظيمة . لقد فقدت الكلمات معانيها ، كما فقد الكثير من عناصر الحضارة الاغريقية معناه ايضاً .

٧ المستقبل

يجهد المؤرخ توينبي في كتابه المثير « العالم والغرب » لتبيان المآتي والمفاخر التي قدمتها الشعوب القديمة للحضارة علّها تعيننا في تفهم مصيرنا نحن . يقول اذا حاولنا ان تنفذ بعين الخيال الى تاريخ الغد الذي لم يكتب بعد علينا « ان ننظر في تاريخ اللقاء الحضاري الذي تم بين الاغريق والرومان وبين مختلف الشعوب. لاننا نجد في سجل هذا اللقاء الحضاري ملخصاً للتاريخ منـــذ بدايته الى نهايته ، ويصبح هذا السجل القديم كتاباً مفتوحاً في متناولنا لننظر فيه . وقد يكون في استطاعتنا ، بعد ان نكون قد استوعبنا العبر في هذا السجل التاريخي للاغريق والرومان ، ان نحل رموز المستقبل الغامض الذي ينتظرنا » . هـــذا الذي يقوله توينبي يجعلنا نتقبل حكم اللورد اكتون في التاريخ عندما قال : « ... ان كان للتاريخ من نفـــع فهو تفهم الازمنة الحاضرة » .

يتابـع توينبي كلامه فيخبرنا ان الرومان ، بعد ان افتتحوا بلدان الشرق عسكرياً ، وقع هجوم معاكس من قبل الشرق ، أعني اجتياح الاديان الشرقية بلدان الغرب . وقـــد ظن بعض

الذين راجعوا هذا الكتاب ان توينبي انما يشير الى ظهور قوة في الشرق – الشرق الذي يخضع الآن تكنولوجياً للغرب – تجتاح الغرب مرة ثانية ألا وهي الشيوعية . غير ان توينبي نفى هـذا الظن نفيـاً قاطعاً في كتاب ارسل به الى « الملحق الادبي للندن تايمز » بتاريخ ١٦ نيسان ، ١٩٥٤ ، وأضاف التوضيحات التالية عن رأيه في المستقبل :

« أظن ان الغرب مقبل على اعتناق دين ما شبيه بالبوذية او الميثرائية (Mithraism) او المسيحية ، يدعوه الى عبادة إله لا يكون تأليهاً لذواتنا نحن ... وأظن ، كذلك ، ان الغرب والعالم كلاهما ، سيرتدان عـن عبادة العقائد – كالشيوعية والفردية العلمانية – التي يأخذ بها الناس ، ليعتنقا ديناً شرقياً لا يصدر عن روسيا او عن الغرب . وأظن ان هذا الدين سيكون الديانة المسيحية التي ظهرت في فلسطين ، واعتنقها الاغريق والرومان ، ولكن بعد حذف احد عنصرين في الديانة المسيحية التقليدية والاستعاضة عنه بعنصر جديد من الهند . واني أتوقع، لا بل آمل ، ان يشمل هذا التجسد الجديد او التجلي الجديد في المسيحية، رؤيا جديدة وفكرة جديدة عن الله، وهي انه محبة . وفي الوقت ذاته أتوقع ، لا بل آمل ، ان تتخلى المسيحية عن نظرتها التقليدية الى الله انه « إله غيور » وان تطرح جانباً فكرة تمجيد هذا الإله الغيور ، الذي هو إله شعب مختار ، على انه إله وحيد فريد . هنا مجال للهند ان تقدم للبشرية شيئاً جديداً ،

وهو اعتقادها (وهذا الاعتقاد متمم للفكرة ان الله محبة) ان هنالك اكثر من سبيل واحد ، سبيل منير واضح ، لفهم كنه هذا الكون وأسراره العجيبة » .

ولو ان الامر على مثل هذه السهولة ، لكان هذا القول بمثابة بديل فيه طرافة ومتعة . اذ مما لا شك فيه هو ان ديانة يمكن لجميع الناس ان يعتنقوها ، وتستطيع ان تحل محل الدولة التي ترعاها وتتعهدها ، تشكل ظاهرة جديدة ، وتمثل تغييراً حاسماً في تاريخ الانسان. وفي الواقع ان القضية التي نحن بصددها ليست قضية ظهور قوة مزمعة ان تعصف بنا وان تقتلعنا كما فعلت المسيحية بالحضارات القديمة ، بل انها قضية تعنى بكيفية تبديل وجهة نظر الانسان القديم الى الحياة وكيف انه استبدلها بوجهة نظر اخرى . ان الرغبة في التبديل والتغيير تسبق التغيير ذاته ، وقد تبقى هذه الرغبة في التغيير قائمة مدة طويلة ، لهذا فان لها أهمية خاصة في حياتنا المعاصرة ، بينما التغيير ذاته ليس بالامر المهم لانه قد يتخذ شكلاً مختلفاً من مدة الى اخرى .

من حقائق التاريخ المذهلة ان كل أمة من الامم القديمة ذات النفوذ والعظمة في حقـــل السياسة أقامت لنفسها اولاً نظاماً ديمقراطياً ثم ، مع مر الزمن ، فقدت ثقتها بالنظام الديمقراطي الذي وضعته وخضعت لحكم رجل فرد، كما حدث عندما بلغت بلاد الاغريق ذروتها في النصر ، وكان رجلها الحاكم الفرد الاسكندر المقدوني العظيم ، وأوغسطوس قيصر عند الرومان . ونحن اذا

استطعنا ان نجد السبب في ايمان الناس بامكانات الديمقراطية ثم في تخليهم عنها ، ليس مرة واحدة في سياق التاريخ او مرتين بل مرات متتالية ، اقول ، اذا استطعنا ان نتوصل الى معرفة الاسباب الحقيقية لهذه الظاهرة فاننا نكون قد اكتشفنا اهم سر من اسرار عِبرَ التاريخ .

انه لمن سخرية القدر ان يفكر الواحد منا ان انتصار روما « المجيد » على هنيبعل اسفر عن قيام مشكلات تكاد لا تجد لها حلاً . كانت نتيجة أزمة تلك الحرب الطويلة ، بينما جل المواطنين متغيبون في ساحات المعارك ، ان اغتصب مجلس الاعيان ، شيئاً فشيئاً ، حتى التفرد بالحكم . وعندما انتهت الحرب واستمرت روما في تثبيت قواعد امبراطوريتها بنجاح بدأ المواطن العادي يشعر انه يؤثر ان يترك مجلس الاعيان يدير دفة الحكم . هل يمكن العودة الى الحكم الديمقراطي ، وما موقف الناس من التيارات والمؤثرات الاجنبية (لا سيما اثر الاغريق الذين خبروا هذه الامور حسناً) وما هي السبل التي يجب اتباعها في ادارة الحكم في المقاطعات التي ضمت الى امبراطوريتهم ، وماذا أعد لمجابهة مشكلة ازدياد السكان في المدن الذين كان معظمهم من الفلاحين النازحين عن مزارعهم بسبب الخراب الذي اصابهم على يد هنيبعل ؟ وحوالي منصرم القرن الثاني ق. م. حاول الاخوان ، طيباريوس ، وغايوس غراكوس ، ان يجدا حلاً لهذه المشكلات ، ولكن عندما وقف صف المعارضة في وجه

الاخوين محاولاً صدهما عن اتخاذ اية اجراءات من ذلك القبيل وجد العالم القديم نفسه في وسط خضم من النزاع المرير . وانتهت الثورة الرومانية التي دامت قرناً من الزمن ، والتي كانت غايتها تحسين حالة الطبقات من سكان المدن ، بسقوط الجمهورية الديمقراطية ، وبإقامة الامبراطورية مكانها ، وبسيطرة الطبقة الارستقراطية على شؤون الحكم . فهل يسفر الصراع الحزبي عن يأس ، وعن رغبة في التبديل وعن فوضى في الحكم ، وعن فقدان حقوق الفرد المدنية ؟

اما الشعب الاغريقي ، تقوده اثينا ، فقد سبق ان مر في اختبار شبيه بالاختبار الذي مر فيه الرومان . ان السياسة التحررية تولد الديمقراطية والقوة، ولكن عندما حرمت الجماهير الناقمة حق الاشتراك التام في بناء الحضارة استطاع الزعماء الاثانيون الطامعون ان يدفعوا بتلك الجماهير الى اقصى حد من التطرف العنيف . فكانت النتيجة صراعاً بين الاحزاب ، ونشوب حروب وقيام حكم فردي . غير ان الثورات التي قامت في اثينا وفي روما كانت تختلف في النوع. ففي إثينا كانت الثورة ثورة صراع طبقي غايته رفع جماهير الشعب بمن فيهم من الصعاليك الى القمة – وفي هذا تعليق كاف على مدى اثر بركليس – بينا كانت الثورة في روما صراعاً بين احزاب ارستقراطية .

هنالك اسباب عديدة تفسر لنا خسارة اثينا الحرب ضد

منافستها سبارطة . فهنالك الصراع الحزبي ، وجشع الجماهير وتطرفها البشع ، وهنالك قائمة طويلة بالزعماء الغوغائيين الذين ذكرهم لنا ثوسيديدس . ولكن مما لا ريب فيه ان الحرب البيلوبونيسية كانت شراً ووبالاً على المنتصر ذاته كما كانت على الخاسر . وبالرغم من ظهور مفكرين عظماء امثال افلاطون الذي عاش في القرن التالي ، فان الفردية والولاء الضيق للحزب او للقبيلة اخذا يحلان محل الولاء للدولة . ولربما كان هذا امراً محتماً وقوعه لانه بزوال الامبراطورية الاثينية وبتلاشي الآمال التي كان الناس يعللون بها نفوسهم من استقرار وازدهار ، أخذ الناس يفكرون اولاً بذواتهم وبالطبقة التي كانوا ينتمون اليها ، وهذا امر طبيعي .

وبكلام آخر كان القرن الرابع ق. م. يمثل فترة انحلال وتفكك في المجتمع ، فترة تتميز بالحزبية ، وباليأس والقنوط ، وبالتحاسد بين الفقير والغني ، وبانسحاب الطبقة المثقفة النيرة من ميدان السياسة . لقد استعاض الناس عن فقدهم الثقة بالمدينة الدولة بنظرتهم الجديدة الى دولة أوسع رقعة ، دولة يكون المجال فيها ارحب للتطلع الى المستقبل على مستوى عالمي عوضاً عن التطلع الى سياسة اقليمية ضيقة .

كان بعض مفكري الاغريق ، مثلاً ، يقولون انه من المؤسف حقاً ان الشعب الاغريقي ، عوضاً عن ان يجمع امره على محاربة عدو مشترك ، راح يسرف في الاقتتال بين الاخ واخيه . وراج

بعضهم يقول ان الحل الوحيد الذي يخلصهم من جميع متاعبهم هو اقامة الملكية . هاتان الفكرتان تجسدتا في الرأي العام فنشأ اعتقاد أخذ به الاغريق وهو ان عليهم ان يتحدوا في ظل نظام ملكي، وان تكون حروبهم ضد عدو مشترك . وفي الواقع انه لم ينصرم القرن الرابع حتى كانت بلاد الاغريق تعيش تحت ظل نظام كهذا، لان الشعب الاغريقي كان قد أرغم على الاتحاد تحت ظل تاج الاسكندر المقدوني ، وذلك في حرب ضد الفرس. ولا شك في ان الاسكندر كان عاملاً قوياً في بعث الحضارة الاغريقية ولكن في خط يختلف عن الخط الاثيني الذي عهدناه زمن بركليس .

لقد كان افلاطون على حق ، وهو ينظر في تعقد الحياة ومتناقضاتها التي وصل اليها القرن الرابع — وقد كان في وضع ملائم يساعده على تفهم ذلك الوضع — عندما قال وهو يحاول ان يفهم اسباب سقوط اثينا وبصورة خاصة مشاكل الانسان ذاته ، ان على الناس ، في اي عصر كانوا ، ان يلجأوا الى نور العقل اذا كانوا يأملون ان يتوصلوا الى الحياة الصالحة واذا أرادوا تجنب الكوارث والمصائب في العصر الذي يعيشون فيه. يقول سقراط ، وهو يتكلم مع غلوكون (Glaucon) ، في الفصل السابع من كتاب « الجمهورية » في المثل الشهير الذي ضربه عن الكهف :

« والآن اسمحوا لي ان أريكم عن طريق المثل الى أي

مدى بلغت طبيعتنا البشرية طريق الهـــدى والعقل والى اي مـــدى تبعد طبيعتنا هذه عن الهدى والعقل . تأملوا أناساً يعيشون في كهف تحت الارض له نافذة واحدة في سقفه يدخل منها النور فيشع في جوانب الكهف . وهؤلاء الناس يعيشون في هذا الكهف منذ طفولتهم وأرجلهم وأعناقهم مكبلة بسلاسل تمنعهم من الحركة ، ولا يستطيعون ان يروا سوى الذي يقع امام عيونهم لانهم لا يستطيعون ان يلتفتوا يسرة او يمنة . وأمامهم ووراءهم نار تشتعل على مقربة منهم ، وبين النار والسجناء طريق مرتفعة . واذا انعمتم النظر جيداً تروا حائطاً منخفضاً على جانب هذه الطريق كالحائط الذي ترونه عندما تشاهدون الدمى التي تحركها خيوط يمسك بها انسان وراء الحائط .

« انا استطيع ان ارى هذا . هل ترون انتم اناساً يسيرون حذاء هذا الحائط يحملون شتى الآنية والمواعين وتماثيل حيوانات مختلفة مصنوعة من الخشب او الحجر وادوات اخرى كثيرة لا يظهر منها الا رؤوسها وراء هـــذا الحائط الحاجز ؟ بعضهم يتحدثون والبعض الآخر صامتون .

« — لقد اريتني مشهداً غريباً . انهم سجناء على كثير من الغرابة .

« فاجبته : الا يشبهوننا ؟ انهم لا يرون سوى ظلالهم او الظلال التي يلقيها ضياء النار على الحائط المقابل لهم في الكهف .

« قال : هذا صحيح . كيف يستطيعون ان يروا شيئاً سوى الظلال طالما هم مكبلون لا يقوون على تحريك رؤوسهم ؟

« — والآنية والاشياء المختلفة التي يحملونها هل يرون سوى ظلالها؟

« فاجاب : نعم .

« — واذا استطاعوا ان يتحدثوا الواحد منهم مع الآخر ، الا يظنون انهم انما يتحدثون عن الامور التي تمر امامهم ؟

« — وهذا صحيح ايضاً .

« — ولنفترض الآن ان للسجن صدى يسمع من الجانب الآخر من الكهف ، اليس من المؤكد انهم يتخيلون الصوت الذي سمعوه انه صوت احد هذه الظلال المارة ؟

« اجاب : ليس في ذلك شك .

« — قلت لهم : ان الحقيقة المجردة ليست سوى ظلال الصور .

« — هذا اكيد .

« — والآن، انظروا مرة اخرى، واعتبروا ماذا يحدث لو ان المساجين اطلق سراحهم وغفرت ذنوبهم . اولاً ، ان السجين الذي تحل قيوده ويضطر فجأة ان يقف على رجليه ، وان يدير رأسه يمنة ويسرة ، وان يمشي ويتطلع الى النور يشعر بألم حاد شديد ، ويتضايق من النور الساطع الذي يبهر عينه ، ولا يستطيع ان يدرك كنه الحقائق التي رأى ظلالها عندما كان

سجيناً مقيداً . ثم تخيلوا احد الناس يقول له ان ما رآه سابقاً انما كان سراباً خداعاً ، ولكن الآن ، وهو يستعيد ذاته ، ويقترب من الوجود الحقيقي، فان عينه ترى الامور على حقيقتها، فماذا عساه ان يجيب ؟ وتخيلوا ايضاً ان معلمه الجديد يشير الى الاشياء وهي تمر تحت بصره فيسأله ان يسمي هذه الاشياء ، الا تظنون انه يحار في امره ؟ الا يتخيل الظلال التي رآها سابقاً اقرب الى الوجود الحقيقي من الاشياء التي يراها الآن ؟

« — هذا حق .

« — واذا طلب اليه ان يتطلع في النور امامه، الا يشعر بألم في عينيه فيميل ببصره محاولاً ان يعود الى الاختباء وراء الظلال التي يتصورها اقرب الى الحقيقة من الاشياء الملموسة التي طلب اليه ان يتطلع فيها ؟

« اجاب : هذا صحيح .

« — ولنفترض ثانية انه جُرّ جراً على سفح وعر وأُصعد الى قمة وأمسك به وُطلب اليه ان ينظر الى الشمس ذاتها ، الا يتألم وينزعج ؟ لانه عندما يقترب من ضوء الشمس يبهره ضياؤها فلا يستطيع اذ ذاك ان يرى من الامور الحقيقية شيئاً على الاطلاق.

« — فقال : لا يتم مثل هذا كله في لحظة واحدة .

« — عليه ان يألف منظر العالم الفوقاني. وفي بادىء الامر يرى الظلال احسن مما كان يراها سابقاً ، ويرى خيالات الناس

والاشياء تنعكس على وجه الماء ثم الاشياء ذاتها . ثم انه يتطلع الى ضوء القمر والنجوم والسماء المتلألئة ، ويسهل عليه رؤية الفلك والنجوم ليلاً اكثر مما يستطيع رؤية الشمس او نورها نهاراً .

« – هذا امر اكيد .

« – واخيراً يستطيع ان يرى الشمس لا مجرد انعكاسها على وجه الماء بل في مكانها المعين لها ، لا في مكان آخر ، ثم يفكر بكنهها لا بمظهر من مظاهرها .

« – هذا امر اكيد .

« – ثم انه يتقدم خطوة ثانية فيؤكد لنفسه ان الشمس هي سبب تقسيم السنة الى فصول والى سنوات ، وان كل شيء في هذا العالم المنظور يقع تحت سيطرتها ، وانها (الشمس) بصورة عامة، علة كل شيء يقع تحت بصره ، وبصر رفاقه الذين كانوا معه في الكهف .

« قال : ان رؤيته الشمس أولاً امر اكيد ، ومن ثم يبدأ في تعليل حقيقتها .

« – واذا تذكر صاحبنا موطنه القديم (الكهف)، والحكمة التي توافرت له فيه ، واذا تذكر رفقاءه السجناء ، الا تظن انه لا يهنىء نفسه على هذا التبدُّل الذي طرأ على حياته ، او انه لا يرثي لحالتهم القديمة ؟

« لاشك في انه يفعل هذا .

« – واذا كان اصحابنا قد اعتادوا ان يكرموا بعضهم بعضاً بمنح الرتب والالقاب، ألا تظن انهم يكرمون من كان اسرعهم في ملاحظة الظلال التي كانت تمر من وراء الحائط ، ومن كان يسير في الطليعة ، ومن كان يسير وراءه ، ومن كانوا جماعة مجتمعة ، ومن كان في وضع يستطيع معه ان يتنبأ عن الامور العتيدة التي ستقع، اتظن ان امرءاً كهذا يهمه التكريم او الالقاب والامجاد، او انه يحسد صاحبه الذي فـاز بهذه الامور ؟ الا يقول مع هوميروس :

« انه لمن الافضل للمرء ان يكون خادماً فقيراً عند سيد فقير ، وان يتحمل كل عناء ، من ان يفكر تفكيرهم وان يعيش عيشتهم .

« اجاب : نعم . اظن انه يؤثر ان يعاني الشقاء على ان يفكر مثل هذا التفكير الخاطىء او على ان يعيش تلك العيشة التاعسة .

« قلت له : تصور ثانية ان رجلاً ينقل فجأة من عالم الضياء الى موطنه القديم المظلم ، الا تظن ان الظلمة تغشي بصره ؟

« – لا شك في ذلك .

« – ولنفترض ان هنالك مباراة فيما بينهم ، وكان عليه ان يتبارى مع الآخرين الذين لم يخرجوا قط من الكهف في اخذ

قياسات للظلال ، مع العلم ان بصره لا يزال ضعيفاً من جراء الانتقال من الضياء الى الظلام ولم يألف الظلام بعد (والوقت الذي يقتضيه بصره ليعتاد الحالة الجديدة من الظلام بعد الضياء سيكون فترة طويـــلة) الا تظن ان القياسات التي يأخذها ستكون موضع هزء وسخرية ؟ فان اصحابه في الكهف سيقولون: صعد الى فوق ونزل الى الكهف بدون عينين، وسيقولون له ايضاً انه كان افضل له الا يصعد الى عالم الضياء . واذا حاول واحد منهم فك رباط احدهم واقتاده الى فوق، الى النور ، الا تظن انهم يلقون القبض عليه لاقترافه جريمة فيحكمون عليه بالاعدام لانه سبب فقد عيني احدهم ؟

« اجاب : لا يشك احد في صحة هذا القول .

« قلت له : لك ، يا عزيزي غلوكون ، ان تربط هذا التشبيه بالقضية الآنفة الذكر . ان السجن هو عالم النظر، وضياء النار الذي كان يخترق جانباً منه هو الشمس ، واؤكد لك انك لن تكون قد اسأت فهمي اذا فسرت الصعود من الكهف الى عالم الضياء على انه رحلة النفس الى عالم الفكر التي حاولت ان اعبر عنها حسب ظني خطأ كان ذلك ام صواباً ، الله اعلم ، غير اني اترك الامر لك لتقدره . ولكن اكان تشبيهي صواباً ام كان خطأ ، فاني اعتقد ان فكرة الخير هي آخر شيء يتضح لنا جلياً في عالم المعرفة ، ولا نستطيع رؤيتها الا بشق الانفس ، ولكن اذا استطعنا ان نتبينها على حقيقتها فاننا ندرك ان الخير هو

مصدر كل شيء جميل وحق في العالم ، وانه هو مصدر الضياء وانه هو سيد النور في هذا العالم المرئي، وانه ايضاً المصدر المباشر للعقل والحقيقة في عالم الفكر . الخير هو تلك القوة التي ينبغي للرجل العاقل ان يضعها نصب عينيه اذا اراد ان يكون تصرفه في الحياة الخاصة او العامة تصرفاً حكيماً عاقلاً .

« قال : اني اشاركك الرأي ، هذا بقدر ما استطعت ان اجاريك في تفكيرك .

« – فأضفت قائلاً : ليس لك ان تعجب من ان اولئك الذين يحصلون على هذه الرؤية السعيدة لا يرغبون في الهبوط الى مستوى شؤون الناس ، لان ارواحهم ابداً في صعود وارتقاء نحو العالم العلوي حيث يريدون العيش هناك ، وهذه الرغبة هي امر طبيعي، هذا اذا كان تشبيهنا تشبيهاً صحيحاً يمكن الركون اليه .

« – نعم ، هذا امر طبيعي .

« – وهل هنالك غرابة في ان ينتقل الرجل من حالة التأمل الروحي العميق الى حالة الانسان التاعسة فيتصرف تصرفاً يدعو الى السخرية ؟ اذ بينما تكون جفون عينيه لا تزال متكسّرة ، وقبل ان يعتاد الظلام المحيق به يرغم على ان يرافع في محاكم القضاء او ان يدافع في امكنة اخرى عن الصور او عن ظلال صور العدالة ، ويجهد ان يرد دعاوى اولئك الناس الذين لم يروا العدالة المطلقة قط في حياتهم ؟

« اجاب : كل الغرابة .

« — ان كل من أوتي بعض العقل يعلم ان الحيرة التي يقع فيها المرء من جراء ما تراه عينه على نوعين وتتأتى عن عاملين : هذه الحيرة هي التي يقع فيها المرء اذا خرج من النور الى العتمة ، او دخل في النور من بعد العتمة . وهذا يصدق على عين العقل كما يصدق على عـــين الجسد . ان من يذكر هذه الحقيقة عندما يرى امرءاً وقع في حيرة وارتباك من جراء تعاقب النور والعتمة على قدرته في الرؤية لا يضحك من هذا الامر . فانه يسأل بادىء ذي بدء اذا كانت نفس هذا الرجل قد خرجت من عالم الضياء ولم تألف عينه العتمة بعد ، او اذا كانت نفسه قد خرجت من عالم العتمة الى عالم الضياء فبهرته شدة النور . فيغبط واحداً منهما على السعادة التي يجد نفسه فيها ، ويأسى لحالة الثاني . واذا كان ليضحك من النفس التي خرجت من ظلام الكهف الى عالم الضياء فأحر به ان يضحك من النفس التي غادرت عالم النور الفوقاني لتهبط الى عتمة الكهف .

« — ان التمييز بين هذين النوعين من الضحك لأمر واجب .

« — ولكن ، اذا كنت مصيباً في رأيي ، فان بعض اساتذة التربية الذين يدعون انهم يستطيعون تلقين النفس من ضروب المعرفة التي لم يكن لها سابق وجود في تلك النفس — كإرجاع قوة البصر للأعمى — هم على خطأ .

« أجاب : نعم ، انهم يدعون مثل هذا الادعاء .

« — في حال ان القدرة على التعلم، بناء على الحجة التي اوردتها، قائمة في النفس ، وكما ان العين لا تستطيع ان تنتقل من الظلمة الى النور بدون انتقال الجسد كله ، هكذا آلة المعرفة فانها لا تستطيع الانتقال من عالم الصيرورة الى عالم الكينونة بدون انتقال النفس ، ثم انها تتعلم تدريجياً ان تتحمل رؤية الكينونة لا بل ابهى واحسن ما في الكينونة ، اعني الخير .

« — هذا صحيح .

« — ثم أليس من الواجب ان يكون هنالك طريقة او وسيلة لاحداث مثل هذا التغيير على ايسر السبل ؟ ولست اقصد خلق القدرة على النظر ، لان هذه القدرة موجودة ، انما اتجاه هذه القدرة هو اتجاه خاطىء معاكس للاتجاه الذي يستطيع معه المرء ان يرى الحقيقة .

« قال : نعم ، لنا ان نفترض انه ينبغي ان يكون هنالك سبيل الى هذا .

« — وكما ان سائر السجايا والفضائل الاخرى ، التي ندعوها تجوزاً فضائل النفس ، قريبة من فضائل الجسد ومشابهة لها — حتى وان لم تكن فضائل موروثة فانه بالامكان تنميتها عن طريق العادة والمراس — هكذا فضيلة الحكمة فانها تحتوي ، اكثر من اي شيء آخر ، على عنصر الهي دائم الوجود ، وبواسطة هذا الانتقال يصبح ذا نفع وخير ، او من جهة قد يصبح ذا شر وأذى . ألم يقيض لك مرة ان ترى الذكاء الضيق المحدود يشع

من عيني رجل صعلوك شرير ؟ ما اشد الرغبة والطمع فيه ! وما اقدر نفسه على رؤية الغاية والهدف بدقة ووضوح ! انه عــلى النقيض من الاعمى، غير ان بصره الحاد قد اخضع لخدمة الشر، وادهى من هذا ان شره يتناسب مع شدة ذكائه .

« قال : هذا صحيح .

« — ولكن ما قولك لو ان هذه الطبيعة البهيمية اجتثت من مثل هذا الصعلوك الشرير في ايام الطفولة ، او لو ان مثل هؤلاء الناس حرموا من ان ينغمسوا في المــلذات الجسدية ، كالأكل والشرب ، هذه الملذات التي هي بمثابة اثقال من الرصاص نُحمّلها اياهم عند ولادتهم ، فتراها تشد بهم الى اسفل ، وتجعل بصيرة نفوسهم تتجه الى الامور الدنيا ، اعود فأقول ، لو اننا حررنا هؤلاء الناس من هذه العوائق ووجهناهم في السبيل المعاكس فان هذه القدرة فيهم على الرؤية تستطيع ان ترى الحقيقة ، وان تراها بوضوح وجلاء تماماً كما يرون الآن الامور التي وجهناهم نحوها خطأ .

« — هذا امر ممكن .

« قلت له : نعم . وفضلاً عن هذا فان هنالك امراً آخر يمكن حصوله ، او بالاحرى هنالك استنتاج محتم بناء على ما تقدم ذكره، وهو ان كلا الفئتين: الاغبياء الذين يجهلون الحقيقة، والذين لم يلقنوا الحقيقة ، حتى ولا اولئك الذين يواصلون سعيهم لمعرفــة الحقيقة ، جميع هؤلاء لا يصلحون ان يكونوا حكاماً

ماهرين قادرين على تصريف شؤون الدولة. فلا الفئة الاولى تصلح لهذا العمل ، لان ليس لها غاية وحيدة او هدف واحد يسيرهم في جميع تصرفاتهم الخاصة منها والعامة ، ولا الفئة الثانية لانها لا تعمل الا اذا ارغمت على العمل في جزيرة السعداء بمعزل عن سائر الناس .

« اجاب : هذا حق .

« قلت له : اذن ، واجب علينا، نحن الذين نؤسس الدولة، ان نرغم اصحاب افضل العقول على الحصول على هذه المعرفة التي أوضحنا انها افضل من اية معرفة اخرى – عليهم ان يواصلوا التقدم صعداً الى ان يبلغوا مرتبة الخير . ولكن عندما يصعدون بعقولهم الى المراتب العليا ينبغي لنا ان نمنعهم من ان يتصرفوا كما يتصرفون الآن .

« – ماذا تعني بقولك هذا ؟

« – اعني انه ينبغي لهم ان يظلوا في العالم العلوي، ولكن لا ليبقوا هناك بل ليهبطوا ثانية الى عالم السجناء في الكهف ، كي يشاركوهم في الشقاء والعناء ، والامجاد ايضاً سواء اكان لمثل هؤلاء السجناء قيمة في الحياة او لم يكن .

« اجاب : ولكن أليس في هذا بعض الظلم ؟ هل لنا ان نجرهم من عل الى عالم اكثر شقاء وعناء ، بينما نعلم انه يمكن لهم ان ينعموا بحياة افضل ؟

« قلت له : لقد نسيت مرة ثانية ، يا صديقي، ان المشترع لم يقصد في سنه الشرائع ان يجعل من طبقة معينة في الدولة طبقة تنعم بالسعادة والهناء اكثر مما تنعم به سائر الطبقات . ان السعادة هي من نصيب الدولة بأسرها . والمشترع يوحد بين المواطنين عن طريق الاقناع او الارغام جاعلاً منهم وحدة تنعم بما تقدمه الدولة لهم من خدمات ، وبالضرورة يصبح هناء كل فرد وسعادته وقفاً على هناء الآخرين وسعادتهم. لهذه الغاية فقط وضع المشترع شرائعه ، لا لاشباع رغائب هذه الفئة الحاكمة ، بل ليجعل منها اداة تربط بين اجزاء الدولة وتوحدها .

« — هذا صحيح . لقد فاتني هذا الامر .

« — واطلب اليك ان تلاحظ، يا عزيزي غلوكون، انه ليس من الظلم بشيء ان نرغم فلاسفتنا ان يعتنوا بالآخرين ويهتموا بامورهم ، ونقول لهم صراحة ان امثالهم من الفلاسفة في دول اخرى لا يجبرون على ان يعانوا من متاعب السياسة وبلواها ، وهذا امر معقول اذ ان هذه الطبقة من الفلاسفة انشأت ذاتها وهذبت نفوسها عـــلى حسابها الخاص وبالطريقة التي اختارتها لنفسها . هذا فضلاً عن ان حكومة هؤلاء لا ترغب في ان تراهم يحتلون مراكز في الحكم. وبما انهم تعلموا لنفسهم وعلى حسابهم الخاص فلا ينتظر منهم ان يردوا الجميل ، او ان يعبروا عن شكرهم لثقافة لم يتثقفوا بها . اما انتم فقد اوجدناكم في هذا العالم كي تكونوا حكاماً على جماهير الشعب ، وملوكاً عـــلى

انفسكم وعلى سائر المواطنين ، وقد ربيناكم تربية افضل وارفع من التربية التي توافرت لهم ، ولذا فانكم اكثر قدرة على ان تسهموا في هذا الواجب المزدوج . لذلك يجب على كل واحد منكم ، عندما يحين دوره ، ان يهبط الى الموطن السفلي في الكهف ويروض بصره على ان يرى في الظلام . وعندما يعتاد نظركم العتمة فان قوة البصر لديكم تفوق قوة بصر اهل الكهف بمقدار عشرة آلاف ضعف، وبيسر تعرفون كنه الصور والظلال هناك والى اي شيء ترمز اليه ، ذلك لانكم سابقاً عرفتم الجمال والعدل والخير على حقيقته. وبذلك تصبح دولتنا، التي هي ايضاً دولتكم ، حقيقة لا مجرد حلم، ويكون نظام الحكم فيها نظاماً يفضل في روحه نظام الحكم في دول اخرى حيث يحترب الناس ويتقاتلون على ما يرونه من ظلال وصور . هذا فضلاً عن ان الصراع بينهم على التفرد بالحكم ، الذي يعتبرونه الخير العظيم ، ينحرف بهم عن جادة الحكم الصحيح . بينما الحقيقة هي ان الدولة التي يتهيب فيها حكامها قبل الاقدام على هذا الواجب الخطير هي الدولة الفضلى ، وهي الدولة التي تسير فيهـــا عجلة الحكم بهدوء وتؤدة . واقبح دولة هي تلك التي يتحرق فيها حكامها للوصول الى الحكم .

« اجاب : هذا صحيح .

« ـ وعندما يسمع تلاميذنا هذا، ايرفضون ان يتحملوا نصيبهم في عناء الحكم ، عندما يسمح لهم ان يقضوا معاً معظم اوقاتهم في عالم النور ؟

« اجاب : هذا امر مستحيل . لانهم اناس يعرفون العدل، وما نفرضه عليهم من واجبات هو عدل . وليس عندي شك في ان كل واحد منهم يتولى منصبه في الحكم معتبراً اياه واجباً محتماً عليه ، لا كما يعتبر حكامنا الحاليون مناصبهم في الحكم .

« قلت : نعم يا عزيزي ، وهنا يكمن السر . عليك ان تخلق حياة جديدة ، حياة افضل من حياة الحاكم اذا اردت تنشئة جيل جديد من الحكام يصلح لتصريف شؤون الدولة ، فينتظم امر الحكم فيها . في هذه الدولة التي يتوافر فيها مثل هذا الجو يستطيع الاغنياء باخلاقهم وحكمتهم ، لا بفضتهم وذهبهم ، ان يحكموا ، لان غنى الحياة الحقيقي في الاخلاق والحكمة . بينما اذا سارع الحكام الى تولي ادارة شؤون الحكم وهم فقراء وجياع لاشباع رغائبهم المادية الخاصة ظناً منهم انهم سيفوزون بالمغانم ، تأكد انه لن يكون هنالك نظام بل فوضى . لانهم سيتقاتلون على المناصب ، وما ينشأ من حروب وثورات اهلية من جراء ذلك سيكون السبب في هلاك الحكام انفسهم وفي القضاء على الدولة برمتها .

« اجاب : هذا امر لا يمكن انكار صحته . ان الفئة الوحيدة من الناس التي تحتقر الحياة السياسية وما اليها من مطامع هي فئة الفلاسفة . هل تعرف فئة اخرى من الناس تنظر هذه النظرة الى الحكم ؟

« قال : حقاً لست اعرف فئة اخرى .

« — والذين يحكمون ، الا ينبغي لهم الا يكونوا ممن يحبون الحكم ويتعشقونه لغاية في النفس ؟ والا اذا كانوا ممن يتعشق المنصب فانه يتحتم عليهم ان يكونوا منافسين الواحد منهم للآخر ، فينتهي الامر بهم الى التنابذ والتقاتل .

« — ليس في هذا من شك .

« — اذن ، من هم اولئك الناس الذين علينا ان نرغمهم على ان يكونوا علينا اوصياء ؟ لا شك في انهم اكثر الناس حكمة في تصريف شؤون الدولة . وافضل الناس خبرة في امور الادارة والحكم ، هم اولئك الذين يرون ان الامجاد الحقيقية ، والحياة الفضلى ليست امجاد السياسة ولا حياة السياسة .

« فاجاب : هؤلاء هم النــــاس الذين يجب ان يحكموا وسأختارهم للحكم » .

مــراجع مختــارة

Botsford, G. W., and Robinson, C. A., Jr. *Hellenic History*. 4th ed. New York, 1956. A one-volume history of ancient Greece, with many photographs, maps, and plans.

Bowra, C. M. *The Greek Experience*. Cleveland, 1958. A masterly account of ancient Greece from the days of Homer to the fall of Athens in 404 B.C.

Burn, A. R. *Pericles and Athens*. New York, 1949. An interesting sketch of the great Athenian and his world.

Dinsmoor, W. B. *The Architecture of Ancient Greece*. London, 1950. The best scholarly treatment of the subject.

Finley, J. H., Jr. *Thucydides*. Cambridge, 1942. A brilliant interpretation.

Godolphin, F. R. B. (editor). *The Greek Historians*. 2 vols. New York, 1942. The complete works of Herodotus, Thucydides, Xenophon, and Arrian in a variety of translations.

Highet, G. *The Classical Tradition*. New York, 1949. A brilliant account of the chief ways in which the Græco-Roman tradition has shaped the literatures of modern Europe and America.

Jones, A. H. M. *Athenian Democracy*. New York, 1958. A fine, scholarly examination of Athenian government in the fifth and fourth centuries B.C.

Jowett, B. *The Dialogues of Plato Translated into English*. Introduction by R. Demos. 2 vols. New York, 1937. The famous translation of Plato, with an excellent introduction.

Kitto, H. D. F. *Greek Tragedy*. London, 1939. The best popular book on the subject.
Lawrence, A. W. *Greek Architecture*. London, 1957. An authoritative, general history of ancient Greek architecture.
Lullies, R., and Hirmer, M. *Greek Sculpture*. Translated by M. Bullock. Revised edition. New York, 1957. A magnificent picture book.
Oates, W. J., and O'Neill, E., Jr. (editors). *The Complete Greek Drama*. 2 vols. New York, 1938. All the extant Greek tragedies and comedies in a variety of translations.
Pfuhl, E. *Masterpieces of Greek Drawing and Painting*. Translated by J. D. Beazley. New edition. London, 1955. A beautiful picture book, with an authoritative text.
Richter, G. M. A. *The Sculpture and Sculptors of the Greeks*. New revised edition. New Haven, 1950. The best scholarly treatment of the subject, with over 750 photographs.
Robinson, C. A., Jr. (editor). *An Anthology of Greek Drama*. First Series. New York, 1949. Various translations of Æschylus' *Agamemnon*, Sophocles' *Œdipus the King* and *Antigone*, Euripides' *Medea* and *Hippolytus*, Aristophanes' *Lysistrata*.
——— (editor). *An Anthology of Greek Drama*. Second Series. New York, 1954. Various translations of Æschylus' *Prometheus Bound, Choëphoræ* and *Eumenides*, Sophocles' *Philoctetes* and *Œdipus at Colonus*, Euripides' *The Trojan Women* and *The Bacchæ*, Aristophanes' *The Clouds* and *The Frogs*.
——— (editor). *Selections from Greek and Roman Historians*. New York, 1957. Various translations from, among others, Herodotus, Thucydides, Xenophon, and Polybius.
Rodenwaldt, G., and Hege, W. *The Acropolis*. Norman, 1958. The buildings and sculptures of the Athenian

Acropolis, with a good text and extraordinarily beautiful photographs.
Taylor, A. E. *Plato: the Man and his Work*. New York, 1956. An excellent general study.
Toynbee, Arnold J. *Hellenism: the History of a Civilization*. New York, 1959. A stimulating study.
Warner, R. *The Greek Philosophers*. New York, 1958. An excellent popular account of Plato, Aristotle and others, with excerpts.
Zimmern, A. *The Greek Commonwealth: Politics and Economics in Fifth-Century Athens*. 5th ed. Oxford, 1931. A famous standard work.

فهرست

أ

ب

ت

ث

ج

ح

فهرست المحتويات

هذا الكتاب

« وبازدياد المعلومات التي أسفرت عنها البحوث المركزة التي تدور حول اثينا القديمة يتحتم على الكاتب الذي يتناول هذا الموضوع ان يلمّ الماماً شاملاً بأهمية هذه الفترة ككل ؛ وفضلاً عن هذا عليه ان يفسّر ، اذا كان ذلك في حيّز الامكان ، لماذا اصبحت أثينا ، في تلك الفترة ، ذات شأن خطير في بلاد الاغريق .. وقد عرضت امام القارىء ما اعتبرته أهم المزايا التي تميزت بها تلك الفترة ، وحاولت ان ابيّن خطورة شأنها . فأسفرت الدراسة عن صورة لمجتمع كثير التعقيد، كما هو شأن كل حضارة عظيمة ، بما تعكسه تلك الصورة من مفاخر ومآت مجيدة ، ومن عيوب وأخطاء » .

كتاب جدير بالقراءة

الثمن : ٣٥٠ ق

مكتبة لبنان